كان يشبهني

فتحية القلاّ

إلى الإنسان الإنسان..

الذي يؤمن أن الحب الصادق..

ومضة وتفجّر.. ووعد بماء لعطش الوجدان.

وإن الحب وحده أعظم مفاخر الإنسان

ف.ق.

نادني من آخر الدنيا.... ألبي

كل درب لك يفضي.... فهو دربي

يا حبيبي.... أنت تحيا لتنادي

يا حبيبي.... أنا أحيا لألبي

فدوى طوقان

تقديم

الكتابة تعني الكثير لعشاقها، تعني تحقيق وجودهم وتعميقه وتعني استزادة في المعرفة والثقة في نفوسهم، بها يصبحون أقدر على الحكم على الأشياء والتحكم بها. يعتبرون الرفض الصامت جريمة يرتكبونها بحق النفس قبل أن تكون بحق الآخرين. يعيشون حالة استنفارلا يهدأ إلا بتحويل رفضهم هذا إلى كلمة تقرأ، ويدفعون بها بعيداً عنهم لتريحهم.

في لحظة كانت تضج بالحركة، وصلت فيها إلى قناعة بأن أحتكم إلى القراء وأقدم حضوري بينهم بمقومات خاصة في نظرتي للحياة، فأفرج عن كتاباتي التي تفجرت نتيجة الخروج من الصدفة التي احتوتني ونأت بي عن كل ما حولي زمناً طويلاً جداً.

كنت إبّان تلك الفترة أطل فيها على العالم، أرقب عن بعد، وأرى بضمير، وأحكم بدون إلحاح الاحتياج من أي نوع كان، فأحس بتدفق مشاعري وأحاسيسي بشكل موجع. كنت أدهش كلما اكتشف مدى صلتي الحقيقية والقوية بكل ما حولي، مما زاد من إصراري على الاحتكام إلى الكتابة.

من نافذة واسعة أطللت على الحياة، رأيت أن كل بني الإنسان في الهمّ سواء. النساء مرهقات من القيود، ابتداء من تلك التي جعلت لؤلؤة في محارة وانتهاء بتلك التي جعلت فأساً يضرب الصخر فتتفجر عيون يشرب منها الجميع إلا هي. والرجال متعبون من المرأة ومتعبون لها. والمرأة والرجل هما قطبا الحياة، بكل ما فيها، معاً يشكلان المنبع الحقيقي للخير وللشر، وللحق وللباطل، للجمال وللقبح. فكان الطرفان بكليتهما مدار اهتمامي في كتاباتي.

يحضرني الآن تعليق جاءني من صديق أديب وناقد بعد إطلاعه على إنتاجي، أنني لا أدخل متاهات الحياة ومعايشتها إلا عن طريق واحد، علاقة الرجل بالمرأة والعكس. لا أنكر أن تلك الملاحظة شغلتني وخاصة أنني أثق برأيه وأقدره كثيراً، لكن سرعان ما أدركت أن كل ما يصدر عني مشفوع بقناعتي الذاتية، بأن العلاقة الأزلية بين الرجل والمرأة هي أساس الحياة، التقاؤها هو الذي يخلق من حولهما الحياة، فتضج بكل عنفها وسكونها، وبكل سخائها وشحها، فرحها وترحها،

وضوح المسيرة في طرقها ووعورة متاهاتها. تيقنت أن الحب الذي جمع بينهما منذ البداية، أو نما بينهما بشكل أو بآخر هو بداية الحقيقة، ومن خلال هذا الحب أو هذه العلاقة تقوم الحياة. جبران خليل جبران الفيلسوف والأديب في كتابه "النبي" يصف العمل بأنه لا قيمة له إذا لم يتحول في نهاية المطاف إلى قيمة تقدم لمن نحب.

آمل أن تجدوا في روايتي أن البحث جاد وحقيقي طوال رحلة الحياة عن الإنسان، الإنسان المرأة والإنسان الرجل، هذا شأن كل المخلوقات التي وهبت رهافة حس وسمو وجدان، في رحلة حياتي كنت واحدة ممن بحثوا عن جوهر الإنسان، سمعت ورأيت كثيراً من المصائب التي تحصل في بيوتنا بشكل عام دون أي إدراك لأهمية السمو بالمشاعر إلى درجة اليقين أن الرجل والمرأة ندّان، ولا فرق بينهما، فماذا وجدت؟

وجدت أن النساء حين يحاولن التمسك بوجوب تحقيق إنسانيتهن تتصدى لهن معوقات لا تعدّ ولا تحصى، من رواسب تربية ما زالت في النفس، غرستها فيهن امرأة مثلهن، أو ممن هم قوامون عليهن، سواء من كان مالكاً لشروط القوامة أم لا. فينكصن، ولا تتمسك بهذا الحق وتصمد أمام هذا الرفض الجائر إلا من تؤمن بمدى المسئولية التي تقع على عاتقها وترضى بقناعة تامة دفع ثمن تخليها عن القوالب الجامدة.

وجدت الرجال كل منهم يهيأ ليكون رجلاً متمتعاً بحقه مخيراً بين أن يكون إنساناً أو يكتفي برجولته التي تغنيه عن الكثير فيختارها طبعاً ومن يختار الأخرى يتهمونه بقلة الرجولة، متناسين أن العقل الذي هو أعظم سمات الإنسان، هو القاسم المشترك الأعظم بين النساء والرجال. هذا العقل لا يمكنه اكتساب قدراته من فراغ، بل بإتاحة الفرص له لاكتساب مهاراته، ويا حبذا لو أتيحت هذه الفرص بشكل متكافئ للطرفين، فيتوصلون بعدها إلى عقل متكامل، وهو الأساس والثابت، تكمله وتدعمه علاقة الحب التي تضمن استمرار الحياة وتمنحها دفقات الحرارة والحيوية لتلطف برودة العقل وإسرافاته.

هل تستطيع روايتي هذه إبلاغ الرسالة؟ أتمنى ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

يبدأ الأديب ثائراً وينتهي حكيماً.. والعكس ليس صحيحاً، إذ لا يمكن أن يولد الأديب حكيماً وينتهي ثائراً، فالثورة صراخ ورفض وعنف ومحاولة للتغيير باستخدام القوة، أما الحكمة فهي الرؤية الموضوعية والتشخيص القائم على النظرة الكلية والنهج الشامل للتغيير من خلال إعمال العقل..(راجع أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ) والطب مثل الأدب.. يبدأ الإنسان الطبيب ثائراً.. بمعنى الثورة على المرض ثم ينتهي حكيماً يدرك العلاقة الكلية بين المرض والبيئة والمريض ذاته، وينتقل من قضية علاج مرض إلى قضية أعمق وأهم وهي تكييف الإنسان وسعادته في الحياة .

لكن هذا لا ينطبق على فتحيه القلا في روايتها، فهي قد بدأت ثائرة وحكيمة في وقت واحد.. جمعت بين الثورة والحكمة في آن واحد.. بدأت روايتها ثائرة ووصلت في نهايتها إلى حكمة ثائرة ، قمة الحكمة وصل إليها نجيب محفوظ في السيرة الذاتية آخر رواياته أو أعماله المطبوعة بعد ما يقرب من ستين سنة في الكتابة، أما فتحية القلا فقد أوجزت حكمتها في الحياة في الصفحة الأخيرة من روايتها الأولى وكأنها هي شخصياً ولدت مع بداية الصفحات وأصبحت شابة في منتصف روايتها ثم انتهت كعجوز في الثمانين في نهاية الرواية..حيث تطايرت الأوراق في كل اتجاه من يد بطلة روايتها ثم انتشرت على سطح البحر مثلما تكسّر التمثال أيضاً وتبعثرت شظاياه ولم تشأ أن تتركها تجمع الأوراق أو تلم الشظايا جعلتها مستسلمة لمشيئة الأقدار فسبحت في الاتجاه المعاكس لاتجاه بطلها.

لا أدري لماذا تذكرت رائعة الطبيب إبراهيم ناجي الأطلال والتي عنتها أم كلثوم ، بدأ ناجي بالثورة.. الثورة على الحب وانتهى بالاستسلام لمشيئة الأقدار حيث مضى كل في طريق مختلف وحين تلاقيا كانا كالغرباء كما شاءت لهما الأقدار.

تذكرت أيضاً رباعيات الخيام التي ترجمها رامي والتي بدأت بالشهوات وانتهت بالحسرات، بدأت بالعنفوان وانتهت بالاستسلام والانكسار ..بدأت بالعربدة وانتهت بالفهم.

في بداية روايتها يداخلك انطباع أن فتحيه القلا تعد لمعركة، ثم تشتعل النيران، ثم تحيلها إلى محاكمة تتولى فيها جميع الأدوار.. فهي الجاني والضحية وهي ممثل الادعاء وهي المحامي وفي النهاية هي أيضاً القاضي، ومن خلال ذلك تظهر التناقض في الحياة.. وتكشف عن مواقف الألم والحيرة والتردد والخوف.. كل ذل من خلال العلاقة الأزلية بين رجل وامرأة.. لا تحاول أن تجهد نفسك عزيزي القارئ أن تعرف من هي المرأة ومن هو الرجل ،فهي أي امرأة وهو أي رجل.. إنها قصة الحياة وهي أيضاً قصة الموت .. البداية والنهاية.. الحقيقة والوهم..أو الحقيقة والسراب.. أو الحقيقة والزيف أو الحقيقة واللاشيء الحقيقة والعدم.

من أين أبدأ لست أدري؟ اختلطت الرؤى كلها، بدايات اختلطت بنهايات، وحدث جديد أعلن بقدومه نهاية فترة من العمر طويلة وقاسية ومريرة، أخذت الكثير مني، من عمري، من صحتي، من روحي....فترة من أجمل أيام عمري، انتهت بهذه الفاجعة التي أعادتني لما مر من أحزاني، وأعادتني لأعيش بدايات ونهايات رجوت الله كثيراً أن أنساها..

تظل المأساة دائماً في مشكلتك مع الآخر فتقول:

لست نادمة، بعض الأشخاص تعيش معهم ساعات فتكون تلك الساعات عمراً طويلاً، بينما تعيش مع آخرين عمراً مديداً ولا تشعر بهم ومعهم بطعم حياة أو موت.

تقول هذه الرواية الكثير وتكشف كل الاسرار.. وتفضح معظم الحقائق، فما ستقول في روايتها الثانية والثالثة، هل ما زالت أحزان أخرى؟ وهل مازال هناك ألم أقسى؟ هل يحتمل العمر كل هذا الوجع؟ وكم عمر نعيش لنبدده في حياة لا نرى فيها إلا السواد؟ العمر قصير مهما عشنا فبالتأكيد ليس ألف عام.

بعد الانتهاء من قراءة هذا العمل الهام تتجمع داخل الإنسان وعلى لسانه كل المتناقضات، العسل والمرارة، الضيق والسرور، الطمأنينة والخوف، الأمل

والحسرة، إنها الحياة هكذا ستظل .. سنحتضر نحن ونموت وتستمر هي وستظل الحدوته الخالدة تتكرر..حدوتة رجل وامرأة .

القاهرة 20-4-97

د. عادل صادق

أستاذ الطب النفسي

الفصل الأول

(1)

لست أدري من أين أبدأ؟ اختلطت الرؤى كلها، بدايات اختلطت بنهايات، وحدث عظيم ألغى ما كان قبله، أعلن بقدومه نهاية فترة من العمر طويلة وحافلة بالقسوة والمرارة، أخذت الكثير، من عمري، من صحتي، من روحي.

حدث ملأ حياتي لسنوات بالحب فجمّلها، سنوات اعتبرتها الترضية والعوض عن كل ما عانيت، تصالحت مع نفسي، ومع كل من حولي، ونظرت بعين الرضا إلى الطبيعة، رأيت جمالها وروعتها، وإلى الناس على اختلاف طباعهم، عدت إلى التواصل معهم من جديد، قبلتهم بحسناتهم وأخطائهم. سنوات كانت أجمل الأيام في عمري، انتهت بهذه الفاجعة التي أعادتني لما مرّ من أحزاني، وأعادتني لأعيش بدايات ونهايات رجوت الله كثيراً أن أنساها.

مازلت أعيش ذهول المفاجأة منذ تفجرت ذات ليلة من ليالي الزمان. نعق بوم، فحصل ما حصل، كان الوقف أكبر من احتمالي، رفضت التصديق في بداية الأمر، ثم أنكرته، وأحسست كأنني أعيش حلماً مرعباً، سينتهي حالما استيقظ من نوم طويل، خلته قد امتد أياماً أو شهوراً أو لعله استغرق سنوات.

كنت أتقلب في فراشي بين نوم ويقظة أرهقا نفسي، كلما غفوت أصحو ثانية أشدّ فزعاً. هل صحيح أن كل الذي مر بي حقيقة؟ أخيراً صحوت تماماً.. جلست في السرير، الهدوء حولي مخيفاً، وجفاف فمي وشفتاي تزيد من ضيقي، انزلقت من الفراش ببطء، قشعريرة ألمت بي من رطوبة ثيابي المبتلة من العرق أثناء نومي المتقطع القلق. مشيت إلى المطبخ كالمنومة. وقفت بتبلد، نسيت ما أتيت من أجله، أعود أدراجي إلى الصالة، أطوف في البيت، حاملة حلمي الثقيل بين جفنيّ، فوق صدري، رأسي يئن من وطأة الصداع، مطارق لا ترحم تشق قنوات فيه سرعان ما تمتلئ بعذابي وحزني، كيف لي أن أخفف هذا الوهج المتدفق من رأسي المتعب على جبيني ووجنتيّ وكفيّ، أهرع إلى صنبور الماء أفتحه على آخره وأتركه يتدفق فوق رأسي الملتهب بالحمى التي تشعرني أكثر بلسعة برودة الماء الطبيعية في مثل هذا الجو البارد.

ثورة غضب عارمة تنتابني، أصبها على نفسي وعلى الطبيعة وعلى الناس والأشياء، لماذا أشتت نفسي، الحقيقة ماثلة حولي في كل شيء، لماذا الهروب، وإلى أين، ألم ينته زمن تعليق ما يضيرني على مشاجب الآخرين؟ ألا أعترف أنني بت أحترف الترحال كلما ضاق بي زمان أو مكان؟

تتضح فكرة الرحيل في رأسي، تتقاطع بشكل طولي وعرضي مع بعضها البعض، رحيل باتجاه عرضي، تواصل وانفصال بين مكان ومكان، وبين زمان وزمان. أتوغل في رحيل طولي مواصلة الهروب نحو ذاتي أكثر وأكثر، أحتكم إلى منطقي الخاص الذي لم تعد تتعارف عليه مخلوقات الله.

يشتد الصمت، أخاف أن أسقط في وحشة تبتلعني، فأصغي بصورة آلية إلى صوت البحر، مازال خاضعاً لنواميس وقوانين الطبيعة، يزمجر في هذا الشتاء القاسي، بت مع طول الزمن ومع نشوة الحب العارم الذي سما بروحي وزاد من رهافة حسي أفهم صوت هديره، فأحوّل حركات أمواجه ومده وجزره إلى أحرف أبجدية، أعيد نظمها، أعد عدد مرات ترديدها، حتى الآن.. وفي هذه اللحظة وفي هذا الوقت من الزمن المحايد الذي يقع بين زمنين متطرفين أشغل فكري به أسمع مقولته "هديري صوت أزلي وتلاحق الأمواج مستمر بلا نهاية وبلا بداية، والرذاذ يتناثر بلا حدود بلا انتهاء". أتساءل بهمس" ألم يعرف البحر ما حل بي بعد؟ ألسنا جارين وعاشقين قديمين؟ ألا يسألني عنه؟ ألا يفتقده مثلي؟ ألم يتذوق في زفراتي وملوحة دموعي طعم اليأس، أم أن الجروح لا تدمي إلا صاحبها؟

من كان يصدق أن أذبح في اللحظة ذاتها التي كنت أعيشها بسعادة كاملة وأعلن على ملأ من أهلي وأصحابي ذروة فرحتي وفخري بهذا الحب العظيم الذي لن يتكرر، وبهذا الحبيب الأثير والأحب إلى روحي وقلبي؟ كيف أصدق أنني ما بين غمضة عين وانتباهها سأنتقل ببساطة من التوحد الكامل معه إلى وحدة مرعبة؟

أعود وأعيش تلك اللحظة الفريدة مرة ومرات بكل وجعها بكل حذافيرها، كانت مع بدايات الليل، والحب يعبق في جو بيتنا ونحن زوجان أمام الدنيا كما كنا أمام نفسينا، روحاً واحدة، وقلباً واحداً، طوال سنوات حبنا،لم أجد تعبيراً أكثر صدقاً وحرارة غير أن أقترب من ماهر وأعانقه، بدا من عناقنا كم كنا متماثلين طولاً، كما كنا متشابهين في لون بشرتنا وأعيننا. لم يكن جميلاً، لكنه كان رجلاً حقيقياً جذاباً واثقاً معتزاً بنفسه إلى أقصى حد.

كثيراً ما كنت أمازحه فأقول له "كم نحن متشابهان" كان يضحك بسعادة ويرد بتحبب "لكنك امرأة فاتنة فهل أنا بمثل هذا الجمال" أرد مداعبة "نعم نحن متشابهان في كل شيء مع ميزة صغيرة هي أنني امرأة".

كنت كلما شعرت نحوه بمثل هذا التوهج في حبي والممزوج بكل ألوان المشاعر الإنسانية الرائعة أعانقه، مثلما فعلت في تلك اللحظة، حين استجاب لف ذراعيه حولي وضمني إلى صدره شعرت كأنما كان يعانق سعادة الدنيا ويسكبها بكل دفء روحه وحرارة عواطفه في روحي، أحسستها عظيمة رائعة فطفرت دموع السعادة من مقلتيّ.

شعرت بيد أختي تضغط على كتفي، رددت عليها بابتسامة مطمئنة، نظرات أختي الحيرى أثارت كوامن الشجن في نفسي، وذكرتني بأمي، بعينيها السوداوين الصافيتين ونظراتها الحاملة كل الحب وكل الحزم معاً، بقدر ما تمنيت أن أرى وجهها الصبوح المحب في هذه المناسبة الحبيبة إلى قلبي، بقدر ما خفت أن يمثل أمامي وأرى العذاب واللوم والخوف في عينيها الحبيبتين، وحدها التي كانت تلامس كتفي بهذه الطريقة الحميمة حين تتدفق مشاعري فرحاً أو حزناً. تذكرت حضورها في الليلة الأخيرة قبل

انتقالي إلى بيتنا، ظلت حتى آخر لحظة تحاول أن تثنيني عما قررت، فأشحت بوجهي،تركتني ودموعها على خديها أو هكذا خيل لي، لأنني سرعان ما أدركت أنها غير موجودة معي ولن تكون. دفنت وجهي في عنق ماهر لأبعد عن خيالي ما بدأ يزحف نحو عقلي ويكدر صفاء نفسي. لم يفهم أحد ما اعتراني، ظنوا أن هذا الالتصاق يعني مزيدا من الحب والتودد فاقتربوا والتفوا حولنا صاخبين مهللين فرحين، فالحب الصادق سرعان ما ينتقل إلى النفوس مثل أي عدوى، علا صوت الغناء والضحك واختلط بكلمات التهنئة الرقيقة الحلوة فتوهجت السعادة ولمعت أكثر على وجوه الجميع.

وقف الدكتور جمال بين الحضور، مطلاً على الجميع بوجه ضاحك أليف رغم خلوه من الوسامة، كان كعادته غير مهندم تماماً، فآخر ما كان يحرص عليه أناقته أو حتى انسجام ملابسه، لكن ذكاء عينيه يبرق ويعكس على وجهه الهدوء والثقة والفخر بكل ما حقق من إنجاز علمي ونجاح مهني، اعتاد أن يكرس عنايته إلى حياته العملية، وبقدر ما كان طبيباً نفسياً ماهراً، كان إنساناً جديراً بكل تقدير ومحبة، يثبت مكانته في أي مكان يكون فيه بفطنة وحنكة اكتسبها من تنقله الكثير في دول أوروبا وأميركا أثناء إكمال تخصصه. كان أول من تكلم من الحاضرين بتلك الطريقة الظريفة التي يستحسنها كل معارفه وأصحابه قال بصوت خطابي:

– أخيراً انتصر الحب.

أجبته عن بعد وأنا التصق أكثر بماهر:

– رغم كل العوائق..

علق حسان بمعاناة فنان مرهف الإحساس:

– لقد انتصر حقاً ولكن إلى حين، اسألوا المجرب، سنتقابل بعد بضع سنين.

من البعيد جاء صوت ليلى، لم أتبين وجهها، فأغلب الأحيان تكلمني من بعيد لم يحدث أن كلمتني ووجهها مرفوع نحوي، كانت إنساناً متواضعة في كل شيء، ابتداء من الشكل وانتهاء بالمضمون ومع ذلك تحكمها عقدة الأنا، لم يحصل أن وجهت مديحاً أو استحساناً لأحد، بل إنها لا تجد في كائن من كان أي تميز مهما كان بارعاً، دائماً تتهم الحظ الذي يأتي عشوائياً فيضل طريقه عن الأكفاء أمثالها أغلب الأحيان. ولكن في الحقيقة كانت تتمتع بقدرة غير عادية على استمالة النفوس نحوها، فكسبت صداقتي ومحبتي الشخصية بسهولة فائقة رغم توصيات كل من حولي في ضرورة الحذر في تعاملي معها، سمعتها تقول:

_ لماذا بضع سنين؟ لتكن بضع شهور مثلاً.

ساد الاستياء على الوجوه، خاصة وجه ماهر، أشعرتني كلماتها ببعض التشاؤم الذي سرعان ما تبدد حين اقتربت مني ملك، صديقتي المقربة وشريكتي في العمل والمؤسسة، كانت تقف بعيدة عني بالقرب عفاف زوجة الدكتور جمال وبجانبها كانت ليلى وامتثال. ملك عايشت قصة الحب الكبير بيني

وبين ماهر، بقدر ما أثارت حماستي في بداية العلاقة بيني وبين ماهر إذ اعتبرتها مجرد حافز لي لاستعادة مشاعري الأنثوية المغيبة بعد نكسة زواجي الأول، بقدر ما أبدت اعتراضها على فكرة ربط حياتي من جديد معه بحياة زوجية غير مأمونة العواقب بسبب الطريقة غير المقنعة التي تعارفنا بها حسب رأيها، ثم أبدت قناعة ظاهرية بنظريتي التي كنت أرد بها عليها، بأن الحب يصنع المعجزات. قالت:

– قلبي معكما ولكن هل له مكان بينكما.

رد ماهر بسرعة يمازحها وهو يعرف مقدارها عندي:

– يعني بعد مائة سنة يجوز أن نوافق على منحك ذلك المكان.

اختلطت الأصوات وتعالت،لم أعد أتبين الكلمات بوضوح لكن كلها كانت أمنيات، لم أحس أننا بحاجة لها، فما بيننا كان أكبر من كل الكلام. ارتفع صوت ملك عالياً وهي تصرّ على حسان أن يغني لنا، استجاب حسان لرجاء زوجته ووقف بقامته المديدة الرشيقة، وخطا بخفة إلى الأمام واقترب من الدكتور جمال، بدا في أناقته المعهودة مثل أبطال الروايات الغرامية في العصور الرومانسية، بدأ يحرك يديه ممثلاً حركات قائد الفرق الموسيقية بطريقة كوميدية لطيفة وسط المجموعة المحيطة به، طلق المحيا، انحنى قليلاً محيياً، ثم اعتدل، ودندن قليلاً والجميع ينتظر الكلام المرافق لذلك الإيقاع فجأة اخترق غناؤه المرح الضجيج "يا وردة الحب.. ترارارا" مدندناً النغمة المناسبة، فانطلق صوت ماهر مرافقاً لصوت حسان "الصافي" بينما عيناه تنظران نحوي بوله. قالت ملك منبهه زوجها:

– حسان.. أنظر إليهما وتعلم.. أعد من جديد، وانظر نحوي، وقلد ماهر، على الأقل كيف يقول الصافي، كلمة واحدة عادية تحمل في كل حرف منها مشاعر الوله.

ضحك الجميع وتتابعت التعليقات اللطيفة المرحة نظر حسان نحو ملك طويلاً ثم قال:

– مازالا في أول مواسم العطاء. صدقيني.

عاد إلى ترديد مقطع الأغنية بينما كانت عفاف زوجة جمال تقترب من زوجها قائلة:

– لماذا لا تشارك في الغناء فأنت أقرب الجميع للعروس.

لم يرد بقي وجهه على هدوئه أثارها صمته فبان على وجهها شيء من عدم الرضا، التقطته ليلى مثل ردار فذ فسألتها بطريقتها الساخطة:

– ألا يضايقك أن تكون فتون في هذه المكانة عند الدكتور؟

ضحك الجميع لتبديد ثقل السؤال فأجابتها عفاف بهدوء جميل:

– لماذا أتضايق وأنا أعرفها جيداً، لقد أحببتها مثله تماماً وكذلك أولادنا لقد أصبحت واحدة منا مع الأيام، أن من يعرفها يثق بها لأنها إنسانة ملتزمة، ولن تخون نفسها أبداً.

قلت لعفاف بود غير خاف:

– الحق ما تقولين لقد كنتم لي خير الأصدقاء في كل الأوقات.

تحركت حواسها كلها ورفعت رأسها باعتداد وقالت:

– جمال يود أن يقول كلاماً أجمل بكثير مما غنيتم الآن يجمع كل ألوان الورود والصفاء، هيا جمال تكلم.

التفت جمال نحو الجمع المتكاثر حوله وابتسم راداً على نظرات التساؤل في العيون الملحة حوله وقال:

– سأقوله بعد أن يحين دوري مرة ثانية، لقد افتتحت الكلام وسأختتمه.

حثه حسان أن يكمل حديثه، وصمت الجميع بانتظار ما سيقول:

– كلام أقوله عادة عن فتون بكل مناسبة، لكن الآن المناسبة غير كل المناسبات، مناسبتنا اليوم رائعة حقاً، فقد اختطفها من بيننا فارسها وحبيب عمرها، صار من الواجب أن أحييهما معاً، وأعلن انضمامه رسمياً لأسرتنا.

تبسم ماهر وقال:

– يسعدني ذلك جداً، نحن بانتظار ما ستقول، في الحقيقة فتون تستحق الكثير.

– لقد عرفناك منذ فترة وجيزة، مع ذلك أحببناك وألفناك، ووجدنا العذر إذ أحبتك فتون كل هذا الحب وكنّت لك التقدير والاحترام. بما أنني من أكثر الناس معرفة بتلك الإنسانة التي وقع اختيارك عليها أهمس لك أمام الجميع أنها بقدر ما تبدو قوية متماسكة بقدر ما تجرح بسهولة وربما من هفوة صغيرة.

قالت عفاف:

– لا تستغربوا هذا الحرص من جمال تجاه فتون، فهو يراها بعين الباحث وعين الفنان، هكذا قال حين سألته عن اهتمامه الكبير نحوها، أعترف أنه نبهني كثيراً إلى طريقة تعاملها مع الجميع، فعرفتها جيداً، إنها بالفعل كما يصفها جمال دائماً، عالم كامل رحب لا محدود، غريب ومتفرد ومتوهج ومتطور، همها فهم من حولها البعيدين والمقربين على السواء.

قال ماهر وقد أحاط كتفي بذراعه:

– إذن فأنا معذور إن أحببتها وتزوجتها، وتركت الدنيا من أجلها.

قال جمال:

– إذا قلت أنني أعرف كم تحبها فلا تستغرب، لأنني أعرف تماماً كم تحبك هي، مع الأيام ستعرفها أكثر وستحبها أكثر وستعود وتخبر هؤلاء الأصدقاء أننا لم نكن مبالغين حين أطلقنا عليها مثل هذه الصفات.

قلت لماهر وأنا أحيط عنقه بذراعيّ:

– هل عرفت الآن أنك تزوجت من قبيلة من النساء أو على رأي الدكتور الصديق عالم بحاله؟

قالت أختي وهي تشد على يده:

– فتون حبيبة الجميع و هاهي قد استبدلتك بالجميع، أتمنى لكما التوفيق.

بدأت طرقات متفاوتة بين الخفيف والعنيف بإيقاع جميل، على الباب مرة وأخرى على الزجاج، تلفت انتباهنا، تحولت نظراتنا نحو الباب الذي كان بفتح ببط وأطل من فرجة الباب وجه عدلي، دخل وبصحبته أحد المصورين، وقف لحظة بطريقته الاستعراضية مهندماً على غير العادة هذه المرة، وقبل أن يتكلم شد قامته وأخذ نفساً عميقاً، ورفع خصر بنطاله للأعلى وتفقد الحزام، بدا وجهه الأجرد الطفولي كأنه وجه امرأة أكثر مما هو وجه رجل، وبابتسامة واسعة قال:

– وصلنا أخيراً لمنزلكم العامر لنشارك في الفرحة ولنهنئ ونصور.

التفت إلى مرافقه وهو يقول:

– مرافقي مصور في المجلة وهو عموماً أبرع المصورين عندنا. هيا ابدأ عملك.

قال ماهر:

– لقد تأخرت كثيراً حتى ظننت أنك لن تأتي.

اقترب منا ومال على ماهر وهو يقول بصوت هامس:

– تعطلت بسبب ضيوف جاءوا فجأة وأصروا على مرافقتي وأصررت على الرفض.

قلت مجاملة:

– ضيوفك ضيوفنا كان يجب أن تحضرهم معك.

قال بمغزى لم أفهمه:

– كيف أحضر ضيوفاً غير مدعوين أصلاً علاوة على كونهم ضيوفاً غير مرغوب فيهم؟

ثم انتحى بماهر جانباً وهمس له بكلمات قليلة، تحمس الجميع بانتظار تعليق ماهر الذي توقعوه قهقهة عالية رداً على مزاح عدلي الثقيل، واستعدوا للمشاركة والتوضيح، لم يحصل شيء من ذلك، بل بقي ماهر محتفظاً بهدوء وجهه، حين التقى ونظراتي المتسائلة ابتسم دون إضافة فخاب ظن الجميع، وعادوا من جديد لما كانوا عليه قبل دخول عدلي ومرافقه.

ألح الجميع من جديد على ماهر أن يغني كما وعد، لكنه بدا عازفاً عن الأمر كله وتركه لعدلي الذي بدأ فعلاً يدندن بأغنية شعبية قديمة، تشابكت الأذرع وأخذوا يتمايلون على نغمات اللحن الذي يغنيه عدلي، لكن حين أنطلق صوت حسان بمواويل خاصة بفرح المناسبة صمت الجميع وأن بقي التمايل وذلك الالتحام الذي يفرضه جو المحبة والسعادة التي كانت تغمر القلوب المستجيبة إلى الومضة التي اشتعلت ذات يوم وما تزال تذكي حرارة الحب بين قلبي وقلب ماهر الذي أتانا صدفة ودون ميعاد.

توزع الجميع حول المائدة الصغيرة والمعدّة بإتقان، كانت ملك تحوم حول الجميع بقصد المساعدة بينما ليلى حشرت نفسها بجانب عدلي بشكل لافت للنظر ولكن الهمس الذي كان يدور بينهما يوحي

عن بعد أنه على درجة من الأهمية وأنهما على معرفة وثيقة. كنت أتحدث إلى امتثال ولكن كانت عيناي تبحثان عن ماهر الذي بدا منذ دخول عدلي على شيء من القلق والتوتر والذي لا يمكن لأحد ملاحظته سواي، فقد كنت أعرفه كما أعرف نفسي.

كان الدكتور جمال واقفاً مع زوجته وقفة سينمائية للتصوير، بعد عدة لقطات اقتربا مني ومن امتثال لأخذ صورة مشتركة، رأيت الجميع قد اقترب لأخذ صورة جماعية تاركين لي ولماهر مكان الصدارة بينهم. كان ماهر واقفاً بجانب الباب ناديته فلم يسمعني اقتربت منه وأمسكت يده أهزه كأنه منوم قائلة:

– ماهر الجميع بانتظارنا لأخذ صورة جماعية.

استجاب لي وأنا أسحبه على عجل ولكن لم تفارق عيناه الباب، وقف بيننا مقطب الجبين مشدود الوجه بشكل ملفت للنظر، قالت امتثال ممازحة:

– ابتسم من فضلك، وإذا عزت الابتسامة الطبيعية، وهذا شيء عادي حين يتزوج المرء، فقل كلمة ما فتنفرج الشفتان وتضلل الجميع.

لم يستجب لمزاحها بل على العكس نظر إليها نظرة حيادية كأنه لا يعرفها فالتفت إليها لأهون عليها وقع تلك النظرة القاسية، وجدتها غير مبالية كعادتها، تتحلى بروح عالية فلا تتعب معارفها بقدر أولئك المفرطي الحساسية الذين يضيعون الكثير من العلاقات.

كنت غارقة مع نفسي بمثل هذه الأفكار حين فتح الباب ببطء قبل أن يصل ماهر إليه ويفتحه، على المدخل وقفت امرأة صارخة المنظر، ألوان ملابسها وزينتها وشعرها الملون بكل درجات اللون الأشقر بصبغة غير متقنة ومجعد ومنفوش بشكل غريب. واضعة يداها حول خصرها وتهتز بطريقة سوقية، فتهتز السلاسل الكثيرة المعلقة على صدرها والحلق الكبير المتدلي من أذنيها والأساور حول معصمها. كنت أتأملها وقد شلت المفاجأة حركتي ولساني صدمت عيناي بخلخال ذهبي يحيط بإحدى قدميها يهتز أيضاً مع هزّات جسدها المتحدية.

لم تطل حيرتي وماهر بعيد عني ليوضح لي ما أراه، لم يظهر عليه أنه فوجيء أو أستهجن حضورها، اقترب أحد الحاضرين وأنقذني من حيرتي. قال موضحاً:

– إنها الفنانة سهيلة! الصحافة أولاً ثم فنانة.. أين الفرقة؟

قبل أن يكمل كلامة بدرت مني التفاتة حادة لا إرادية كأنما توجست خيفة في اللا شعور إلى ماهر أولاً ثم إلى عدلي وبعد ذلك استقرت عندها، ارتبك الضيف قليلاً ثم قال موضحاً:

– إنها سوسو ألا تعرفينها؟.. من لا يعرف سهيله.. لعل ماهر دعاها لتشاركه فرحته.

اقتربت من عدلي وقلت:

– عدلي أهذه الضيفة التي رفضت إحضارها معك.

هز رأسه موافقاً فاستطردت:

– لكن ما علاقتها بماهر لتشاركه فرحته.

قالت ليلى بسرعة:

– أنها تعمل معه في التلفزيون ممثلة على ما اعتقد.

قال الضيف وهو في أشد حالات الابتهاج:

– الفنانة سهيلة فنانة استعراضية قد تضيف جواً من المرح في هذه المناسبة.

ثم التفت ناحية ماهر وهو يقول:

– أفسح لها الطريق لتدخل ولا يهم إن كانت بلا فرقة سنتدبر الأمر.

ضحك الجميع بينما جلست على أقرب مقعد بجانب امتثال التي كانت متجهمة، وعيناها مسمرتان على تلك الفنانة التي ما زالت واقفة بعناد وتحدي أثارا المخاوف بعد حين، يبدو أن جميع الرجال يعرفونها أو سمعوا بها، كذلك كانت ليلى وملك يعرفنها، بينما وقف الآخرون على الحياد بانتظار الأحداث ليظهرن موقفهن، النظرات تغيرت فوراً إلى نظرات دهشة واستغراب، بينما كنت أتقدم نحو ماهر قالت:

– لا أعرف لماذا استغرب الجميع حضوري، أنا أحق الجميع بالحضور، على الأقل لأبارك لماهر وامرأته، ألا يناديك هكذا؟

التصقت بماهر أكثر وأكثر، هل كنت أحمي نفسي أم أحميه، اختفت الضحكات التي كانت تتطاير من كل مكان، وقف من كان جالساً وتلفت من كان واقفاً يبحث عن مقعد يتداعى عليه، ارتعشت يد ماهر ومع ذلك ضغط بحرارة على يدي لأطمئن، نظرت نحوه لم يبد على وجهه شئ من توتره الذي شعرت به وانتقل إليّ. ترك يدي وتقدم نحوها محاولاً الاحتفاظ ببشاشته.

هدأت الموسيقى ثم توقفت، العيون أنصب فضولها على ماهر الذي وقف عند الباب ممسكاً به لإغلاقه بينما يده الأخرى تمسح جبينه وتفرك عينيه، كنت أتابع نظراته لاحظت اضطرابها وعدم استقرارها، انشرخ قلبي، أنزل يده بعصبية ليعدل من رباط عنقه الذي بدا مشدوهاً لا يستقر في مكانه، كأنه على وشك أن يخنقه، نجح أخيراً أن يرخي الرباط، لكن كانت نظراته فقدت تركيزها تماماً، حرص أن لا تلتقي وتلك النظرات المحمومة المبحلقة من حوله بانتظار التوضيح. يا ألهي هل يعرف مثل هذه النوعية من البشر؟

العيون اتسعت وانتشر فضولها انتشار النار في الهشيم، مدت يدها بهدية ملفوفة بعناية ومربوطة بشريط ابيض غير نظيف، ناولتني إياه وهي تقول:

– هذه هديتي لكما بهذه المناسبة السعيدة.

سألها ماهر بكل ثبات وهدوء:

– هل لي أن أعرف سبب تشريفك منزلي دون دعوة؟ على كل حال لا بأس، يبدو أن وجودك له قيمة عند بعض الحضور، فهلا أسعدتهم بشيء من الرقص والغناء في هذه المناسبة السعيدة و..

قاطعته بضحكة عصبية صاخبة، بانت على إثرها أسنانها كلها فقد انسحبت شفتاها الرفيعتين للخلف مع الضحك المفتعل، فلم يبق سوى الطلاء الداكن، بدت لعيني بملابسها وزينتها الصارخة الألوان مثل بهلوانات سيرك، أنهت للتو أداء نمرتها. قالت وهي تحدج الجميع بنظرات ذات معنى:

– لم أكن أتوقع أن لا تسألني إلا سؤالاً واحداً،ماذا أريد؟ وأعددت الجواب، كنت سأجيبك، حسناً أريدك أنت يا سيدي، أريدك كلك كما وعدتني، أريدك أن تخرج معي فوراً، هه.. ما قولك..؟

قلت موجهه كلامي إلى ماهر:

– ماهر من هذه المرأة؟ وكيف تكلمك بتلك اللهجة الآمرة السوقية.

ردت على سؤالي بسؤال ماهر:

– هل أخبرها من أنا أم ستخبرها أنت؟

صمتت وانتظرت فقال ماهر:

– ماذا أخبرها؟ فأنا لا أعرفك ولا صلة لك بك إلا مثلما يعرفك أي رجل من الحاضرين، وأرفض أن تكلميني بهذه الطريقة. لا تضطريني لتصرف غير لائق ببيتي وبنفسي.

أمسك بها عدلي وحاول إخراجها من البيت، فاصطدم بليلى التي كانت تقف قلقة عند الباب، تنتقل بسرعة خاطفه إلى كل الزوايا مما لفت انتباهي وقد رأيتها عدة مرات تنظر إلى عدلي كأنها بانتظار فرصة مواتية للكلام فسمعته يقول لها هامساً " أهذا ما كنت تسعين إليه". رأيت ملك تأتي من بعيد وتسحب ليلى من طريق عدلي وهو يشد سهيلة للخارج، وقفت لحظة لتسترد أنفاسها المتهدجة وقالت:

– لا بأس.. سأخرج ولكن أقسم أنك لن تهنأ بحياتك أبداً، إذا كان على الرجال فهم كثر، ولا يعني خسران أحدهم شيئاً خطيراً، وأنت بنفسك قلتها منذ قليل، تعرفني مثلما يعرفني غيرك وهذا صحيح فهذه مهنتي. لكن أردت أن أذكرك أنك من لاحقتني طويلاً مؤكداً الحب رغم كل شيء، هل نسيت أنك أحببتني بكل خطاياي؟ صدقتك واستسلمت أمام إصرارك، وأملت أن أصبح زوجة مثل أي امرأة. لقد خدعتني وخدعت من تتزوجها الآن. ولا أحد يعلم لماذا تزوجتها؟

ثم أدارت وجهها نحوي وقالت بصدق:

– أعذرك أن خدعت، فأنا نفسي قد خدعت. ولكني أدرك الآن أن هناك أشياء أخرى تباع بالطريقة التي نبيع فيها أجسادنا ولا يوصم من يبيعها بالصفة التي نوصم بها نحن، أنت قد لا تعرفين عما أتكلم لكن زوجك العزيز فهم وهذا المهم.

كنت أسمعها وأحاول أن أتذكر، فصوتها وشكلها ليس غريبين عني، لكن أين رأيتها ومتى؟ ردود الفعل على الوجوه من حولي تعيدني إلى ما أنا عليه، شهقات الاستغراب والاستهجان من انهمار سيل كلامها المسموم ترتفع وتنخفض بهمس مريب، كانت الأمور تتدافع نحو اللحظة الحرجة لم أكن قد فهمت بعد، ظلام شديد لفني، ظلام حقيقي، لم أعد أستطيع الرؤية بوضوح، كأن أمنيتي التي أتمم بها بدواخلي في أن أذوب وأتلاشى على وشك التحقيق، صرت أقاوم انهياري وسط هذا الجمع المحتفي بزواجنا، فكرة واحدة سيطرت عليّ آنذاك، ألا أنهزم أمام نفسي، لا يهم أي مخلوق في الدنيا قدر ما تهمني نفسي، انهزامها يعني نهايتي. حاولت فتح عينيّ دون جدوى، كان آخر ما رأيت فستاني الوردي فقد لونه وبهجته وأناقته وجماله، ووجهي مبعثر في كل اتجاه كأنه حطام تمثال شمعي أو كأن تلك التي دخلت بيتنا في تلك اللحظة شيطان مستني بلسانها المسموم فتحجرت ثم تفتت.

بهت الجميع بعد خروجها، والحيرة تعصف بهم، بدت واضحة في العيون، في الهمهمات، في حركات الأيدي الملوحة تحمل ردود فعل المفاجأة. لم أكن على استعداد لتقبل أي حديث أو نصيحة، ومع ذلك تطوعوا لإطفاء النار التي اشتعلت في البيت الجديد وأوشك أن يحترق، الجميع يتكلمون بصوت واحد ولغة واحدة أن أنسى حالاً ما سمعت، ولا أدع إنسانة وضيعة مثلها تخرب علي بيتي وتقتل حباً عمره سنوات تعادل عمراً كاملا، حباً ناضجاً اشتعل بين قلبين تجاوزا منتصف العمر، هو الحقيقة وهي الوهم.

نهضت بسرعة فغادرنا الجميع، تقدمت ملك مني وهمست، لم أفهم ما قالت ومع ذلك هززت رأسي. أتابع الوحيد الذي يقرأ صمتي ويفهم لغة عيوني، كان ساقط في ذهوله تماماً، ليس من حق كائن من كان التعدي على خصوصياتي، على مشاعري وأحاسيسي، إلى هنا وانتهى الكرنفال، الآتي لا يهم أحداً سواي.

تحاملت على نفسي وتقدمت منه، أنتفض مثل طير ذبح منذ ثوان ومطلوب منه أن يغير مصيره المحتوم ويتخطى الموت. بقينا وحدنا آخر المطاف. أنا وأنت، وجها لوجه، تغسل الدموع وجهينا، وخمس سنوات حب تنزف بيننا، مازالت هديتها بين يدي لقد ناولتني المعول الذي سنهدم به بيتنا وبأيدينا، جلست على الأريكة الموجودة خلفي ومددت يدي إلى صندوق ذهبي موضوع بعناية على الطاولة أمامي، منتصباً كتحفة فنية غالية بجمالها وبمحتوياتها، كان يحتوي على رسائله ألي، مظاريف زرقاء تحتوي بداخلها رسائله مازالت تنضح عبير الحب وحرارته، لونها الأزرق المعبر عن الصفاء، اللون الذي أحببناه كثيراً لأنه لون البحر ولون السماء ولون النقاء الذي كان سمة حبنا.

أخرجتها من الصندوق وفردتها أمامي على الطاولة الصغيرة، كأنني أخرجت قلبي من حنايا ضلوعي، أو كأنني ألقي بكل الكلام المحفور على جدران القلب في الهواء. نظرت إليه من خلال طبقة الدموع الكثيفة دون أن أراه، أشاح بوجهه عني. فتحت الهدية كانت تمثالاً من الرخام الأبيض، رجل

وامرأة متعانقان، شئ يشبه التمثال الكريستال الذي أهداه لي في بداية تعارفنا، وحمله رسالة أنني وحده امرأته دون نساء العالم، حمله عهوداً ووعوداً كثيرة ولا عجب إن كان التمثال الرخامي قد أهدي إليها حاملاً لها الرسالة ذاتها حب وعهد وميثاق.

كبرت فجيعتي بحبيبي وبنفسي، أي حب هذا الذي أكنّه له فأعماني، تذكرت حين ساورتني بعض الشكوك لم اترك لها الفرصة لتكبر وتؤرّقني كنت اعتقد أنها الخوف العادي الذي يعيشه كل محب خوفاً على حبه وحبيبه الذي يعني نفسه ذاتها ومع ذلك لم أخفها عنه بل نقلتها له بدقة فكان يجيب بصبر لا ينفذ وحب كبير مؤكداً أنه ليس في حياته غيري فأصدقه.

كان مازال واجماً ناظراً إليّ نظرات ولهى مملوءة بالحب، أخافتني، طافت برأسي الأوهام، ترى ماذا لو أن كل ما قاله وما أعطاني من صدق وعشق مجرد كلام خال من أي إحساس حقيقي، نظرت إليه بأسى صائحة:

– ماذا تنتظر مني؟ هل مازال عندك المزيد؟

لم يرد بقي صامتاً والغضب ينبض على صدغيه، لعله نسي من أنا وماذا أعني له، لم أستطع أن أفسر صمته كما أراده، بأنه متنازل عن حقه في الدفاع عن نفسه متمسكاً بإبائه، بل اعتبرته صمت المذنب الذي ليس لديه ما يقوله، ومع ذلك أصررت أن يرد علي فقال بهدوء وبصوت خفيض:

– ليس الآن.. قد نخسر بعضنا وإلى الأبد إذا تناقشنا، ليس لدي ما أقول إلا أن أصب فوق رأسك كل هذا الغضب، ولا أريد ذلك.

قلت والكلام يعلو وينخفض في رأسي مثل أمواج البحر الهادرة تحت قدمينا:

– لقد أحببتك أكثر من نفسي ومازلت وسأبقى، كل ما أريده منك الآن أن تعترف لي أن شكوكي لم تكن وهماً، بل بها ظل من الحقيقة، وأن إحساسي كامرأة تحب كان صادقاً، ثق أنني لن أفقد إيماني بحبك الكبير لي مهما كانت الإجابة.

لم يرد كانت عيناه تتابع استرسال دخان سجائره التي تعبق حوله وترحل في شكل دوائر بدا لي أنه يتسلى بها عن كل ما بي، قلت بعنف:

– يجب أن ترد عليّ لا تتركني أحرق نفسي بينما أنت تتلذذ باحتراق سيجارتك.

نظر إليّ طويلاً وعميقاً، وهز رأسه باستخفاف ظاهر، ثم قال ببطء وهو يضغط على مخارج حروفه:

– مازلت أملك نفسي، لم أبعها لك، ولم أبعها لأحد، ولم أسترخصها كما تدّعين.

قلت بخوف من صوته البارد:

– أنت تعرف أنني لم أطالب بملكية رغم أنك عملت لي بها صكوكاً، لأنني بالمقابل لا أريد أن أملكك نفسي، كنت ومازلت أعتبرك خير الرجال وأريدك أن تبقى كذلك، يجب أن تكون صريحاً معي

إلى أبعد حدود الصراحة، في ذلك وحده راحتي وإنقاذي. أنا أحبك والحب كما علمتني يحرر صاحبه ويسمو به، ولأنني أعرف أنك حر أنتظر منك الحقيقة.

قال برباطة جأش يحسد عليها:

– إنها كاذبة، لكنك مثل أي امرأة عادية تصدق عن رجلها شيئاً مثل هذا بسهولة فائقة، مهما كان بعيداً عن المنطق والصدق. ظننتك غير النساء، آسف لا أستطيع أن أفرق بين الحب والثقة فإذا صدقتها وكذبتني فلن تستقيم حياة بيننا.

لم أردّ إلا بمزيد من الدموع، بينما ازداد لهاثه وتغير لون وجهه، ازداد سمرة، وتحت سمرته شحوب واضح، شفتاه ترتعشان، وقف أمامي، ثم رأيته فجأة يقذف بنفسه خارج الباب ويتركه مفتوحاً على مصراعيه، كانت الحركة سريعة، رغم أنها كانت منتظرة، إلا أنني بهت وتصلبت كل أعضائي، عيناي محدقة بالباب وبالفراغ والعتم في الخارج فقد خيّل إليّ أنه حيوان مفترس فاغر الفم أبتلع منذ دقائق قليلة كل أحلامي وسعادتي وحبيبي ونفسي.

(2)

أحبّ هذا الذي كان أم شيء لا اسم له أغرق القلب سنوات اعتبرتها كل عمري وجعلني أرى الحياة تستحق أن تعاش؟ أوهم وسراب هذا الذي أضفى على العقل سحابات غيومه فجعله قادراً على الغوص في لجة عواطف ومشاعر إنسانية بدونها كانت الحياة بدون معنى؟ نعم إنه وهم إنه سراب أقولها بلا تردد وبلا خوف، وهم من أجله ترك العقل كل ضوابطه التي تحيله إلى محكمة قائمة أبداً في الداخل، دقيقة مثل الصراط ناصعة مثل قلوب النسّاك، وهم لم أتبينه في حيّنه، حمل قلبي على أجنحة حب طاغ حلّق به وفتح أمامه أبواباً مغلقة قادته إلى سراديب مظلمة.

ألقيت القلم من يدي ونحيت الأوراق جانباً. مهما كابرت، مهما ابتعدت فإن النزف جار مجرى ثواني نهاري وليلي، سينتهي كل شي، ويهدأ بركان عواطفي، وألقي عن نفسي همومي وأحزاني إذا ما استطعت التوصل إلى معرفة علّة ما حصل. أفكاري المبلبله تزيد من أحزاني، بقدر ما أحس بالرغبة في الابتعاد أحس بالقدر نفسه بالحاجة إلى إنسان. الناس ضرورة من حولنا مهما أساءوا وسببوا لنا من ألم.

أكلم نفسي أحياناً أو أدون خواطري على الورق حيناً آخر، لأستعيض بها في وحدتي عن إنسان قريب مني، يهمه ما أعاني من الهم الجاثم كالجبل الصلد فوق صدري، أشكو ما بنفسي لنفسي، كأنني لا أثق بوجود من هو أخلص لي منها.

أمسك بالقلم ثانية، أمسكه بجمع روحي، تمرر سنه الرقيق على وجعها، ثم يسكبه على الورق الأبيض المنتظر بلهفة ما سيخط أو يهمس له به، بوحاً قد لا يشفي من الضربة القاصمة التي جاءتني من أحب الناس واستباحت كل شيء، لكنه يخفف من لوعة النفس ويمنحها راحتها والوصول بها إلى شيء من الرضا.

سأغرق أوراقي بفيض بوح من الأسى، قلمي معلق بين أصابعي، أتطلع إلى الأوراق المطروحة أمامي بنقاء آسر، أشفق عليها من فيضان الحزن فيّ، ليتها تدرك كم أعاني وأنا أغالب ألمي وأبحر في أعماق ذاتي وأحار، كيف التقي ونصاعة بياضها وأرد عليه.

كنت قد قضيت ليلتي الأولى مسهدة، نفسي مملوءة بخيبة أملها، أغذي روحي بالمهانة التي تعرضت لها كرامتي كادت أن تذلها في محاولة مني للتغلب على شعوري بالخيبة، أرفع رأسي عالياً فوق عدة وسائد لأعطي فسحة أكبر في صدري الضيق لأنفاسي المتلاحقة لتهدأ، أترك جسمي ينزلق على الفراش طلباً لراحة أوهم نفسي بها، ومع ذلك لا أتخلص من أفكاري المشوشة، لا ألبث على حال إلا دقائق، أتقلب على سريري، وسرعان ما أترك الفراش وأتجول في البيت، أرى ظله حولي، بل معي، أثبت خطواتي على الأرض، أمشي تيهاً كأنني فرس سباق داهمها غرورها فانطلقت لا تلوي على شيء، تدهم الحواجز بدل تجاوزها، تلقى بفارسها على الأرض وتدوسه بدل أن توصله إلى منصة الفوز.

مع طلوع الصباح، عادت لي إنسانيتي الرقيقة، وامتلأت نفسي بالحزن الهادئ، وتضاءل شعوري بالخديعة والهزيمة، شعرت أنني استحق ما جرى لي، ليس تحقيراً للذات بقدر ما هو اعتراف، حين أحببت، كنت مندفعة بعطش السنين وحرمان العمر كله، كنت ضحية احتياج قهري، إنه منتصف العمر، حاجز جديد، قاس ومخيف، يسد علينا فجوات الأمل ويضيق الرؤى فتأخذ نظرتنا اتجاهاً واحداً لا يرتد، فنستجمع شجاعتنا، ونعترف بأننا في المنحدر الفاصل بين الماضي من أيام العمر والآتي منها. نعيشه بكليتنا، ولكننا في أعماق نفوسنا نرفضه، نرفضه دون تفكير، ونقاومه كآخر محاولة يقوم بها الطريد للنجاة من يد قنّاصة، فيقع بين يديه، يسهّل مهمته بلهفته وخوفه واضطرابه.

قضيت معظم الليل جالسة بجانب النافذة العريضة المطلة على البحر، بدأ النور يتسلل إلى الصالة، الفوضى تعم المكان منذ الأمس، لم أجد في نفسي الرغبة في عمل أي شيء، أدرت وجهي صوب البحر أرقبه، سرح بصري على طول امتداده حتى حوافه البعيدة، هناك على مد البصر آثار عتم الليل الذي ساهرني طوال ليلتي الحزينة، سأنتظر، ستصل إليه الشمس وتبدده، كما فعلت مع بداية الشروق على سطح الماء القريب من نافذتي، كانت فجوة النور تتسع رويداً رويداً، أتابع باهتمام امتداد الضوء وتآكل الظلمة الخفيفة بانتباه، ومع ذلك لم ألحظ كيف يتم انتشار الضوء ولا كيف يتبدد العتم، لكني لاحظته ينقشع باستجابة رقيقة حتى اختفى تماماً، لا بدّ لليل من آخر، ويأتي النور ويبدد الظلام. أعاني سواداً يجلل نفسي في عباءته تكمن الحقيقة التي ستبدد الضلال الذي عشت فيه.

عقلي يأمرني بأن أنسى فأعذره. رائحة احتراق القلب تعبق بداخلي فأرثي لحاله. أتسلى عن كل ذلك بتأمل الشاطىء الرملي اللانهائي. حبات الرمل الممتدة أمامي أعرفها، أكاد أميز آثار أقدامنا محفورة لم يعفها مدّ ولا جزر، تقاوم الماء والموج والأيام تبقى ثابتة ثبوت هذا الحب في قلبي. ليذهب وليكن صورة بشعة للإنسان المخادع فسيبقى الحب أبدياً في القلب. ولن أنسى ولماذا أنسى.

مددت يدي باسترخاء وسحبت بعض الأوراق من الصندوق الذهبي، وبشكل عشوائي سحبت واحدة كانت بخط يدي، كلمات بعثتها له بمناسبة عيد المحبين، وقرأت بتمعن وببطء " أنت الحب كله، والعمر كله، والدنيا وكل ما فيها ومن فيها. حبك ولادة جديدة لي، أتخلق بين يديك من جديد يوماً بعد يوم. أجد معك الحب الكبير والأمان الذي يقتلع الخوف من جذوره. لمسة يدك، نظرات عينيك، حنوك على نفسي كنفسك، بهاء حضورك، حضورك حولي ومعي وبداخلي ينثر العطر في أيام عمري."

أعدتها إلى مكانها وبتأن أخذت إحدى رسائله، أتعمد واحدة بعينها أرسلها لي وأنا بعيدة في سفر، أسمعه يقول " في لحظة عشق وشوق، تبحث روحي عن روحك رغم البعد بين ضلوعي. يا امرأتي النائية في بلد قصيّ. مدي من نور العينين خيوطاً ومن وهج الشفتين همساً.. يهديني. يقتلني الشوق إليك فتعالي أو خذيني، مشتاق.. يملؤني حب أكبر من كل الكلمات، وهوى لم يخطر في بال إنسان،

ولهفة بحار تائه لرؤية نورس يحلق ويهديه إلى شاطئ الأمان. الليل طويل ممتد هل يعرف هذا الليل وهذا البحر شيئاً من نضرة قلب حبيبي؟"

لا تفقد كلماته ذاك الإبهار والاضطرام الذي شب ذات يوم فأفقدني عقلي ولم يخمد، قد لا تكون لكلماته تلك القيمة الأدبية نثرية أو شعرية لكن ما يهمّني إذا كانت تفتح ألف طاقة نور في قلبي المغلق منذ ولدت؟ شعرت براحة كأن الدائرة التي حوصرت بها قد كبرت على الشعور القاتل بالضياع، كأني استعدت وعيي من جديد. بدأت حواسي الأخرى تستعيد قدراتها، فأحسست بالجوع، همد الفكر، لم أشأ أن أعيده خلية نحل تدوي فترهقني وأعجز عن الخروج مما بي.

دخلت إلى المطبخ، كان هو الآخر تعمه الفوضى على صغره، لم أجد مكاناً لنقل خطواتي، أرضه متسخة بشكل يجعل التنقل أمراً عسيراً، تلتصق القدم بالأرض مع كل خطوة، تصبح خطاي بطيئة كأنني أمشي بلا جاذبية. نجحت أخيراً في اقتحام المسافة الضئيلة للوصول إلى الثلاجة ومددت يدي أختار بعض طعام موجود، أتذوقه، تعافه نفسي، لا اشتهي أي شيء فيها، أغلقها، عدت أحاول مرة أخرى الوصول إلى الموقد لصنع بعض القهوة وحين جلست لتناولها لم أجد لمذاقها ذاك الطعم ذاته الذي أحبه. معدتي الخاوية تؤلمني ومع ذلك ترفض أي شيء وكل شيء.

خرجت إلى الصالة وابتدأت أعيد إليها رونقها ونظامها ونظافتها، كانت مائدة الطعام مازالت عامرة بما لذ وطاب، لكنها في حالة همود، فالأطعمة والحلويات اختلط بعضها ببعض، أخذت في جمع أكواب المرطبات. هنا في هذا الركن كان يجلس ماهر أمس، بل أول أمس، لا أعرف، لعل هذا حصل منذ سنة، لعل الظروف منذ البداية كان تتهيأ لتذيقني كل هذا العذاب، جلست مكانه وتناولت كأسه، كان المكان يعبق برائحة عطره وسجائره، عقلي لم يطاوع قلبي على فتح خزائن الألم من جديد، قفزت دفعة واحدة في محاولة جديدة للهروب، أتحرك بسرعة مذهلة وأنا أنظف المكان لإجهاد نفسي فهذا يساعدني على النسيان.

عاد كل شيء إلى مكانه، وعاد للمكان رونقه، البيت كله في منتهى الجمال بألوانه الجذابة كأنه سرق من البحر سره، واتساعه على ضيق المكان. كان مملوءاً بالدف رغم برد شتاء كوانين، غامض غموض السر الذي يوحي به شموخه فوق الصخرة التي تحمله وتزهو به وبنا، لم أكن أعرف أن الصخرة التي نمت في حضنها أهنأ أيام عمري ستصبح ذات يوم معذبتي.

لم تستقر مشاعري بعد، إحساسي بالتغيير يتلاشى بسرعة، كأن ما قمت به كان تكليفاً في مكان ليس لي. أقفلت الباب والنوافذ بإحكام ثم أسدلت الستائر إمعاناً بالعزلة، أحتاج إلى بضعة أيام أعيد بها ترتيب أفكاري، لا بد أن تنتهي الأزمة مهما اشتدت وطالت.

بدأ الليل يتقدم، صوت تلاحق الأمواج وتكسرها وارتداد الصدى يزيد من وحشة الليل، نقرات المطر على الزجاج وصوت صفير الريح المخترق مفاصل الأبواب والنوافذ يذيب في قلبي المزيد من الوحشة

والاغتراب. ليس لي من ملجأ غير أوراقي، أعود إليها فأجدها بانتظاري، تسري عني، تضحك من تجهمي بوهن، تناولت القلم وكتبت "ليل جديد طويل وثقيل، جاء بعد انطفاء شمس نهاره، كل شيء تغير، وكل قرار تبدد، انقلب الجو، اشتدت أصوات الريح مع هدوء كل شيء حولي، أصوات تلاطم الأمواج تهدأ ثم تعود تصطخب، كأنها تحتج على الظلمة الكثيفة والوحدة والتقلب. الهدوء في بيتي يحيله إلى نصب تذكاري شاهد على زيف الدنيا والناس، صخب نفسي أقرب إلى صخب البحر وعقلي يحاول التشبث بالهدوء الأخرس حولي".

انتقلت إلى ركني المفضل وجلست فيه تماماً كما كنت أجلس وهو بجانبي، النار متقدة في المدفأة تتلاعب ألسنتها تنشر ظلالاً وهمية على الحوائط والسقف، مثل الحب الذي كان، وذبالة الشموع الذائبة تدريجياً مثل قلبي الموهوم تتراقص بين الوجود والعدم، تنير المكان فأستعيد ألفتي مع الأشياء وحين يظلم رغماً عن وجودها أبتئس.

على المنضدة الصغيرة أمامي أرى التمثال الأسطوري اليوناني رابضاً مكانه، يراني وأراه فيحس بي ولا أبادله الإحساس بمثله، كان يجسد التصاق الكائنين الأولين المرأة والرجل في كائن واحد، مازال يحس ويحكي عن الحب الأزلي الأبدي، بالصدق ذاته الذي أحسسته تجاهه منذ أهداه لي، وقد حمّله رسالة أبدية، بأنني امرأته التي كان يبحث عنها منذ خلق، لم يتغير، أغرز نظراتي الباكية والشاكية والحزينة فيه لعله يهزأ بي، لعله يخرج لسانه ويعترف بالزيف وبالحب المدروس، والعشق المسرحي الذي أشاعه حولي وبداخلي، لم يفعل، مازال ينقل الحب والغرام والمعنى الحقيقي لتماهي المحبين.

الأيام تزحف ببطء عنيد، والليالي تمر بحزن، ويشتد الصراع بين الرغبة الطبيعية في الاستمرار التي وضعها الله فينا، وبين الفناء المتربص بي في قلبي وبين ضلوعي. كلما أشاهده حولي أو يعبر في خيالي تتحكم وتفرض نفسها كحقيقة قائمة وموجودة وباقية. يتراخى جسمي كأنما تخلت عنه عظامه، لم أعد أقوى على الاستجابة إلى غلياني الداخلي، تتحرك الرغبة الطبيعية بإصرار وتكاد بين فينة وأخرى أن تنتصر بتشوق للعيش بدل الفناء.

أتنقل في البيت، أريد أن أبتعد عن وجوده الخارق في ذاتي، فأقترب منه أكثر، أريد أن أرى الأشياء مفصولة عنه، أشياء وحسب، بشكلها وخصائصها وبمكانها، ولا يتحقق لي ذاك الرجاء بل أرى كل شيء في مكانه ثابت كما وضعناه سوياً، وكأن يد ماهر ستمتد وتستعمله. من أين لنا بخاصية الأشياء في فقدانها الشعور والإدراك؟ لاشيء حولي يشعر بالكارثة التي حلت في البيت، ولا أي شيء يدرك أن البيت لم يعد فردوساً ولا بيتاً بل أصبح أطلالاً.

عقلي يتابع بشغف عيني المرهقتين، وهما بدورهما مسمرتان على الظلال التي يرسمها الضوء المتراقص، تتجمدان على ركنه المفضل حيث كان يجلس ليكتب لي، رأيته بكامل هيأته أقسم إنني رأيته، لا، لم يكن وهماً أو خيالاً، بل حقيقة أدور حوله متراقصة بنشوة وطرب على أنغام قلبي لا أكاد أستقر

في مكان فيتابعني بشغف كما يفعل دائماً، اقتربت منه أكثر، مددت يدي لتلامس الوجه الناظر إليّ بكل حب ووله فعادت فارغة.

في الحالات النادرة التي أستطيع فيها كبح جماح عذابي، يصبح لكل شيء وقع مختلف على النفس، لم يعد يعني لي ما كان يعنيه وهو معي، كل شيء أراه من ذاك المكان يثير الشفقة على أنفسنا من الأيام، كيف تغدر هكذا بلا أدنى إحساس أو أي رحمة؟ أي شيء أقوى منها يجردها فجأة من كل عطاء وسخاء وخصب، ويقلبها إلى أيام صم لا أثر للنبض فيها؟ الأيام والأشياء حتى أشياءه الخاصة تفقد نكهتها ومعانيها الجميلة التي أحسستها بنفس محبة. هل هذا ما أريده؟

ما سر هذا الرضوخ الكامل في هذه الفترة من مسيرة حياتي قهر نفسي وغير مسارها وهي الباحثة عن الحرية؟ لقد أنساني كم غذيتها في حسي ووجداني حتى كبرت، ثم ضحيت بالكثير من أجل الحصول عليها، ولكن سرعان ما فرطت فيها، وعدت للقيد الذي رفضته طويلاً باختياري، قيد أشد عنتاً من السابق، فإذا كان الأول قد أحكم الحصار حولي غصباً وزوراً، ألم أندفع نحو القيد الآخر بكامل إرادتي ووعيي؟ ألم أنس حريتي المزعومة عند أول منعطف بعد أن رأيته وعرفته؟ ألم ألقها خلف ظهري مع أول بوادر الحب حين لاح في أفق حياتي؟

الحب، آه إنه الحب! ما الحب؟ هل الحب والحرية خطان مستقيمان لا يلتقيان؟ الحب ذاك الحلم الجميل، ذاك الاشتياق الذي يشبه وجعاً لا يهدأ ولا يستكين، حلم الشوق، حين نصحو منه لا نجد جديداً، بل شعور مضن يؤكد أن الفرح والبهجة والنشوة كلمات ليس لها وجود، ينأى الشوق ويبقى الوجع، لن نعلو فوق الرغبات، ولن نرتفع إلى القمم. مع الصحو الموجع نتناسى كل الكلام والوعود وفيض المشاعر التي تلهج بالسمو والرفعة والعظمة والقمة، وأن الوصول إلى جوهر الحب بالصدق أنضجنا وكبّرنا، وفاض خيره في جوانبنا على من حولنا، واستعدنا إنسانيتنا المفقودة، بينما نحن في حقيقة الأمر لسنا سوى أتباع له، أشياء تتمرغ بالتراب وغاية ما تطمح إليه أن تعيش."

أمام مرآتي أبحث عن ذاتي المطحونة من وجع الأيام، مازلت أنا، أحمل اسمي وشكلي، قد أكون الآن أشد قوة وأكثر عنفواناً، لكن ما أهمية كل ذلك، فقلبي لم يعد قلبي المملوء طيبة ومحبة، وعقلي لم يعد عقلي المتحدي الرافض لكل القيود غير قيده، ما بقي مني إنسانة تستطيع مواصلة الحياة، ولكنني لا أعرفها، أكره أن أكونها. قد أزاحم وأواصل مسيرة الحياة المفروضة علينا وقد أصل إلى المقدمة وألقي الدنيا كلها ورائي، حتى من أحببت، بعد أن أصبح تفصلني عنه – وهو الذي كان كل نفسي – مسافات من العناء والعذاب والكفر بالإنسان. لكن هل أجرؤ على الاعتراف لنفسي بأنني حين كنت أبحث عن الحرية وأبحث عنه، كنت أجهل أنني في حقيقة الأمر أبحث عن وهم وأجري وراء سراب؟ وأن رغبتنا المحمومة في التخلص من أسر ما هو إلا التهيؤ للوقوع في أسر جديد؟

أيام طويلة لا أغرف عددها مرت منذ خروجه من البيت، لم أره، ولم أسمع صوته، ولم يصلني أي بريد. لم أخرج خلالها من البيت أبداً، الآن تراودني الرغبة في الخروج، وقفت طويلاً على طرف صخرة بيتنا العالية أتأمل طبيعة المكان الساحر، سرت في جسدي رعشة خفيفة من هواء البحر الشتوي المفعم بالرطوبة، نزلت من مكاني ببطء كأنني مسحورة بطعم جديد غريب للحياة التي تدب في أوصالي، سرت على الشاطىء بمحاذاة البحر ثم اقتربت أكثر حتى صرت بجواره، كان في حالة تغيير فاتر بعد غياب الشمس عنه وغياب زرقة لونه وبداية استغراقه في سواده المهيب، تدفق الأمواج المتسارعة تخلف وراءها زبد يلمع على سطحه بين الحين والحين كالفضة وسط العتم الزاحف. بهرني كل ما حولي، كأنني أعاود التخلق من جديد في رحم الأيام القاسية التي أعيشها، لقد لفظتني أخيراً إلى الحياة من جديد، مثل طفلة أركض نحو الماء ثم أعود وأبتعد عنه، تغوص قدماي في مياهه، تلسعني برودة الماء الشديدة، تتخدر قدماي، أهرب من برودة المياه إلى رمل الشاطىء، يستمر الخدر رغم ابتعادي، أتنفس بعمق، أعب الهواء وأغمض عيني وأفتحهما، المكان كبير وأنا وحيدة وتائهة فيه،لا بل صغير وضيق غير قادر على احتوائي.

كان الرمل الندي يداعب قدميّ المتجمدتين فتزداد في جسدي قشعريرة البرودة، أحسستها كأنها المرض. أخذت في الابتعاد عن الشاطىء الرملي وصقيع الماء فبدأت معاناة جديدة في تخليص قدميّ حين تغوصان في الرمل الرطب الذي مازال مشبعاً بالماء من أثر المد وأمطار السماء التي تواصلت منذ يومين وتوقفت في هذه الليلة الباردة.

الهدوء شديد لدرجة الخوف، البيت خلفي ليس ببعيد، استدرت عائدة إليه، رأيت بعض النور يتسرب من خلف الستائر المسدلة، رأيت خيال ماهر يروح ويغدو قلقاً بانتظاري، ألوم نفسي على تلك الأوهام السوداء التي أستسلم لها كلما استبد بي شوقي إليه. أنفض عن رأسي هواجسها متى تهمد وتستسلم لنار اليأس التي أتت على كل شيء إلا على هذا الحب والشوق؟

كل ما حولي جميل يوحي للنفس بالانطلاق، شيء خلاّق، كما يحفز روح الفنان أن تتفجر بأروع الأفكار، كذلك يفعل بالنفس المرهقة، فتفيض بما يعتمل فيها من وجع الأيام أمام قسوة القدر حين يتجلى بجبروته على خلق الله. بحر واسع هادر وسماء متقلبة المزاج، حفيف أشجار النخيل الملتف حول البيت، الإضاءة المنبعثة من كل زوايا الحديقة الخلفية، تتحدى الظلمة والريح وتنعكس بجمال أخّاذ على أغصان الشجر وأوراقها، فأرى تمايلها وأسمع صوت حفيف تمايلها في تقاربها وتباعدها كأنه صوت موسيقى عذبة تذكرني بحسان، حين يقرأ شعره الحزين وتلامس أصابعه المدربة مفاتيح البيانو بسحر لا يقاوم، وأتذكر كلمات ماهر التي لم تكن في يوم من الأيام بحاجة إلى بيانو أو أية آلة موسيقية لتعزفها، فقد كانت تحمل جمال الفنون كلها في أحرفها المنضدة وفي كلماتها الرشيقة وصوته العذب حين يقرأ حين يناديني حبيبة روحي. لم أشعر بتسلية عما أعاني بأي جمال أو متعة فيما حولي، أستمر في طريق العودة، الهواء مشبع بالماء، ورذاذ الماء مشبع بالملح، وكلي مشبعة بذاك البعيد القريب. قلت له ذات يوم "

حبيب قلبي هل ترى مثلما أرى عن قرب وعن بعد روعة بيتنا وعظمته" قال بجدية أحبها " أراه رائعاً وعظيماً بقدر عظمة الحب الذي يضمه بين جدرانه ".

أناديه بنجوى "ماهر أيها الحبيب حين تطلبك نفسي ولا أجدك يفقد قلبي صوابه ويئن عقلي". ثم يتغلب عليّ وجدي، فأعاتبه بصوت مكسور "ماهر علمتني التوحد فيك لماذا لم تعلمني كيف أتحرر منك؟".

لهف نفسي على نفسي، خيالي جنح رغماً عني إلى الذكريات التي أحاول تجنبها فتفرض نفسها مع تداعي الأفكار في المكان ذاته. كان الوقت غروباً، والمكان هو المكان، كان بيتنا في مراحل الإعداد، وعلى تلك الصخرة العتيدة ذاتها وقفنا، البيت خلفنا والشمس أمامنا، رأيت الشمس تبتعد نحو الأفق في غروبها الحتمي، جذبته من يده قائلة:

– ماهر تعال لنتمشى على الشاطىء مع لحظات الغروب.

أمسك بيدي ونزلنا بضع خطوات على المنحنى الفاصل بين الجزء الذي نقيم عليه البيت وبين حافتها المشرفة على الشاطىء تماماً، ثم قفزنا نحو الأرض قفزة عالية وسريعة، صحت متألمة من كاحلي فجلس على الأرض وأخذ يدلكها وهو يقول:

– إقامة الجسر الذي أحدثك عنه كشيء وهمي ليفصلنا عن العالم بات ضرورة سأقيمه لكني سأجعله متحركاً ليفي بالغرضين ما رأيك؟

قلت وأنا أحاول النهوض:

– الحق معك، لكن المنحى أيضاً اجعله متدرجاً قليلاً.

لم يكن البحر مخيفاً في ذلك اليوم كما هو الآن، كان حبيباً، كان مبتسماً، ولم أكن وحيدة كما أنا الآن كنت معه، ومع ذلك شعرت برعشة خوف والشمس تغوص طائعة مستسلمة لهذا الفناء الوقتي مما أثار كمون حزن عقلي، لكل شيء نهاية، تساءلت إن كان الإنسان يستطيع تماماً صنع أيامه وسعادته أم أن عليه الإذعان أحياناً؟ ترى أيتم لنا هذا التلاقي الأبدي الذي نسعى إليه جاهدين متحديّين كل المعوقات أم سيظهر ما يمنع وتضيع أحلامنا وتقمع رغباتنا؟ كتمت كل هذا الصراخ في عقلي فقد كان يكره كثيراً أن أفكر بهذه الطريقة المتشائمة التي لا يرى لها سبباً. الآن والخوف حقيقي والحائل جاءنا من حيث لم نحتسب لا أجده بجانبي لأشتكي منه إليه.

كان يحس بأصغر نبضة في قلبي، أحاط كتفي بذراعه وربت عليّ لأطمئن. كان يفهمني كان يشبهني، يقرأني مثل كتاب مفتوح، حين التقت عيوننا رددت على تساؤله بحديث طويل، بدأ مشتتاً ثم انتهى بقبلة أعادت لنفسي طمأنينتها التي أفتقدها معظم الأحيان، أوصل إليّ دفءً لم أعرفه من قبل في حياتي كلها، تعلقت بذراعه والتصقت به أحتمي من نفسي ومن البرد الشديد ومن رياح قوية تجذبني بعيداً عنه، قلت بثقة:

– لقد أصبحت كل من لي في هذه الدنيا، ماهر أنت لست الحبيب فقط، أنت أنا، أنت الوطن والانتماء، شعوري بالغربة وافتقاد الوطن وعدم الانتماء الحقيقي كاد أن يختفي من حياتي بظهورك بعد أن كان يكبر معي سنة بعد أخرى، ووصل لذروته حين ضاع الحلم والأمل، ملأني شعور طاغ كم أنا وحيدة وتائهة، حتى ظهرت في حياتي وأعدت لنفسي الثقة بالدنيا وبالغد.

درت حول نفسي لأؤكد له ولنفسي المعنى الذي قصدت، فابتسم بحب بالغ دون أن ينطق بحرف. كنت مثل حورية سقطت للتو من السماء لتتلقفها جنة على الأرض، رضوانها توأم روح بحثت عنه كثيراً حتى التقت به، قلت حين وجدته مصغياً بانتظار تتمة الحديث:

– أعتقد أن هذه الصخرة الموجودة منذ أجيال هنا ما وجدت إلا لتكون مهبط هذا السكن العجيب لروحين تآلفتا قبل التكوين، ستكون أرضي والبيت ملاذي وأنت صنو نفسي وكل هذا المكان وطني الذي لن أفرط فيه طالما بي روح تنبض.

قال وقد عقد ما بين حاجبيه وزوى عينيه فضاقتا رغم اتساعهما لكنهما احتفظتا بإشعاع الذكاء والفطنة فيهما:

– أعرفك حين تحاولين شرح خاطر ما بإسهاب، فمعنى ذلك أنك تريدين أن تقولي شيئاً ما خاصاً جداً بي. تكلمي وثقي أنني أنت وأنت أنا.

قلت بابتهاج:

– ألم أقل لك إنك حبيبي.. دنياي كلها؟ نعم أريد أن أترجم لك خاطراً يقلقني حيناً بعد حين، يراودني خاطر مرعب كلما نعمت بشيء من سعادة، أو توقعتها، كأنها شيء محرم على مدمني الأحزان.

قال مسرعاً:

– كلنا ذلك الإنسان، أخبريني عما يقلقك فما وجدت في هذه الدنيا إلا من أجل إسعادك.

قلت بصوت كأنه الهمس:

– أخشى أن أفقدك، أن تنتزع مني وأفقد انتمائي مرة أخرى.

قال وهو يشدني أكثر ويلاصقني بقلبه:

– إذا كنت بالنسبة لك أرضاً ووطناً وحبيباً وانتماء فثقي أنه لن ينتزعني منك إلا الموت، ليس فقط لأنني أمثل لك كل ذلك، بل لأنك أيضاً تمثلين لي الإحساس ذاته. إذا غبت وابتعدي عني فلم يعد بإمكاني أن أراك أو أسمعك، سواء عندي كان ذلك بشكل مؤقت أو طويل الأمد، غياب مكاني أو زماني، فأنت ستبقين موجودة معي لحظة بلحظة، ويبقى يقيني الكامل ثابتاً إنك ستكونين لي وإلى الأبد رغم العوائق. أنت قبلتي التي أحج إليها مع كل نبضة قلب ودفقة دماء من قلبي وإليه مع كل شهيق وزفير.

ومع ذلك فقد ذهب، آه كم أشعر بالخوف من الليل والوحدة ومن نفسي، كدت أتجمد في مكاني ورغماً عني ألاحق خيالي. استدرت عائدة إلى البيت، تعثرت قدماي لم أقاوم عثرتي كأنني كنت بانتظار ساعده ليسندني، قمت باكية وأكملت مسيرتي وحدي شأن حياتي القادمة.

صعدت الجسر المتحرك ثم الدرجات القلية التي حفرها في الصخر من أجلي، وقفت أمام البيت وضعت المفتاح في ثقب الباب لم يفتح، أعدت الكرة، أخرجت المفتاح وقلبته أبحث عن الوضعية الأمثل لأسنانه، لمع المفتاح أمام عيني وسط الحلكة، سمعت ضحكة ماهر تنطلق منه وتغشى البحر والسماء وهو يقول ممازحاً " لن يتسنى لأحدنا دخول البيت دون الآخر، كل المحاولات ستبوء بالفشل لفتح باب بيتنا ما لم نكن سوياً " التصق بي وضمني إليه وقبلني قال " هذا الوضع هو كلمة السر" تنهدت وتراجعت قليلاً تأملت الصفحة النحاسية المعلقة على مدخل البيت منقوش عليها حرفا اسمينا متعانقين واسم بيتنا بخط أسود عريض وواضح "الفردوس الكبير" كان قد علقها بنفسه قبل دخولنا أول مرة سوياً بعد اكتمال البناء. تألمت أكثر وأكثر فهذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها من البيت وأعود إليه وحدي.

(3)

مازلت بعيدة عن الجميع، تلفني الوحدة في الصومعة التي كانت جنتي الموعودة الجنة التي حرمتها وأصبحت جنة مفقودة، أقضي أوقاتي بين القراءة والخروج للتنزه بجانب البحر، لا آمل ولا أحلم ولا أتمنى، مازال اليأس بالغاً منتهاه في نفسي، أعيش ولا أعيش. كانت الأيام تمر دون أن أحسب لها حساباً، كأن الأمر لم يعد يعنيني من قريب أو بعيد.

عدت إلى البيت بعد سير طويل ومتعب في نزهة الغروب بمحاذاة الشاطىء، خلعت حذائي المطاطي ونفضت ثيابي من رذاذ الماء المتطاير من البحر ومن الرمل العالق بها، اتجهت مباشرة إلى غرفة نومي أشعلت المدفأة جلست بقربها، فقد كان قلبي ينتفض بين جوانحي من شدة البرد، بدأت الحرارة تدب في أوصال، تناولت كتاباً كنت قد بدأت إعادة قراءته مرة أخرى، كان كتاباً فلسفياً يحمل عنواناً جذاباً "عن الحرية أتكلم" كان تعويذتي كلما ضايقني أمر ما لدرجة الحيرة أو الاقتراب من القنوط، دخلت عالمه وتهت فيه.

سمعت رنين جرس الهاتف من بعيد، كان لرنينه بعض عذوبة بعد أن أوقفته طويلاً، هذه هي المرة الأولى التي يرن في البيت منذ تلك الليلة، فقد أعدت وصله ظهر هذا اليوم. أمسكت السماعة بلهفة متوقعة أن تكون ملك على الخط الآخر، قلت وصوتي يحمل لهفتي:

– آلو... أهلاً ملك.

قال الصوت:

– بل أنا جمال، لقد خيبت ظنك، أرجو ألا تكوني قد نسيتني.

قلت بود كبير:

– هل هذا معقول؟ أنت صديق غير عادي، بل أنت أقرب المقربين إلى نفسي، أهلا جمال.

قال بسرور غير خاف:

– الحمد لله أنك رددت على التلفون أخيراً، كنت ضد فكرة أن تبقي وحيدة في مثل هذه الظروف، لم أشأ أن أفاجئك بزيارتي قبل أن تسمحي بذلك، هذه توصيات ملك.

قلت وكأنني أعتذر منه:

– آسفة لأنني أتعبتك، فقد قطعت التليفون حتى لا أضطر لفتح جراحي مع كل مكالمة خاصة معك أو مع ملك.

قال مواسياً:

– أرجوك يا عزيزتي أن تفتحي أبواب هذه القلعة اللعينة التي اعتصمت بها، لقد احترمنا رغبتك، ولكن قلوبنا معك، عودي إلينا ولنفسك، فالدنيا ما زالت بخير، إن ما جرى عادي ويحدث كثيراً وليس نهاية العالم.

قلت وقد عادت لصوتي رنة الألم:

– وهل نملك غير هذا؟ إن كل ما كنت حريصة عليه ألا يقول لي أي منكم تلك الكلمات التي يقولها الناس عادة والفأس مغروزة في الرأس كما يقولون، ألم أقل لك؟ ألم أحذرك؟ خاصة منك.

رد عليّ برقة الصديق وطيبة الأب الروحي:

– على العكس تماماً، فأنا مقدر جداً ما أنت فيه، لكن بما أنني أعرف مدى حساسيتك خشيت كثيراً أن تثيري نفسك ضد نفسك وتحملين نفسك دائماً أكثر من احتمالها، أرجوك لا تحكمي على الأمور الآن وأنت مجروحة، فالعواطف لا تعترف بمنطق. على كل حال سيأتي ذلك الوقت وسنتحدث كثيراً، فأنا لست مستعجلاً إلاّ على شيء واحد هو وجودك بيننا من جديد.

قلت متفائلة:

– سيكون ذلك قريباً بإذن الله.

قال فرحاً:

– إذن إلى لقاء قريب ومع السلامة.

أجبت ودفعة من أمل راودت مخيلتي فسررت بها:

– إلى اللقاء ومع السلامة.

لا أدري لما تركت تلك المكالمة ذلك الأثر الكبير في نفسي، وحركت رغبتي في التواصل من جديد، وتذكرت ملك ولهفتها بانتظار دعوتي لها، فأدرت أرقام هاتفها ما إن سمعت صوتي حتى اخترق فضائي صرخة فرح خلتها افترشت سطح البحر والسماء العريضة التي تظلني، كدت لا أفهم تحيتها فقلت:

– اهدئي قليلاً فأنا بحاجة للحديث معك.

قاطعتني بمرحها الطبيعي:

– لا أريد أن أسمعك بل أريد أن أراك. متى ستفكين الحصار وتطلبين مني الحضور إليك؟ فتون يا حبيبتي كلنا قلقون عليك وننتظرك بفارغ الصبر.

قلت وأنا أبتلع ريقي لأزيح من حلقي غصة فرح أو بعض ألم أو شعور بالرضا أن هناك من يفكر بي ويهتم بأمري:

– تقولين كلنا من تعنين؟

فالت بتلقائية:

– عجيبة.. هل نسيت من يحبونك وينتظرون رجوعك إلينا كما كنت؟

قلت لها بشيء من المرح:

– ملك هل تستطيعين الحضور غداً؟

قالت فرحة:

– غداً يوم السعد سأكون عندك قبيل الظهيرة.. إلى اللقاء.

قلت هامسة بحب أدهشني:

– إلى اللقاء يا أحب الناس.

حمدت لها تجنبها الخوض في تفاصيل ما مر من أيام، أعرفها جيداً، فهي أذكى من أن تتورط في محاولة الاستفهام على الهاتف، هي بالتأكيد تقدر ما أنا فيه، وتعرف جيداً ماذا يعني ماهر لي، كما أعرف كم تتحرق شوقاً لتوصيل رأيها ولن تتوانى عن طرحه حين ترى أن الوقت مناسب، ويكون الحديث وجهاً لوجه. كنت على ثقة من أنها لم تحاول طوال الأيام التي قضيتها وحيدة الاتصال بي رغم قلقها على أحوالي، فقد وعدت أن تنفذ رغبتي وتنتظر حتى أكلمها وأستدعيها، كانت تعرف أي معاناة أعيش وأنا أحاول نزع نفسي من نفسه، وإبعاد طيفه عن عقلي وقلبي، فمنذ تمكن حبه في قلبي لم تمر ساعة من الوقت إلا ويدخل اسمه أو قول له أو ذكره في كل أحاديثي معها أو مع غيرها، قدرت لها تركي أحاول أن أواسي نفسي بنفسي.

ما من أحد يستطيع أن يقوم مقامي في مواساة نفسي مهما كانت درجة قربه مني إلا ماهر، هو وحده من كان يخفف عني العناء ويبدد الخوف ويستقبل تلك الأمواج المتلاحقة من الحب لتختلط مع أمواج بحر حبه وعطائه وتميزه.

في اليوم التالي مضت فترة ما قبل الظهر ولم تصل ملك، تناولت بعض الطعام على عجل، وجلست قرب النافذة العريضة التي تطل على البحر أتناول قهوتي ببطء يساير بطء تفكيري الجانح دوماً نحو مأساتي، بات تحليل كل ظروفها هاجسي. بداية معرفتي به، اللحظات التي نسميها بالذروة في علاقتنا، ذروة الحب، وذروة الاختلاف، وذروة شكوكي، وذروة ألمه وحزنه احتجاجاً على تلك الشكوك. التفكير المستمر في مثل تلك اللحظات يكاد يدفع بي للجنون ولكن لا بد من ذلك، أشعر بمدى احتياجي إلى عزيمة قوية وقدرة فائقة أطلبهما من الله في صحوتي ومنامي، أدعوه بإخلاص أن يساعدني كي أنسى قليلاً حتى أستطيع أن أفكر طويلاً وأنتهي مما أنا فيه.

البيت هادىء والكون هاجع والنهار الشتوي القصير يسابق أفكاري، لم تزل رؤية الشمس مستطاعة رغم تلبد السماء بالغيوم، توقعت أن تكون ليلة ماطرة فتمنيت أن تصل ملك قبل الغروب فلا تتعثر في طريقها إليّ. رن جرس الهاتف في تلك اللحظة، رفعت السماعة بينما عيني مازالتا ترقبان الطريق بحثاً عن ملك فإذا بصوتها يجيئني من الهاتف ترد تحيتي قالت:

– آسفة فتون لم أستطع القدوم اليوم، حسان متعب بعض الشيء، والآن غادرنا الطبيب وطمأننا، سأحضر غداً ما رأيك موافقة؟

– أراك غداً إن شاء الله، راجية لحسان الشفاء ويكون دائماً بخير.. إلى اللقاء.

عدت لجلستي وتسليتي، أرقب المكان وقد بدأت البيوت المتفرقة حولنا تنار واحداً بعد آخر، حتى أرخى الليل سدوله السوداء و سادت الوحشة في الخارج، غرق البحر في لجّة السواد الذي حجب كل ما يمكن أن تراه العين، تركت المكان وتوجهت نحو المدفأة أزيد من أوار نارها، حمدت الله على نعمة أن يكون للإنسان بيت يحميه، والتاع قلبي لهؤلاء الذين لا يملكون مأوى. ماهر القريب البعيد أين مأواه إذا لم يكن هنا في بيته الذي لم ينعم به وهو حقيقي بقدر ما نعم به وهو مجرد فكرة في خياله؟ تنقلت نظراتي في أرجاء البيت، أستعيد في خيالي حكايات ماهر عن هذا البيت وقد كان لم يزل فكرة في رأسه، في ذلك الوقت اعتبرت الفكرة غريبة بل مستحيلة ومع ذلك كنت أستمع اليه على سبيل التندر والمزاح، بل وأضيف بعض التعديلات التي تناسبني، كان يضحك جذلاً واعداً بتنفيذها، في تلك الأيام كنت فعلاً لا أتخيل أن كل ذلك سيتحقق، وكثيراً ما كان يغضب مني إذا سمعني أضحك وأقول بما أن ذلك ليس أكثر من حلم فلنجعله قصراً منيفاً. فيرد عليّ متسائلاً:

– لماذا سيبقى مجرد حلم، ألا تحبينني؟

فأسرع بالجواب:

– بل وأموت فيك.

يقول بثقة:

– إذن سيصبح حقيقة ولو كان هذا آخر شيء أفعله.

أسرعت أغير المكان، درت في أرجاء البيت، أحكم إغلاق النوافذ والأبواب كل مرة أتفقدها، أسدلت الستائر لأزيد من شعوري بوحدتي في فردوسي الفاقد رضوانه، فردوس حبنا، بعض ذاتي وذاته. دخلت غرفتي استعداداً للنوم فرحة بانتهاء يوم آخر من أيام محنتي، أخذت في تبديل ملابسي على مهل، لم تفارقني بشاشتي رغم حرقة الألم في قلبي، عيناي تدوران بسرعة فيما حولي، تضاحكني الغرفة بلونيها الأزرق والأبيض مثل السماء حين تخالط غيومها الشفافة البيضاء صفاء زرقتها.

هل أعيش محنة جديدة؟ أم مازلت أراوح تلك المرحلة السابقة في عمري حين سيطر علي وهم أسمه الخلاص والانطلاق نحو الحرية ولو في أبسط صورها؟ أن أقول لا ولو لمرة واحدة، أقلتها أم لم أقلها؟ إذا كنت قد قلتها، فلماذا أنا في هذا الموقف المؤلم من جديد؟ وإذا كنت لم أقلها فلماذا أتردد وأتحمل تبعات اللا شيء؟

أدرت جهاز التسجيل على الشريط الموجود بداخلها، صدحت موسيقى الدانوب الأزرق الرقيقة آخر ما سمعناه سوياً. تسربت لنفسي في البداية مثل غمامة سوداء حملتني عالياً وبدأت تطوح بي كأنها ستقذف بي من علّ مرة أخرى، بعد ثوان تمالكت نفسي وأصررت على سماعها كما لو أنني سمعتها كل الأيام وحدي، تحركت مثل فراشة تدور حول نفسها، ثم حول نور وهمي تقترب وتبتعد عنه برشاقة واحتراز. لا.. لقد أدركت أنني أعيش مرحلة أخرى، أتجرع فيها لوناً آخر من ألوان العذاب والحيرة، ثم

الأمل في الخروج والعودة من جديد للحلم ولتوقي الأبدي للحرية. لا بد أن أقول لا، صارخة باترة هذه المرة أوجهها لنفسي وقلبي وعقلي، سأخوض صراعاً من أجل إنقاذ نفسي من دوافع التدمير الذاتي الذي أمارسه.

لم أنس عادتي أن أدقق في ملامح وجهي وأبتسم له، بل وربت على خدي الذي طالما جرحته الدموع، قمت إلى سريري خفضت في طريقي صوت الموسيقى وجلست مسندة ظهري إلى السرير، كم أحب أن أكتب أو أقرأ وأنا في مثل تلك الجلسة المريحة، أستطيع خلالها أن أكون أنا الحقيقية، أقضي أمسية منفردة بنفسي وجهاً لوجه من دون تضليل أو خوف أو قلق، لحظة الصدق المطلق.

الفصل الثاني

(1)

إنه يوم لا ينسى، كنت أحوم في المنزل الوثير مثل قطتنا الأليفة المدللة، كل شيء حولي كان يوحي بالثراء والأناقة والنظافة والجمال، ولكنني في أعماق ذاتي كنت مفتقدة لدفء الحب بشكل مخيف، طغى عليّ شعور بالاحتياج للحنان، لظهور تلك اليد الحانية التي أنتظرها منذ الأزل تمسح على شعري ووجهي، هربت من غرفة إلى أخرى، ومن نافذة عالية إلى أخرى أرضية، القلق يستبد بي، لم يعد يجدي التجاهل والهروب، الواقع المرّ يفرض نفسه بضراوة على العقل الكليل المحبط، لم يعد العقل قادراً على خلق مساحة ما للهروب أو التجاهل، حتى أحلام اليقظة ولى زمنها وانقضى، حتى التخيل بات أمراً عسيراً، فقد كففت منذ زمن عن تخيل نفسي طائراً أحلق بعيداً وأخترق الآفاق، وحلت محلها رغبة شريرة أن تهب رياح عاتية فتدمر كل شيء حتى أستريح. كنت بعدها أشعر بقشعريرة تسري في جسدي لهذا الخاطر، فلم أكن في يوم من الأيام شريرة أو قاسية أو أنانية، ولكنني وجدت فكرة الخلاص بصمت تسيطر على شعوري، أعي الرفض ومعناه وأسبابه ولا أعرف طريقاً للخلاص، فأدركت عندها أن هذه العاصفة بل هذا الإعصار على وشك الهبوب، ليس على الكون كله بل على عالمي الخاص، لكن متى وكيف؟ لم أكن أدري.

هذه المشاعر أحس بها الآن وأنا أستعيدها أكثر عنفاً وصدقاً، واستغرب أين كان كل هذا التمرد كامناً وأنا أعد نفسي وبيتي كالعادة وبهدوء مميت في ذلك اليوم لاستقبال فايز العائد من أحد أسفار العمل الكثيرة التي يقوم بها ويتركني وحيدة يقتلني الملل والقرف، في ذلك الوقت وقبل حدوث التفجر الحقيقي في حياتي كنت أقوم بدور الزوجة الراضية المستسلمة لسعادة باهتة بكل إتقان، سعادة حملتني على قبول كل ما أتاحته الحياة فبدوت مستمتعة بكل ما كان ملك يدي.

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط في مدخل البيت، شعرت بغبطة ولهفة، بقي على وصوله ما يقارب نصف ساعة، ألقيت نظرة رضا على نفسي وعلى جو البيت المريح، كل شيء كما أريده أن يكون، نظرت مرة أخرى إلى عقارب الساعة، لا بد أنه يغادر قاعة الوصول في المطار في هذه اللحظة، أو لعله سيتصل بي تلفونياً معلناً وصوله. اخترق رنين جرس الهاتف أفكاري فعلاً، التقط السماعة مسرعة قلت بمرح:

– أهلاً فايز، الحمد لله على السلامة.

أجاب بذلك البرود الذي يميز صوته ومشاعره إذا كان بعيداً، ويبدو جلياً على وجهه وفي نظراته وهو قريب:

– مازلت هنا، سأحضر بعد يومين أو أكثر، سأعلمك فيما بعد عن موعد وصولي لترسلي السائق.

صحت بعصبية أثلجت صدري فيما بعد، كانت الشرارة التي أشعلت الفتيل وأدت إلى الانفجار الداوي بعد ذلك:

– لكن كان من المفروض أن تعلمني منذ الصباح و..

أغلق السماعة قبل أن أتم حديثي، ودون كلمة تحمل معنى الشوق أو الأسف أو مجرد اعتذار، اجتاحتني ثورة غضب، ثم ما لبثت أن انقلبت إلى سخرية منه ثم من نفسي، ثم ودون مقدمات غمرني شعور عجيب بالراحة لا بل بالسعادة، فقد استيقظت المرأة الأخرى المقموعة بداخلي بأمر مني.

جلست أمام مرآتي أنزع زينتي وأريح شعري من عناء تلك المشابك التي تثبته على الرأس بينما بعض خصلاته ملفوفة بعناية ومتروكة تتراقص حول وجهي ليبدو بالشكل التي يحب، لم أكن أدري أنني أقتلعه أيضاً من حياتي. نزعت فستاني الدانتيل الأسود عن جسدي، انزلق تحت قدمي خطوة من فوقه وتركته مكوماً على الأرض، كأنني أدوس على آخر لحظة احتمال لم أعد أشعر بأي احترام لها، ولم يعد عندي أي استعداد لتكرارها. فجأة شعرت بعزوف عن كل تلك المظاهر التي أخذت كثيراً من أيامي دون أن تمنحني رضا أكثر من إعجاب بنفسي كان يصل أحياناً درجة الهوس، ولكن لم تعن السعادة التي أحلم بها وأتمناها.

اقتربت بوجهي من المرآة، وبجرأة عددت سنوات حياتي على وجهي، وفي عمق عيني، بلا وجع، عشرون عاما عجافاً، لم تمس عذرية مشاعري. ليست نهاية العالم، فكثيراً ما تنتزع الدنيا منا ما نعتبره سبباً للحياة دون أن نعي، ولا نموت بعد عودة الوعي. لامست وجهي، كان متوهجاً، ابتسمت لنفسي، مازلت شابة وسأبقى كذلك، والأجمل من كل ذلك أنني مازلت أحلم وأهفو وآمل.

استلقيت على السرير، أغمضت عينيّ، ثمة خيال أو وهم، يشخص أمامي في مثل تلك الحالات، كنت دائماً أناجيه كأنني بانتظاره، طال الانتظار دون أن يتجسد ويتحقق الظهور المنتظر، أسميته القدر، فهو وحده الحاضر الغائب الذي نرجوه أن يتدخل فلا يفعل قبل أن نعقد العزم، الفورة لم تعد حدثاً عارضاً مثلها في السابق، أخذت تكبر، تتحرك كأنها على وشك الانفجار،لم أخف، ولم أتردد، ولم أجزع، بل باركت الخطوة ولو أنها لم تزل فكرة تدفعني نحو غد لا أملك فيه قيد أنملة سوى ضجيج الحرية تدعوني للجنوح نحوها وليحصل بعدها ما يحصل.

لم أعد بحاجة إلى تبرير وإيجاد الأسباب سواء كانت حقيقية أم وهمية كما يتهمني دائماً، لم يكن سبباً وهمياً أو سطحياً أنني في حياة زوجي لست أكثر من امرأة يلهو بها في أوقات فراغه القليلة، في بيت أعده ليكون محل افتخاره أكثر من كونه مريحاً لي. لن أكون في حياة زوجي أكثر من ذلك مهما بذلت ومهما اعترضت. مثال صغير كان يتركني أنزف حين يجرؤ على القول إنه قد يبدلني بأخرى لأي سبب ولو كان تغيراً في مقاسات جسدي، أي رجل هذا وأي امرأة كنت؟

ها هو الآن يصرخ في صمته الجارح من بعيد أنني أقل من أن أستحق كلمة اعتذار أو شرح لأسباب التأخير، فلماذا يكدر نفسه؟ سيعود حالما يمل، وسيجدني أمارس بخنوع شديد الشيء الوحيد المسموح لي به وهو انتظاره واستقباله بصبر لا ينفد، دون أن أجرؤ على الاعتراض أو مجرد السؤال.

لم أشأ الانتظار للصباح لتنفيذ الفكرة التي راودتني ولم أجد منها فكاكاً، قمت كالفزعة من أن يضبطني أحد متلبسة بتلك الفرحة العجيبة، فاندفعت دون الالتفات لأي شيء ألملم بعض الحاجيات الضرورية، بعدها سرت كالمنومة نحو باب الخروج، مررت بالمائدة المعدّة بإتقان كأنها بانتظار عاشقين افترقا دهراً من الشوق ثم تلاقيا على عشاء راقص وشموع وورود، اتسعت ابتسامتي لسذاجة الإنسان، يقتل مشاعره، يئد احتياجاته، إرضاء للآخر أو خوف المجهول.

خرجت من الباب الخلفي متجهة نحو المرآب، فتحت باب السيارة بهدوء كأنني خارجة لنزهة قصيرة وسأعود، ألقيت بنفسي على مقعدها وأدرت محركها، تراجعت بالسيارة إلى الوراء أكثر دون داع، لكني أردت الوصول إلى مدخل البيت الفخم بأبوابه الزجاجية الضخمة المزخرفة برسوم راقية ورائعة لكنها محكمة بقضبان حديدية في منتهى الدقة، يصل إليه القادم عن طريق بضع درجات رخامية على كل واحدة منهم حوض خزفي مملوء بالزهور الملونة الموسمية. ودعته بنظرة ساخرة متحدية.

لقد كان كل شيء حولي يوحي بمنتهى الجمال والروعة، خاصة تحت أضواء الفوانيس الكهربائية المعلقة بشكل فني لتبرز جماليات التنفيذ. توقفت طويلاً لألقي نظرة أخيرة على البيت، لا أعرف أي صفة أعطيه، هل كان قصراً أم قبراً أم منفى؟ لست أدري، هل كنت أعيش مع زوج أم سجّان أم رجل ما؟ لست أدري، كل ما أعرف أنني غير آسفة ولن آسف ولا للحظة واحدة قادمة من أيامي، رغم ما يحيط به من هالة عجيبة. أقول الحق بأنني لم أره أكثر من سجن، ومتى أسف سجين أطلق سراحه على سجنه؟ تلك كانت نظرتي الأخيرة للبيت معنى ومبنى تعكس مشاعر حبيسة في طريقها للانطلاق.

لم أعرف في أي ساعة انطلقت على غير هدى ولا كم من الوقت مضى عليّ وأنا أجوب الشوارع بلا هدف، لكن كان لا بد في النهاية من مكان آوي إليه فإلى أين؟ توجهت بعد تفكير إلى بيت أمي، أوقفت سيارتي أمام المبنى، السكون والظلام يعمان المبنى، والمرآب مزدحم بالسيارات والمصعد معطل، صعدت على سلالم البيت وأنا أتعثر وأعد الأدوار التي أصعدها لأعرف الدور الذي تسكنه أمي، أخيراً وصلت وضغطت على الجرس مرة وأخرى بل مرات ومرات حتى استجابوا لي في اللحظة التي بدأت أفكر بهلع. ماذا لو لم يفتح هذا الباب؟

فتح الباب عن وجوه ملهوفة فزعة في ملابس النوم، أدركت أن الوقت متأخر جداً، فقد رأيت عيني أمي تنظران إلى ساعة يدها، دخلت وأغلقت الباب خلفي وتقدمت منها أعانقها، أحسست أثناء تشبثي بصدرها بحب وشوق أنها تدفعني برقة عنها، رفعت وجهي نحوها مستجيبة لمقاومتها، وجدت عينيها تتجهان صوب الباب كأنها تتوقع دخول شخص آخر، حين لم تجد أحداً سألتني بحذر:

– أين فايز؟ متى عاد؟ هل تشاجرتما؟ لماذا أنت وحدك و..

قلت وأنا أنتزع ضحكتي من أعماقي حيث غاصت بعيداً بعد هذا الاستقبال الهلع:

– تصوروا أنه لم يجد وقتاً كافياً طوال النهار ليخبرني بعدم تمكنه من الحضور حسب الموعد المتفق عليه قبل سفره.

قالت أختي هامسة:

– أليس هذا أسلوبه؟ ألم تتعودي عليه بعد كل هذه السنين؟

– إن ما تقولينه صحيح، يبدو أنني المغفلة الوحيدة في العالم، أصدق دائماً ما يقول رغم أنه نادراً ما يصدق، ودائماً يخذلني، والأصعب في الأمر أنه يبلغني اضطراره للتأخر في اللحظة ذاتها التي أكون على وشك أن أفتح له الباب ليدخل.

لم يعلق أحد، تململت أمي تريد أن تقول شيئاً فقلت لها قبل أن تتكلم:

– لا تتولي الدفاع عنه قبل أن تعرفي أن مدة الطيران بينه وبيننا لا تقل عن خمس ساعات.

لكنها لم تتردد في تقديم العذر عنه وعن كل غائب قالت:

– الغائب حجته معه، لا بد وأن..

قاطعتها بمرح أذهلها وأعاد لي غبطتي:

– لست غاضبة.. لكن من حقي أن أتنفس على طريقتي، ما رأيك؟

ازدادت الدهشة في عينيها، وشيء من جزع خارج عن إرادتها بدا واضحاً في رنة صوتها:

– كان يجب أن تنتظريه في البيت خاصة أنك تعرفين طبعه، لم يحدد موعداً للعودة يعني أنه قد يجيء في الصباح.

قلت وأنا متجهة إلى الداخل لأعد مكاناً لنفسي:

– أو قد لا يعود أبداً سيان عندي.

دخلت إلى الغرف الداخلية أبحث عن مكان أنام فيه، لأول مرة منذ سنوات أنام في بيت أهلي، دخلت غرفة غريبة عني وجلست على سرير غير سريري، أواسي نفسي حين لم يتطوع أحد بمواساتي. بيت أهلي يعني بيتي وملاذي، كان يجب ألا أخرج منه قبل أن أصل إلى مرحلة ما من الوعي والتعقل والتعلم، بعدها يكون الخروج منه إلى عالمي الخاص باختياري مع الشخص الذي يختاره قلبي وعقلي.

أعود لشعوري المرير بالغربة، فالحقيقة حولي تقول إن هذا المكان غريب عني، لا أعرفه، ليس بيني وبينه أي صلة، خرجت منه بل الأصح القول أخرجت منه قبل الوعي، قبل الوصول إلى السن الذي يعني القدرة على تحمل مسئوليات الزواج الجسيمة التي تكبر مع الأيام. عدت إليه بعد مرور عشرين سنة، كبرت وكبرت مشاعري لكنها لم تصل إلى حد الإحساس نحوه بأي نوع من الحب والانتماء قدر ما كان شعوراً بالولاء والاعتراف بالجميل كون ساكنيه هم أهلي أمي وأخوتي.

بعد مرور عدة شهور على زواجي، ولم أجد أذناً صاغية لما أعانيه، بدأت تتغير مشاعري تجاه الجميع ولكنها تجاه أبي كانت أشد عنتاً، أصبحت تتسم بكثير من الألم والجفاء، بقدر ما كنت أحبه انقلبت مشاعري ضده. أحس بابتعاد مشاعري عنه، فتمادى في التجاهل،لم يحاول أن يصلح ما أفسد في حياتي، أصبح يتجنب النظر إلى عيني المعذبتين واكتفى بالأسى واللوعة في دخيلة نفسه، لكنني كنت ألمحهما في عينيه حين ينظر إلي دون كلام.

توفى أبي بعد زواجي بسنتين، وكنت وقتها خارج البلاد برفقة زوجي، ولن أنسى رسالته الأخيرة قبل موته بأيام احتفظت بها كترضية لي عن عذابي طوال السنوات التالية، وجعلتني أشعر نحوه بالحب والتسامح الكبير، حفظتها عن ظهر قلب قال فيها ''كم أنا حزين ونادم على تزويجك وتغريبك عنا وأنت مازلت بحاجة ماسة لرعايتنا ومحبتنا في هذه السن الغضة من عمرك، ولكن لا أقول إلا أنه النصيب الذي لا بد وأن يصيب، سأظل أدعو لك بالتوفيق في حياتك ولنفسي بالصبر".

أطفأت النور بجانبي وتمددت بجوار أختي على سريرها، حين خيم الظلام شعرت براحة وأنا أفرد جسدي قدر المستطاع كمن تخلص من عبء، مقنعة نفسي بأنني في بيتي، وأنه مكاني الطبيعي، وأن عدم وجود مكان خاص لنومي فيه لا يعني شيئاً خطيراً، فمعظم الناس لا يملكون تلك الميزة، المهم أن أبدأ من هنا، من حيث كان يجب أن أبدأ تكييف حياتي وإعادة تنظيمها بشكل يرضيني بعد طول عذاب، كنت مساقة نحو أفكار زرعت في خيالي منذ أن أدركت أن للحياة معاني أخرى غير الأكل والشرب والنوم والتناسل، في ذلك الحين بدأت أبحث عن الخلاص من هذا السجن العلني ولكن بصمت وخوف.

هذا أول صباح يشرق وأنا في بيت غير بيتي، استيقظ الجميع، أخذوا في التجمع حول فنجان القهوة الصباحي، جلسة أسرية لم يتح لي المشاركة فيها من قبل أبداً، ابتدعت بعد وقت طويل من زواجي، كنت أسمع عنها كثيراً، فقد كانت تعني للجميع الكثير، كانت جلسة تجمعهم ليتحادثوا عن مشاكلهم ويبحثوا أمورهم بود وصفاء، تترأسها أمي، تسامر وتضحك وتواسي وتمنح الحب والحنان، وتناقش أمور تعليمهم وأفكارهم الخاصة بهم كأي بيت متحضر. لم يكن شيء مثل هذا يحصل قبل تزويجي، أو لعل مأساة زواجي قد ردعتهم وعلمتهم احترام آراء الآخرين ورغباتهم، ومع ذلك لم يحاولوا تعويضي بالاستماع لي وإنصافي حتى بالكلام.

حين كنت صغيرة بينهم وبدأت أخطو نحو الصبا كان أبي وأمي ينظران لي كبدعة في البيت بين أخي وأخواتي الأكبر والأصغر، كانا يعترضان على كل ما أقوم به أو أطلبه. كنت أحس بشعور عدائي منهما تجاهي. لم أكن أعرف أنه شعور طبيعي ينتاب الإنسان في بداية دخوله مرحلة الشباب، وهم بدورهما لم يستوعباني ويفهماني. عشت على يقين لا يقبل الشك بأن أمي تكرهني وأختي الكبيرة على استعداد دائم للانتقام مني دون أن أعرف الثأر الذي بيننا.

كان أبي هو المتفهم الوحيد لعقولنا الصغيرة التي بدأت تنعم بشيء من التعليم، وأننا أبناء الحياة الجديدة التي تختلف عما كانوا عليه، ومع ذلك لم يلاحظ عدم التوافق بيني وبين فايز حين وافق على تزويجي. أمي أدركت بعد حين من الوقت نظرية أبي في اختلاف الأجيال، آمنت بها وحرصت على تطبيقها ولم تتقنها، فقد صاحبها مشاكل كثيرة في حياة أخواتي البنات وأخي الوحيد وخاصة أنها أكملت رحلة الحياة وحيدة.

كنت قد سبقتهم في الاستيقاظ، لعلي لم أنم، أو لعلي نمت أكثر من اللازم، شعور بتخففي من عبء حملته طويلاً جعلني أترك فراشي بابتهاج، خرجت من غرفة النوم إلى الصالة، وجلست أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها والهواء البارد يدخل ويداعبني، يداعب ملابس نومي التي مازلت أرتديها، لأول مرة في حياتي أخرج بها من غرفتي، أدير صفحة وجهي لاستقبال الهواء فيتطاير شعري وأنا مستسلمة مسترخية هادئة،لم ألحظ التئام شمل الجميع إلا حين استرعى انتباهي صوت أخي وهو يدخل من الباب ملقياً التحية على الجميع، في صوته لهاث كمن أتى راكضاً من آخر الدنيا، أدركت بعدها أن مجيئه ليس عادة أو مصادفة بل استدعي على عجل. فحين أخذ مكانه سأل أمي:

– ما قصة ابنتك؟

كأن أمي أجابته بحركة ما في وجهها أو يدها فاستأنف كلامه:

– ألم تسأليها؟

لذت بصمتي، حتى حين استعمل ضمير الغائب رغم وجودي بينهم وذلك كما يعرف الجميع يسبب لي الكثير من الضيق، لم أنفعل، بدا للجميع أنني غير مبالية بما يقال، وفي ذلك كل الحقيقة، كنت أراقبهم باستخفاف خفف بعض الشيء من حزني. لم ترد أمي ولكني رأيتها تمط شفتيها وتشير له بأن يسألني، لم أنظر نحوه، لا أريد أن أعطيه فرصة ليكون بطل أسرة لم يعش همومها قدر ما شغلنا بهمومه ومشاكله منذ تفتح وعينا على الدنيا، ألقيت عليه نظرة سريعة، بدا لي وسيماً بل فائق الوسامة والأناقة بلباسه الرياضي الأخضر اللون، وحذائه المطاطي، كان ذاك اللون القريب ألوان الأرض في عزّ خصبها منعكساً على بشرته السمراء وعينيه اللتين تقطران ذكاء وفطنة واعتداداً فائقاً عن الحد بالنفس. أدرت وجهي مرة أخرى بعيداً عنه أعرف أنه أتعس مخلوقات الأرض، فشكله الجميل أتعبه واهتمامه بأناقته فاق كل حد، فأضاع أيامه سدى ومضت سنوات عمره بلا هدف، سوى الوقوع في الحب بعدد فصول السنة،لم يحاول أن يوجه حياته جهة أفضل رغم تعليمه العالي وثقافته الواسعة.

كانوا يتحدثون بخفوت كأنما الدنيا زلزلت زلزالها، كلما تلتقي نظراتي ونظرات أمي أو أختي أجد ابتسامة مسكينة ليس لها أي تفسير سوى الخوف، خوف يؤكد لي أنني لم أجيء إلى المكان المناسب لأعتصم فيه من الدنيا، أو أنني أقحمت نفسي على بيت ليس لي فيه مكان.

يا لبشاعة الحياة الزوجية التي عشتها، الآن عرفت من ملامح الوجوه المحيطة بي لماذا رضيت وصبرت، رغم افتقاري للانسجام بكافة وجوهه، الفكري والنفسي والعاطفي، ولماذا لم أتوقف وأتساءل؟ لماذا عشت ألهث مع أن الحياة ميسورة؟ لماذا أتجاهل هذا الحزن وهو يتسرب إلى أعماقي يوماً بعد يوم وأرضى، مع أنه يطوي أيام عمري الغض دون أن أستسيغه؟ الإجابة واحدة الآن واضحة وضوح شمس النهار الجديد، استمراري ليس له معنى غير الاستسلام وقبول أن أكون دمية متحركة تملأ بمفتاح خاص مغروس بعناية مدروسة في عقلها، ثم تترك لتتحرك حسب المسار المرسوم لها لأنني وحدي، ولأنني لا أجد القلب الذي يعاضد قلبي.

أمي تنادي عليّ باسم فن الذي تدللني به في لحظات الوئام بيننا، جاءني من بعيد، تلفت حولي أبحث عنها، عن الصدر المملوء بالحنان، أمي بجانبي يدها ممدودة تحمل فنجان قهوتي، تكاد تتلامس مع وجهي، تراجعت إلى الوراء، تناولت القهوة، في عقلي كلام أهمس به دون أن تسمعني، ليت يدك كانت فارغة من كل شيء إلا مما أنا بحاجة إليه، لمسة حنان أو كلمة تقويني وتنصرني على وضع بغيض، وحدك تعرفين دون العالم أجمع أنني وضعت به بلا خيار، وحدك تعلمين كم عانيت وكم ذبحت لأبقى فيه ولا أسبب إزعاجاً لأحد.

تلاقت نظراتنا، فهمت ما أود أن أقول، ردت على صرختي المكتومة بنظرة لا تحملها إلا العيون النسائية، كان مثلها في عيني أختي، نظرات لا تحمل إلا طابع الخوف من الغد والاستسلام. تحكي قصة أسى عمره من عمر أمنا حواء، لم أجدها في عيني الرجل الوحيد الجالس بيننا مع أنه أجدر الناس بمثل هذا الشعور، إنه أخي، لم يكن الأكبر بل كان الوحيد والأصغر، مع ذلك كان الأقوى والأقدر والمرجع، مع أنني لم ألحظ في حياتي أي كفاءة له حيال أي تصرف سواء كان الأمر يعنيه شخصياً أو يعني أي فرد في الأسرة.

سأصمد.. لن يغلبوني على أمري شأنهم كل مرة، أين كانوا كلهم كل تلك السنوات وعمري يتبدد وإنسانيتي تلغى؟ أعادني أخي إلى جلستهم التفاوضية. رأيته يسحب الكرسي الذي يجلس عليه ليقترب مني، روعني صوت انزلاق قوائمه على الأرض كأنه صوت أنين امرأة مقهورة ثم كتم فجأة، كان ينظر إلى كل الجهات كأنه يسأل العالم أجمع في أمر مفروغ منه:

– على الرغم من أنك تثيرين المتاعب لنا ولزوجك بين حين وآخر فإنني حتى الآن لم أفهم، هل تعترضين على شيء معين أم هي مجرد مشاكسة. ماذا تريد المرأة أكثر مما أنت فيه؟ ليس للمرأة مهمات غير مهماتها في حياتها الزوجية والبيتية وخاصة إذا رزقها الله زوجاً غنياً يوفر لها كل ما تحتاجه وما لا تحتاجه..

التفت إليه متسائلة بسذاجة لأغيظه:

– هل تكلمني؟

– ومن غيرك يثير المشاكل؟ هل يروق لك الجلوس هكذا باسترخاء دون أن يكون لك فائدة ما في الحياة؟ أم لعل في الأمر رجلاً آخر؟

قلت أجيبه على طريقته المتهكمة:

– وهل كنت أقوم هناك بعمل ما؟ ليس ما أسعى إليه مجرد البحث عن الراحة والاسترخاء، ثم أنني أعيش مع رجل غير عادي، بل ويعتبر متفوقاً في كل شيء حتى في تجرده من إنسانيته، وهذا ما يجعلني أقصي أي رجل عن تفكيري، مشكلتي مع نفسي، شيء ما قريب مما قلته آنفاً، فبقدر ما افتقدت نفسي معه أريدها مهما كان الثمن.

قالت أمي وهي تعيد سكب القهوة في بعض الفناجين التي فرغت:

– لكن بيت المرأة هو مكانها الطبيعي تعيش فيه وتموت فيه. ومنه تعمل شيئاً لحياتها حسب ظروفها مع زوجها، ثم ما ذنب أولادك فيما يجري الآن وما حصل زمان، لا تثيري غضبي عليك، عودي إلى بيتك وبعد حضور فايز سيكون لك ما تريدين.

قلت بضيق ظاهر:

– أمي أرجوك، إنك تحدثينني كما فعلت يوم زواجي وأنا طفلة صغيرة آنذاك، دون أن تقيمي وزناً لعشرين سنة مرت، كبرت خلالها وتعبت، مستحيل أن أتقبل بالبساطة ذاتها التي تقبلت فيها مثل هذا الكلام وأنا قليلة التجربة ولا أعرف شيئاً عن الزواج أو عن ذلك الشخص الذي سأعيش له ومعه.

وقفت بعصبية وقلت صارخة:

– أمي تسألني عن أولادي وكأنها لا تعلم.. أين هم أولادي يا أمي؟ ألم يأخذهم بعيداً عني منذ طفولتهم إلى مدارس داخلية بعيدة؟ كبروا وتعلموا واستقلوا وهم بعيدين عني، لقد تزوجت الكبيرة منذ سنة، والأخرى تعمل هناك حيث درست، وابني الذي كنت آمل أن يخلصني من تعب الأيام غارق في أبحاثه إلى أجل غير مسمى. هل بيني وبينهم علاقة حميمة كما هي بين كل أم وأولادها ممن يعيشون سوياً؟

أجهشت في بكاء مرير أتممت بكلمات مبهمة لكنها محمومة، لا أريد أن أتذكر تلك المأساة تلك الجريمة التي ارتكبها بحقي وحق أولادي. لم يتح لنا فرصة إن نبقى مع بعضنا أكثر من أسابيع كل سنة، كانت الدنيا تقوم ولا تقعد حين يراني أبكي من شدة ولهي وشوقي إليهم، ينعتني بكل صفات الضعف والفشل والكسل وقصر النظر، ولا يمكن لمن تنعت بهذه الصفات أن تكون على دراية من وجهة نظره بقيمة ما يفعله للأولاد ليضمن لهم مستقبلاً عظيماً. السنوات تمر والدموع تجف والعواطف تستكين وتأخذ منحنى آخر نحو نفسي معظم الأحيان، لا لم تنحرف إلى جهة الأنانية أو عشق الذات بل أخذت بي منحنى أخطر و أعتى، شعور عظيم بالظلم والاضطهاد والشفقة على نفسي وهذا أسوأ شعور تكنه نفس لصاحبها.

أسرعت بعيداً عنهم أخفي فورة ثورتي ودموعي، نبشت في أعماقي عن قدراتي الكامنة وعن مشاعري، وجدت بداخلي امرأة غير التي تعنيها أمي، الحمد لله لقد نضجت بما فيه الكفاية. جلست وحيدة، تزدحم في رأسي الكلمات والأفكار، مددت يدي أبحث عن أوراقي وقلمي سحبتها من تحت الوسادة، واستعددت لكتابة هواجس لا يطيق أحد مجرد سماعها خوفاً من تحمل تبعاتها "لا أنكر أنني مازلت أشعر بالخوف الذي كان يشل حركتي في السابق حين تكتمل فكرة الخلاص وتنضج فأتراجع عن التنفيذ، الآن أحس به يتضاعف أمام إصراري. كيف لي أن أجعله إصراراً من أجل هدف حقيقي واضح جلي يوضع ضمن أطر حقيقية قابلة للتنفيذ وليس مجرد معاندة توصلني إلى عبث؟".

"هذا الأشياء التي كنت أخفيها وأحبسها حتى خيل إليّ أنني نسيتها ظلت تنمو في أعماقي في الخفاء، تحمل الكثير من الثورة والتحدي دون أن أجد لها متنفساً، زرع أهلنا في أنفسنا قبل أن نعي أننا الأضعف والأقل مما جعل هذا الشيء الحبيس يخمد قبل أن يثور".

"الحرية هاجسي أريدها ولكن من يفهم ماذا تعني لي؟ أقف الآن في وجه عاصفة عاتية، سأكون فيها وحدي، فايز ليس بالرجل السهل، فرجل ناجح مثله لن يسلم بسهولة، ولن يسمح لأحد ما بأن يغير خططه وبرنامج حياته من أجل رغبة لا تتفق ورغباته مهما بررت له، فكل رغبات الناس أو أفكارهم هامشية لا تستحق الالتفات، مع إنه كثيراً ما يمارس حياته بالشكل الذي يريحه ويسعده مهما أتعب من حوله".

كيف سارت الأمور بالضبط؟ لست أدري؟ هل كنت أدور مع الأيام فأشارك في صنع الأحداث؟ أم كانت الأحداث تأتي بطريقة قدرية عجيبة فأنفعل بها؟ مضت أيام لم يتصل فايز ولم أعرف إن كان قد عاد أم لم يعد، ولم أجد في البيت وجوهاً مرحبة تود التبسط في الحديث أو الاستماع إليّ. كنا نعيش في البيت سوياً مثل قطيع غير متجانس، أعني بلا مشاعر واضحة سوى التحفز، كل منا ينتظر أن يأتي يوم يحمل حلاً يريح الجميع، إلا أنا، فقد كنت قلقة فعلاً ولكن على نفسي، لا أعرف بعد ماذا أريد ومن أين أبدأ بالتحديد، لا أريد العودة إلى حيث كنت، وليس في رأسي البديل، لا أعرف من أين سأدخل إلى العالم الذي أحلم به".

في ذلك اليوم كنت مشغولة بإعادة ترتيب الغرفة بعد أن تركتها أختي لي وانتقلت إلى غرفة أخرى. وجدتها فرصة أن أبدأ في الانفصال عنهم فلا أشاركهم جلستهم الصباحية، سأعتزلهم بقدر المستطاع ريثما تهدأ نفوسنا جميعاً ويعتادون وجودي ويتأكدون من إصراري. شغلت نفسي بترتيب بعض الأوراق، عثرت على أرقام هواتف السيدة امتثال، فاستغربت كيف لم ألجأ إليها بعد كل ما فعلته من أجلي لتساعدني، هرعت إلى التليفون الموجود في الصالة وأدرت أرقام هاتفها ثم انطلقت أكلمها بكل ود وحب كأنني تركتها منذ أيام وسط دهشة الجميع، تبادلوا نظرات الفضول فيما بينهم، بينما

ازددت غبطة كونها عرفتني بمجرد سماعها صوتي، على الرغم من طول انقطاعي عنها، رجوتها أن تقابلني لأمر هام، وأقفلت السماعة على وعد منها بتلبية رغبتي في أسرع وقت.

(2)

سمعت عنها كثيراً، كان زوجها أبن خالة فايز، كانت محور الحديث في مجالس الأسرة التي قليلاً جداً ما كانت تشارك بها، في بعض الأحيان حين تكون هناك مناسبة ما كان زوجها يشارك بشكل رسمي وسرعان ما ينهي الزيارة. كان الحديث الذي يدور عنها وعن زوجها وطبعاً في غيابهما يقال بشكل انتقادات لاذعة بأنها امرأة خارجة على العرف العام وأن زوجها ضعيف أمامها وخاصة أنهما انفصلا مدة طويلة ثم عادا واستأنفا حياتهما من جديد.. وما كان يدهشني حقاً، أن النساء قبل الرجال والقريبات منهن قبل الغرباء كن يبدأن شن الهجوم الكلامي عليها كامرأة تتشبه بالرجال تقوم بأعمالهم وتتعامل معهم بلا خجل وتنافسهم وتتفوق عليهم بلا مبالاة بآراء الآخرين، في تلك الجلسات العائلية الدورية غذيت معرفتي بها، وبدأ الإعجاب الذي كان يزداد يوماً بعد يوم.

بدأ اهتمامي بها وبأخبار نشاطاتها وتحدياتها كشيء طبيعي لمثلي، فقد كنت أعيش دوامة القلق وعدم الرضا والتمرد على الوضع القائم، كان يسعدني كثيراً أن امرأة من جنسنا تمكنت من كسر القالب الذي يعد لنا نحن للنساء من قبل أن نولد، ويتحدد مصيرنا قبل أن تتضح قدراتنا وإمكانياتنا.

عرفت أنها من أهم مؤسسات النشاط النسائي، ورئيسة لاتحاده، والعنصر الفعّال فيه. بدأت نشاطها العملي الاجتماعي حين ترأست الاتحاد النسائي وتفرغت له تماماً تاركة مهنة المحاماة، بذلت جهوداً خارقة من أجل تطوير قدرات الاتحاد المحدودة ضمن قرارات ومراسيم مما أعطاه شكلاً بلا أي مضمون فلم تفلح، كانت تبتكر نظرية أو فكرة وتطرحها للبحث، فتصطدم بكثير من الممنوعات التي تشل حركتها بشكل قانوني ملزم، مرة من أجل المصلحة العامة، ومرة أخرى من أجل الروتين الذي لا يمكن تجاوزه، ومرة بسبب اللوائح المعمول بها والتي لا تتبدل بجرة قلم بل تحتاج إلى لجان وبحث مستفيض. فتموت الفكرة وتدفن مع الكثير من الأوراق المهمة والمهملة في أحد الأدراج قبل أن يتذكر أن يفرج عنها الروتين.

اذكر أنني قرأت لها ذات يوم مقالة تعجب فيها من قدرتنا وجرأتنا كعالم ثالث في إجهاض أي فكرة بجرة قلم، ثم تسخر من نفسها ومن أصحاب الأفكار كيف تبدأ فكرتهم بحماسة كبيرة وعظيمة ويقدمونها بإصرار تخاله سيوصلهم إلى الاستعداد للفناء دونها، ثم تبدأ تتراجع وتصغر وتتضاءل الآمال وتنحني الرغبات وتكتم، وتؤجل إلى موعد قريب لا يأتي.

فهمت امتثال اللعبة بعد حين فأخذت على عاتقها تخطي هذه الحواجز، وذلك بأن تقوم بتأسيس نشاط نسوي من خلال الاتحاد ليكون أكثر إيجابية، وفعلاً سارت به خطوات جريئة تقرب من النضال، وتخطت الكثير من الممنوعات، وتجاوزت التابو الموضوع بشكل يشل العقول ويحد من تطورها من أجل الاستمرار في الهيمنة.

كانت شهرتها التي أهلتها لتكون فعلاً رائدة بين النساء التصدي لكثير من القوانين المجحفة بحق المرأة، تبنت مثلاً مشروع تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة، ومسألة حق المرأة في العمل، حق الزوجة المطلقة، حق الزوجة في معرفة زواج زوجها بأخرى قبل أن يتم، بل وأن يتم بموافقتها، وتنفيذ رغبتها إن طالبت بالانفصال، وكثير من مثل هذه الأمور، مما أبرزها على ساحة العمل الاجتماعي بكل قوة. أصبح همها تغيير المؤسسات الاجتماعية وإعادة تأهيل النساء أنفسهن.

حين التقيتها أول مرة في حفلة زفاف ضم جميع أفراد الأسرة، كنت أعرف عنها الكثير، ووجدت الفرصة التي تمنيتها طويلاً سانحة أمامي لتتحقق، بعد أن أفشل فايز كل المحاولات السابقة للتعرف عليها بإبعادي عن كل مكان تكون فيه. رغم الهمسات والنظرات من حولها كانت جالسة في مكانها تنظر للجميع بحب وفرح، بل الأجمل أن كل من يعرفها يقوم من مجلسة يصافحها ويحييها ويرحب بها. فتبتسم بهدوء لطيف، في تلك الفترة كانت رئيسة للحركة النسوية التي أشعلت حماس كل النساء حين فرضت عليهن أن يعتبرن أنفسهن إنساناً كاملاً كأي رجل، فكان رد فعل كثير من الرجال الاعتداء بالضرب على نسائهن اللاتي كن يجتمعن بها ويرددن أفكارها ويتصرفن من منطلق شعورهن بكيانهن المستقل. وقد ردت بتحقيق صحفي أجرت فيه حواراً مع مجموعة من النساء المعتدى عليهن بالضرب أو بالطرد او بالحجر عليهن في بيوتهن ونشرته في جريدة يومية على عدة حلقات.

على العشاء في بيت إحدى قريبات فايز التقيتها للمرة الثانية، كان الفرق بين المرتين أربع سنوات، وكان قد مضى على زواجي من فايز ثماني سنوات. في هذه الفترة بالذات كنت متفرغة تماماً بعد أخذ ابني الأصغر إلى المدرسة الداخلية ليلحق بأختيه هناك، لم يكن هذا بالأمر السهل عليّ فقد كانوا أطفالاً صغاراً بأمس الحاجة لأمهم وكنت أكثر احتياجاً إليهم منهم، حرموا من أمهم وحرمت أمهم منهم والكبرى لم تتعد السابعة وأختها في السادسة والصغير في الخامسة من العمر. في ذلك الوقت ومع الفراغ والألم الكبير فتحت على نفسي أبواباً لم تغلق أبداً، بدأت أتساءل وأفكر وأتراجع.

حين تواجهنا ابتسمت لها، ظننت أنني أعرفها أكثر مما تعرفني فردت على ابتسامتي الواسعة بابتسامة رائعة. كانت في العقد الخامس من العمر، امرأة واضحة المعالم، فتية بجسمها المفتول المشدود، في عينيها السوداوان اللتان تلمعان فطنة وذكاء وحنكة سحر غير عادي، شعرها مسرح بطريقة تزيد من وقارها. كانت قد طلقت زوجها ثم عادت إليه، لم أعرف أسباب الطلاق لكنني كنت أسمع ما يقال حولها بأنها من أولئك النسوة اللاتي يعادين الرجل ويمقتن الزواج وتبرر قولها أن الناس أحالته إلى نظام فاشل وممقوت، وحين عادت لزوجها مرة أخرى بعد طلاق دام سنتين على ما اعتقد لم ترحم أيضاً بل أخذت نصيبها من التعليق وقد طال زوجها بعض رذاذه.

اقتربت مني وقدمت لي نفسها باسمها الكامل:

– امتثال الفقيه.

قدمت لها نفسي قائلة:

– تشرفنا.. أنا فتون كامل.

– لا أنت فتون طالب أو أنا مخطئة؟

فكرت أن أسألها بتخابث عن الفرق بين الاسمين. ولكني قلت:

– صحيح هذا اسم عائلتي.

قالت:

– وما الذي جرى حتى تغيريه؟

قلت:

– إنه اسم زوجي و..

قالت بامتعاض واضح رغم لطفها الفائق عن الحد:

– آه.. أنت منهن.

حين قمنا للعشاء وجدت المائدة معدة بحيث يجلس كل رجل مقابل زوجته، ابتسمت لي فقد كنت إلى جانبها قائلة:

– أعرفك على زوجي عادل عابد موظف حكومي. يعني أردت فقط أن أطمئنك إلى أنني تشرفت بهذه المهمة الأزلية ودخلت مؤسسة الزواج مرتين مع الشخص ذاته، لعل ذلك يوحي لك بشيء ما.

قلت معلقة:

– تقولينها وكأنها نعوه للزواج كأمر لا بد منه، لا كدعوة للانضمام إلى مؤسسة الزواج كحل واحد ومثالي لاستمرار الحياة.

قالت موضحة:

– أنا لست ضد النظام نفسه، بل ضد التعديلات التي أدخلت عليه، أعني القوانين الموضوعة التي جعلته نهاية لحياة كل امرأة.

كنت أفكر بصدق فيما تقول، سنوات طويلة عشتها زوجة لا قيمة لي سوى فترة إنجابي لأولادي، وبعد أن أبعدهم عن البيت وعني لم يعد لي أي مهمة في الحياة. قلت مستوضحة:

– لقد قلت بنفسك الآن أن هذا الخلل ليس من النظام بحد ذاته، فما معنى الوضع الذي نعيشه؟

قالت بهدوء ومنطق كالعادة:

– انه قالب الزوجة الفاضلة الذي يعني شيئاً واحداً ليس غير نتعلمه ونقدسه، أن تكون الزوجة الشهيدة والضحية في تلك المؤسسة. انتبهي فتون تغيير الاسم إحدى علامات سلب شخصية المرأة، في

الظاهر يبدو الأمر وكأنها تمنح شرف حمل أسمه، بينما هو في الحقيقة يجردها من اسمها الذي حملته كل عمرها قبل زواجها، كدليل على التفوق، والقدرة على الاستحواذ.

قاطعها زوجها ضاحكا ملطفاً جو الحديث:

– الحمد لله.. لست واحداً من هؤلاء.. وإلا حدث مالا يحمد عقباه.

سمعت صوتاً نسائياً يعلق بمغزى غير خاف:

– ترى أتقول ذلك عن اقتناع أم كأمر واقع؟

قال بالبساطة ذاتها:

– الاثنين معاً..

سألها زوجي بشكل استفزازي على طريقته في المشاركة:

– إذا تمردت النساء فمن أين لنا برعايا لنقوم بدورنا الحقيقي في الحياة ما معنى قوامين إذن؟ أنت تنسين الشريعة وتقفين ضد قوانين السماء أيضاً وليس ضد قوانين الأرض فقط.

أجابت بقوة وثقة:

– لست ضد الشريعة ولا ضد القوانين، لكن ليس من الشريعة امتلاك المرأة روحاً وجسداً وفكراً ومالاً، فلنا ما لكم وعلينا ما عليكم.

قلت أقدم لها زوجي بطريقة ميكانيكية لأقطع الحديث:

– سيدة امتثال... أعرفك على زوجي و..

قاطعتني:

– فايز كامل.. رجل أعمال وقادر على شراء الكثير من الأشياء أليس كذلك؟

نظرت إليه طويلاً نظرة ذات دلالات كثيرة فردّ عليها:

– هذه ميزة لا بأس بها، على كل حال، حين يوجد في المكان واحد من أصحاب تلك المقدرة على شراء كل شيء فعلى كل الموجودين أن يكونوا على حذر ألا يبيعوا ولا يباعوا من حيث لا يدرون.

انفض العشاء ثم توزع المدعون، فوجدت النساء في جانب والرجال في الجانب الآخر، أحسست أن تلك السيدة تتعمد الجلوس بجانبي، ابتهجت لأني لفت نظرها، فهي لا تهتم إلا بمن تجد عنده الاستعداد لتلك القفزة في عالم المرأة الضيق. الفرصة الآن متاحة للتعرف عليها كنمط جديد من النساء وعلى نقيض معظم النساء اللاتي في عمرها، وغالباً ما يؤثرن بشكل طاغ على الجيل الجديد، فيصبحن نسخة طبق الأصل منهن، هي مثلاً تختلف عن أمي حتى التناقض، وبما أن أفكار أمي تحكمني، فهي إذن نقيضي، وكما يقولون أن كلاً بنقيضه مغرم.

فهمت لماذا حرص فايز على عدم وجودها حولنا في زياراتنا الأسرية كل تلك السنوات، لقد أحس بمدى لهفتي للتعرف عليها، في البداية انبهرت بها كحالة فريدة يصعب إيجاد صورة مثلها، ثم بدأت

أحس بها جيداً بعد معرفتي بها عن قرب، وأخيراً أدركت عظمتها بشكل حقيقي، جاء هذا الرأي متأخراً قليلاً، ولكن بوسعي الاستدراك. كانت واحدة من النساء المشهورات باعتزازهن كثيراً بكونها امرأة، ولا تقبل الحديث عن البشر إلا بصيغة إنسان، تتعامل مع الجميع بندية تامة، دون أن تهتم بما يفكرون ولا كيف يفسرون مواقفها. بعد أن يعتادوا أفكارها ويفهموها، لا يجدون في غيبتها لقباً يصبغونه عليها للدلالة على قدرتها وكفاءتها إلا من وحي خلفياتهم التربوية بقولهم إنها امرأة حقيقة قوية مسترجلة، خاصة أنها لم تكن تهتم بتجميل نفسها وتصر على اختيار ملابسها بعناية شديدة بلا إفراط ولا تفريط. حين تسمع هذا الكلام تضحك وتقول أنه مديح يحمل معنى الذم، في تلك الليلة تعمدت فتح باب للحديث، فقلت:

– سيدة امتثال.. سمعت عنك كثيراً، ولكن لم أعرف بالضبط نوع العمل الذي تمارسينه.

– أمارس أي عمل أستطيع القيام به شرط إتقانه. وأنت هل تعملين؟

قلت وابتسامه تحمل معنى الاعتذار على شفتي:

– لا أعمل ولكن أتمنى بالفعل أن أعمل فالفراغ يكاد يقتلني.

– ألا تعجبك مهنة ست بيت؟

–لم تعد تكفيني أو ترضيني، في نهاية النهار أشعر بعدم الاكتفاء، خواء يتركني مرهفة الإحساس أنني خسرت يوماً جديداً، وخسرت بعضاً من ذاتي معه. لا أعتقد أنه من السهل دفعي إلى عمل ما، لأنني فعلاً لا أحسن عمل أي شيء، هذا ما يردده زوجي كلما شكوت من الفراغ والملل.

قالت ببساطة:

– إذن يجب أن نبدأ بالتعلم سنفكر في هذا في مقابلة أخرى.

ظننت الموضوع قد انتهى عند هذا الوعد، ولكنها كانت من النساء اللواتي لا يعرفن التسويف، فلم يمر يومان حتى اتصلت بي وسألتني بشكل مباشر:

– هل أنت جادة في مسألة التعليم؟

– أكيد، أرجو ألا تنسيني.

– أنا بانتظارك غداً في تمام العاشرة.

– إلى اللقاء.

قالت:

– أرجو أن تخبريني إن حال أي حائل بينك وبين الحضور، إلى لقاء.

كانت معرفتي بها نقطة تحول في حياتي، لم تشعرني بنقص فيما أبديت من محدودية معرفتي بتقديرها ظروفي، بدأت مرحلة شاقة في حياتي وبمساعدتها الحقيقية تقبلت الوضع، بعد سنة واحدة فقط حصلت على الشهادة الثانوية، وفي السنة التالية رتبت لي أموري للانتساب للجامعة، تعبت كثيراً من

أجلي دون أن تطالبني إلا بشيء واحد، ألا أتخلى عما قررناه سوياً. في أثناء الدراسة الجامعية بدأت ترشدني إلى الطريقة المثلى للقراءة، كيف أقرأ؟ وماذا أقرأ؟ ولمن أقرأ؟

خمس سنوات مرت على بدء مرحلة التعليم، وفي نهاية أعوام الدراسة الجامعية كنت واحدة أخرى، وجدت نفسي أقوى وأقدر على التفكير والاختيار بين بدائل لم اكن أعرف لها وجوداً، كان يوم تخرجي يوم فرح حقيقي لها، أقامت حفلة كبيرة على شرف ذلك النجاح.

لم أرها خلال أيام طويلة، ثم فاجأتنا بزيارة في بيتنا، كانت جلسة ممتعة حقاً أنست فايز امتعاضه من الزيارة حين فوجيء بها، أبدت سعة أفق ومعرفة واسعة وهي تتحدث في كثير من المجالات، في السياسة وفي الأعمال الحرة التي يمارسها فايز بالكفاءة ذاتها. قبل أن تغادرنا سألتني:

– هل فكرت في نوع العمل الذي تودين ممارسته؟

وجدت فايز يفاجأ ويصرخ:

– ماذا... هل ستعمل أيضاً؟

أجابته بهدوئها المعتاد حين تطرح أفكارها بلا مواربة:

– ألا تعتقد أنها كفء للعمل بعد هذا الجهد الذي بذلته؟ العمل هو الحل الأمثل لكافة معاناتها، هو وحده الذي يحدد كيانها في مستقبلها.

قال هازئاً:

– مستقبلها! أنا مستقبلها، مستقبل المرأة يضمنه زوجها ألا يكفي هذا؟ أرجوك لا تدفعيها للعصيان فإن ذلك ليس في صالحها.

قالت بجدية أثارت إعجابي:

– هذا الأمر لها أولاً وأخيراً.

ثم التفتت ناحيتي قائلة:

– ترى هل تستطيعين العيش كما كنت تعيشين من قبل؟

خرجت دون أن تنتظر الجواب وغابت طويلا كالعادة، كنت واثقة أنها بانتظاري، لم أتوقع أن تحاول تشجيعي أو دفعي لتصرف تعتقد في قرارة نفسها أنه الأفضل لي، لكنها ستساعد إذا طلبت مساعدتها.

الأيام مضت سراعاً ولم أحرز أي تقدم في إقناعه، هو مقتنع تماماً بأن المرأة مرآة لزوجها ليرى فيها نفسه ومكانته وتفوقه، يراها وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه من متع وراحة وتدليل، وبالمقابل هو يشقى في الخارج، ويؤمن الحياة بكل زخرفها ومتعها، وطبعاً أولى المستفيدات من كل ذلك الزوجة، فيجب أن تكون تستحق ما يمنحها إياه.

في تلك الفترة كنت قد أصبحت قادرة على مناقشته بأسلوبه، فأرد على قول مثل هذا موضحة رأيه شخصياً وطريقته في التفكير التي لم تعد خافية عليّ، أنها المستفيدة ظاهرياً فقط بينما في حقيقة

الأمر هي تمثله، تعطي الانطباع المرجو بسلوكياتها وتصرفاتها وقدرتها على التميز بمكانة مرموقة وسط مجتمعهم، كل ذلك يرتد إليه تقديراً ودليلاً على مدى نجاحه وثرائه، وذوقه في اختيار المرأة الجميلة الأنيقة والمدللة، في قاموسه لا تعمل المرأة إلا في حالة احتياج مادي، وهو في تلك الحالة يراها تستحق الرثاء والعطف والإشفاق، وأنها تفقد الكثير من مميزاتها كأنثى جذابة تستقطب الاهتمام. فإقناع إنسان مثل هذا مع الحفاظ على الوضع القائم يقتضي كراً وفراً ودأباً لا مناص منه. لقد أصبحت قادرة على ذلك وأول الغيث قطر كما يقولون.

لم تتصل بي أبداً بعد تلك المقابلة، تخبطت كثيراً، تشجعت وخفت، صممت وتراجعت، أمي واقفة لي بالمرصاد، تفسد علي عزيمتي، وتدعم موقف فايز. كل ما استطعته الاستمرار في بذل الجهد البسيط بشكل هادىء مع فايز، تدفعني لهفتي على خوض تجربة العمل، كأن متاعبي كلها ستنتهي بمجرد تحقيق ذلك الأمل، كلما أصرّ أصررت بدوري على حقي في التجربة واعدة بأن أتراجع إن لم يحقق لي ما أنتظر. قال أخيراً:

– هناك حل وسط. أريدك أن تعملي في مجال لا يلزمك بوقت محدد، تستطيعين الذهاب متى شئت والعودة متى شئت.

صفقت طرباً وقلت:

– موافقة، هل أتصل بامتثال وأخبرها؟

قال معقباً:

– انتظري هناك شيء أهم، لا أريد أن تتقاضي أي أجر، أقصد أن تساعدي في مجال الأعمال الخيرية فقط.

على الرغم من الحرج الذي أحسسته وأنا أحايله لانتزاع موافقته على قبول فكرة العمل، وليس في نيتي تنفيذ ما يريد، أظهرت فرحي مرة أخرى بكل ما يقول وابتلعت إحساسي بأنني أتصرف بشكل ينافي أخلاقي، ولكن ماذا أعمل ولم أجد غيره لأصل إلى غاية اعتبرتها كل أملي، كان ذلك الدرس الأول لمواجهة الحياة الحقيقية.

عدت إليها بعد فترة طويلة، لم تسألني أين كنت ولماذا تأخرت، بل وجدتها مرحبة بعودتي، أسعدها أنني استطعت أن أحقق ما أتمنى، واستمرت في تشجيعي والإشادة بكل ما أقوم به على الرغم من عدم انضباطي.

كان قد مضى على تعارفنا أكثر من ست سنوات حين وجهت لي الدعوة للمرة الأولى لحضور إحدى الندوات الأسبوعية التي تقام من أجل توعية المرأة بمكانتها وبحقوقها. في ذلك اليوم لم أتمالك نفسي من السعادة صافحتها بحرارة قائلة:

– أشكرك سيدة امتثال على ثقتك ودعوتك. لقد ساعدتني كثيراً، تغيرت ولا أصدق كيف كنت أعيش.

قالت بتمهل كأنها تسقيني الكلام كلمة كلمه:

– التغيير كلمة تقال بسهولة بينما تحقيق التغيير يتم ببذل أضعاف الجهد الذي يبذل عادة حين يكون الإنسان في حالة تحصيل المعرفة والتعليم، فالأولى فترة تشبه حالة المزارع حين يحرث الأرض وينثرها بالبذور ويرويها بالماء ثم ينتظر مواسم الحصاد. مرحلة تحصيل المعرفة لا حدود له، لكنك ستدهشين بعد أن تعملي من التغيير الحقيقي الذي سيطرأ على تفكيرك وسلوكك وتصرفاتك يوماً بعد يوم وفي كافة وجوه الحياة.

قلت متجاوبة معها:

– كأنني أتوصل إلى معادلة تقول أنه مهما استزاد الإنسان من العلم يبقى في حاجة إلى المزيد ومهما بذل وأعطى في عمله يبقى على يقين أنه يمكن أن يعطي المزيد والأفضل.

قالت وقد لانت نظراتها وأدركت أن ما ستقوله يعنيني شخصياً:

– الاكتفاء بقدر بسيط من التعليم لم يعد يناسب حياتنا التي تزداد تعقيداً، والجميل في الأمر أن كثيرين قد أدركوا ذلك فتسابقوا في سد النقص علاوة على وسائل الإعلام وسهولة السفر والاتصالات، هناك رابطة قوية بين المعرفة والقوة لم ندركها إلا متأخراً وهذا ما جعل مجتمعاتنا تتأخر عن ركب التطور.

سكتت قليلاً لم أجد ما أقوله فتابعت كلامها قائلة:

– لا تظني أنني اخترتك اعتباطاً فأنا أيضاً سمعت عنك كثيراً من أقارب فايز وعادل. هم في العادة يستمتعون بالحديث عمن يتخلف عن مجالسهم، وصفوك بأنك إنسانة قلقة ميالة للنكد لا يرضيك أي شيء، أدركت أنك إنسانة ثائرة على كثير من الأوضاع، ولكنك بحكم زواجك المبكر ليس لديك الخبرة للخروج مما تعانين. انتظرت الفرصة المواتية للالتقاء بك، فامرأة عندها الكثير مما يشغلها عن هموم الدنيا والناس ومع ذلك تحس بها، في اعتقادي أنها امرأة ذكية وغير عادية.

أكملت كالحالمة:

– كنت أحلم بالتحرر والانطلاق، فأهرب إلى القراءة، كنت كلما قرأت أكثر أشعر بالتعب أكثر، وتزداد الهوة بيني وبين الجميع، فأشعر بالوحدة.

قالت متنهدة:

– لقد اكتفيت مثل معظم النساء بمجرد الحلم في التحرر، دون أي خطوة فعلية نحو الجدية في التنفيذ، قد تكوني أدركت عظم المسئولية التي ستلزمك بأمور كثيرة أخافتك. التحرر يعني خوض معارك مرهقة، التحرر يعني تحدي المجتمع وقيوده التي تحكم الرباط حول عنق المرأة، كنت تترددين كلما أخافتك المواجهة، فتقعين في الإحباط. ويأتي بعد ذلك مسلسل أمراض العصر الحديث القلق، الخوف، الوحدة.

قلت مقاطعة:

– وهذا ما أشكو منه معظم الأحيان.

قالت:

– شيء من الخوف والتردد مطلوب، لا تندفعي كثيراً لتعويض ما فاتك فتقابلي الحياة بصدر مفتوح، الدنيا تتغير كل يوم، والعلاقات في المجتمعات تتغير أيضاً، قد تقبلين على الدنيا و الناس ومبدؤك الوحيد أن الحياة تعاون وتكافل، معنى ذلك أن تبقين وحيدة، لن يسمعك أحد ألا من يدرك ما أنت فيه، فيستغل تلك السمة الرائعة كأنها نقطة ضعف، المبدأ السائد الآن هو أن المنافسة والعدوانية أساس التعامل.

قلت بأسى:

– لكن لماذا المنافسة والعدوانية؟

– التملك، الناس يقيمون بعضهم بعضاً بما يملكون لا بمقدار ما يكونون، إنه الزمن الذي يحمل بين جنبيه التناقض الكبير، ينطلق بسرعة الصاروخ في التقدم العلمي، ويسير ببطء السلحفاة في التقدم الإنساني، نضج عقلي ومادي وتخلف اجتماعي إنساني.

رددت بسرعة:

– ما أبشع هذا.

– هناك الأبشع منه، تملك الإنسان للإنسان. وأقرب مثال على ذلك تملك الرجل للمرأة ابتداء من حمل اسمه وانتهاء باحتكار فكرها وعواطفها وجسدها.

– لا أعتقد ذلك، ففي العلاقة الزوجية يتوالد حب بينهما.

– قلة أولئك الذين يرقون إلى مستوى الحب الحقيقي والالتحام الحقيقي، لا تصدقي أن يحدث مثل هذا عند الغالبية العظمى، إذ لا يمكن أن تقوم علاقة حب بين سيد وعبد، بين صاحب سلطة وخاضع لتلك السلطة، بين أقوى وأضعف، بين أعلى وأدنى.

قلت هامسة وخائفة:

– إذن ما العمل؟

قالت بصوت قاطع:

– عليك بالعمل ثم بالعمل ثم بالعمل.

كان يسعدني كثيراً اهتمامها بي، كانت تلمس بتبصر وجع حياتي الدائم والقائم أبداً دون أن تستفسر عن التفاصيل، بينما كان أقرب الناس إلي يرفضون مجرد الاستماع. كان الحديث بيننا يدور غالباً حول مواضيع شتى، لا أذكر أنها فرضت موضوعاً بذاته، إلا حين أسألها سؤالاً محدداً فلا تتوانى في

الإجابة عن أسئلتي الكثيرة والملحة بمنتهى الوضوح والصدق، كانت تدرك أنني أحكم عقلي كثيراً، وأدرك انه ليس من السهل التخلص من ترسبات السنين الماضية بين يوم وليلة، بل الأمر بحاجة إلى ترو وتفكير.

أخذت في التردد كثيراً على تلك الجلسات التي تطلق العنان للفكر والخيال، أعود بعدها مبتهجة منطلقة شاعرة باكتفاء لم يتوفر لي في أي فترة من فترات حياتي السابقة. لم يعجب ذلك فايز صار يتعمد عدم الخروج من البيت في الموعد المحدد لتلك الجلسات. في بداية الأمر كنت أجد صعوبة في أن أتركه وأذهب لأنه لا يلزم البيت إلا في القليل النادر، لكنه كان يصرّ على ذهابي فأنزل عند رغبته ولكنني كنت أترك بيت امتثال قبل الجميع و قبل انتهاء الحديث.

كان موعدنا كل يوم ثلاثاء، وجاء الموعد فأخذت في الاستعداد للخروج، دهشت إذ وجدت فايز مازال في فراشه والشمس على وشك أن تغيب، اقتربت منه أنبهه إلى تأخره، وجدته مستيقظاً نظر إليّ طويلاً وقال:

– بإمكانك الذهاب إلى موعدك فأنا متعب ولا أريد الخروج، سأنتظرك في البيت.

قلت قلقة:

– إذا كنت متعباً.. سأبقى.

لم يحر جواباً وان كنت قد لمحت لمعة في عينيه وشبه ابتسامة تظهر وتختفي على شفتيه. تمنيت لو يطلب مني أن أبقى بطريقته الفظة كي يفتح لي مجالاً للمناقشة ومن ثم أخرج رغماً عنه، لكن الطريقة اللطيفة التي عاملني بها جعلتني غير متأكدة من قصده ألا أذهب، لكن مع تكرار الأمر، وإتيانه كل مرة بحجة مختلفة فهمت ومع ذلك تغابيت وتركته يظن أنني لا أفهم مبتغاه.

تعبت من اللعبة التي يلعبها كل منا على الآخر، كان متأكداً من أنني التي سأصرخ قبله، تألمت وحزنت وظننتها نهاية الكون ولكن بعد ذلك لم أعد أهتم عادت إلى نفسي تبلدها والعزوف عن أي شيء، حاول فايز استفزازي للدخول معي في حوار ليحقق انتصاراً بالقوة، فلم أمكنه من تحقيق رغبته والتزمت الصمت.

وكان أحد أيام الثلاثاء، وقد مرت بضعة أسابيع على انقطاعي عن امتثال، رأيت فايز وقد أستعد للخروج فبدأت بدوري أستعد لزيارة أهلي، لم أخبره، تركته يتوهم أنني في سبيلي لاستعادة نشاطي الاجتماعي، كل منا يراقب الآخر من طرف خفي، لم يتبين الأمر، وأسقط في يده كيف سيتدبر حجة تمنعه من الخروج. دخل غرفة المكتب ونادى بصوت غاضب، ذهبت فزعة من صوته وعصبيته، وقفت أمامه صامته، بينما هو يقذف ببعض الكتب في كل اتجاه وقال صارخاً:

_ هل وصل تدخل تلك السيدة إلى مكتبتنا وأصبحت تختار لنا ما نقرأ.

– ما الذي يزعجك في الأمر، إنني أحاول أن أعوض ما فاتني كل تلك السنين.

قال وهو يتناول كتاباً بعد الآخر عن الأرض ويلقيها على المكتب فوق بعضها البعض:

– كتب دينية، كتب فلسفية، كتب علمية، كتب في تحرر المرأة، كتب نفسية، إلى متى ستبقين مستسلمة لها مغمضة العينين؟ وإلى متى سأحتمل هذه المهزلة في حياتنا.

قلت بهدوء:

– لكنها ليست مهزلة إنها ضرورة، إنها تقوم بما كان يجب عليك أن تفعله من أجلي، كان يجب تهديني لها قبل أي أحد آخر.

قال وهو يهم بالخروج:

– لا أريد أن أرى أياً منها حين أعود.

مشى بخطوات منفعلة ثم وقف وقال:

– أريدك كما أنت، كما كنت، لم يعجبني هذا التغيير، لو أردت زوجة مثل امتثال لتزوجت مثلها، لكن مثلها لا تناسبني.

خرج قبل أن أرد، تركني في حالة من الغضب لا توصف، أنفاسي مضطربة، نبضات قلبي المتسرّعة تدق في أذني مثل ناقوس الخطر، تأججت عواطفي تجاه نفسي وبيتي. لم أفهم أين الخطر في أن أثري نفسي وأقويها، ولا يعذبني شيء قدر ما يعذبني أن لا أفهم علة أي تصرف ممن حولي، في تصوري أنه كان من الأولى به أن يلاحظ مدى النشاط الذي دب في روحي وجسدي فيشجعني، للأسف لقد خذلني، كما كان يخذلني في كل موقف يخصني. أدركت أن علي أن أفعل شيئاً لنفسي لخلاصها من هذا الأسر الطاغي،لم أجد في نفسي نزعة التحدي مهيأة تماماً بحيث تصعد حالة الرفض التي كانت مسيطرة علي آنذاك، مازلت كما أنا أرفض وأغضب ولكن سرعان ما أعود إلى المزيد من التحمل والصبر.

لم أقصد أن أهدم ما بنيته في سنين طويلة ودؤوبة، لكن الخراب أسرع وأسهل من البناء، وهذا ما حصل. عدت لسابق عهدي في عدم الرغبة في عمل أي شيء أو التفكير في شيء، شعور بالإرهاق يطغى علي، ولم تمض بضعة أسابيع حتى لم أعد أنفعل بالضغوط، أو أستجيب لأي إثارة. خيل إلي أنني أقتل نفسي، فاندفعت وراء ذلك التيار غير المستجد عليّ.

انقطعت الصلة بيني وبين السيدة امتثال، كانت تتذكرني حين تكون في حالة استنفار لجمع المساعدات المالية أو العينية لظروف طارئة في أي مكان، وبقيت على التزامها في إرسال الكتب والمقالات والتحليلات التي تريدني أن أطلع عليها، ولأعرف ما يستجد، أما أنا فقد ظلت تلازمني مع كل كلمة اقرأها، مع كل مفهوم جديد يطرأ على فكري، مع كل إعادة لتقيم الناس والأقوال والأفعال. وأول من أعدت تقييمه فايز كامل نفسه.

حين وصلت بأفكاري إلى هذا الحد تذكرت ما أعيشه في هذه الأيام، ما أشبه البارحة باليوم المعاناة هي المعاناة حتى وإن كانت من ذواتنا. حاولت أبعاد التوتر عن نفسي، تمددت على سريري وأنا

أتمنى على امتثال أن تستجيب لرجائي وتعود إليّ ولا تخذلني كما خذلتها، كانت ترجوني أن أستمر في إنقاذ نفسي فلا أضعف، وأصبر مهما طال الانتظار، مؤكدة أنني سأصل بفضل العزيمة.

نمت على هذا الأمل، وكلما صحوت من نومي عدت إليه. استيقظت تماماً وأنا متعبة جداً كأنني لم أنم منذ سنة، لم أترك الفراش إلا حين سمعت صوت أمي وهي تتحدث إلى صوت غريب، عرفت الصوت لقد جاءت، أشكرك يا سيدة امتثال، أنت أعظم إنسان في الوجود،قفزت من السرير فرحة اقتربت من الباب سمعت صوت أمي:

– أي خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟

قالت الضيفة:

– شكراً لك، ولكن لو تفضلت، أخبري فتون أنني هنا.

خرجت بلهفة وشوق إلى الصالة، رأيتها ما تزال واقفة في منتصف الطريق حيث قابلتها أمي، صافحتها فضمتني إليها في شوق وقبلتني، كانت تبعدني عنها وتتأملني، ثم تعيدني إلى صدرها مرة أخرى. سألتني وأنا أقودها إلى مقعد مريح:

– هل أنت مريضة؟

هززت رأسي نفياً ثم جلست بجانبها بينما أمي ما تزال واقفة حائرة بين الجلوس أو تركنا وحدنا.

قالت امتثال ملتفتة بكليتها نحوي:

– لقد حاولت الاتصال بك مراراً في بيتك فلم أوفق، لم أشأ أن أسأل عنك فيما مضى لأني على ثقة من أنك تعرفين أين وكيف تصلين إليّ حين تحتاجين لوجودي، ولكن بعد مكالمتك ذهبت إلى بيتك لأنك لم تخبريني أين أنت فلم أجدك و..

تدخلت أمي وكانت خائفة من تلك الزيارة قائلة:

– فايز مسافر، وقد شعرت بوطأة فراقه، فجاءت تقضي هنا بضعة أيام ريثما يعود.

سمعتها تقول وهي تتضاحك:

– لكن السيد فايز في البيت وهو الذي أخبرني بأنها هنا.

أسقط بيد أمي فسألتني محاولة تلافي الخطأ:

– لم تخبريني أنه عاد.

فقلت بتهكم:

– ذلك لأنه لم يخبرني متى عاد.

كان واضحاً أن أمي لم تشعر بالارتياح لوجود امتثال فخرجت، سمعتها تتكلم أدركت أنها تكلم أخي هاتفياً، ثم لم أعد اسمعها، وجهت انتباهي للسيدة امتثال وهي تسألني عن أحوالي قلت:

– أنني متعبة ولا أعرف ماذا أفعل، قد ترين جهودك وقد ذهبت سدى، لكنني فعلاً تعلمت كثيراً صدقيني.

– ألم تفكري بأن تعودي إلى تلك الاجتماعات التي أحببتها كثيراً؟

– لم أعد أعرف عنها شيئاً منذ وقت طويل.

– إنها تعقد أسبوعياً كما هي، ولكن تغير المكان، وأصبح كثيرات ممن تعرفيهن يسعين إلى الوصول إلى مراكز عملية لم تكن متاحة من قبل، بل ربما تفوقن عليّ.

صمتت برهة ثم قالت بسرعة:

– اليوم سأنتظرك الساعة الخامسة بعد الظهر في مقر الاتحاد الجديد، هاك العنوان.

قامت من مكانها صافحتني ودفعت لي بطاقة باسم الاتحاد مدون عليها العنوان وأرقام التلفونات، لم تشأ البقاء لتناول القهوة أو المرطبات، ولم ألحّ عليها، فقد أحسست حالة التوتر التي حصلت في البيت بسبب حضورها، وقد أشعرتها أمي بنظراتها أنها غير مرغوب بوجودها، وخشيت أن يصل أخي فجأة ويوجه كلمة تجرح مشاعرها. أوصلتها إلى باب الخروج وبينما هي تشد على يدي مودعة، فتح الباب بعنف ودخل أخي، ما أن وقعت عيناه علينا حتى تطايرت قذائفه موجهة إلى السيدة العظيمة التي كانت لي في كل فترات حياتي الحالكة نبراساً يهديني وملاكاً أميناً يمسك بيدي ويرشدني، صاح بصوت غاضب:

–إلى أين؟ نصف ساعة لا تكفي لهدم بيت قائم منذ سنوات على أعمدة متينة تحتاج إلى إعصار لاقتلاعها؟ أليس عندك شغل غير تدمير حياة أختي؟

أجابت بهدوء جميل:

– إذا كنت واثقاً من أن بيت أختك بمثل هذه المتانة، فلماذا تخافني. عن إذنك لا مجال للنقاش بيننا وخاصة أنك بمثل هذه الحالة من الانفعال، ولكنني أريدك أن تتأكد أن فتون إنسانة ذات عقل وقلب وروح وإرادة فدعها تتصرف في هذه اللحظات الحاسمة من حياتها بما يمليه عليها وعيها وإرادتها ليس كما تريدونه لها. ثق أنها ستتحمل مسئولية خيارها مسئولية كاملة.

تركتني وهي تبتسم مشجعة ألا أغضب أو أقلق، أعادت لي نظرتها هدوئي الذي اضطرب بعد تلك الهجمة الشرسة التي لا مبرر لها. عدت إلى الصالة أمشي أمام أخي بخيلاء وتيه، أيقظت بي أحلاماً وآمالاً نسيتها منذ زمن طويل.

كانت أمي وأختي بانتظاري لم أعطهما سوى ابتسامة فيها الكثير من التصنع، سرت إلى غرفتي سمعت صوت أمي من بعيد لم أفهم السؤال لكني قدرت أنها تستوضح، فأخبرتها وأنا أتوجه إلى غرفتي بأنها دعتني إلى العودة من جديد إلى جلساتها الأسبوعية ووافقت.

كأنني أشعلت ناراً في النفوس صاحت أمي:

-اتصلي بفايز وأعلميه ماذا قررت أن تفعلي، وإلا اعتبر ذلك تحدياً له.

قبل الموعد المحدد بدأت أستعد للخروج بشكل عادي وطبيعي، لاحظت أنهم جميعاً يتجنبون الحديث معي. أعرضت بدوري، لا أعرف إن كان هذا الذي تحرك في أعماقي نوعاً من مشاعرنا الشريرة المختبئة فينا أم كنت أتصرف بتلقائية قيدتها زمناً طويلاً من أجل الآخرين؟

خرجت من البيت وقد بدأت نفسي تسترجع قوتها وصمودها، لماذا تصرّ أمي على ربطي بفايز بكل صغيرة وكبيرة؟ لن يسر طبعاً أن عرف أنني أعدت اتصالي بتلك الجماعة كما كان يطلق عليهن. ليت أمي تتذكر ما فعله بي حين وصلتني دعوة منهن للمساهمة في مزاد علني يعود ريعه لصالح الانتفاضة في الأرض المحتلة. في ذلك اليوم كان العالم يتفتت ألماً لرؤية الأطفال وهم يلقون أعتى وأشرس فئة من البشر، ممن نسوا الإنسانية منذ آلاف السنين ويتعاملون مع كل من هو خارج عن جنسهم بوحشية كأنهم وكلوا بإفنائهم. كانت الصور تتلاحق عبر أجهزة الإعلام ووسائله، فلا نملك وقتها إلا الدموع والوقوف من بعيد نرصد ونتألم.

قال فايز بعد أن فرغت من قراءة الدعوة:

– سأضع مبلغاً من المال في مظروف باسمك ونرسله مع السائق إلى مقر الاتحاد.

قلت معترضة:

– لا بد من ذهابي، أعتقد أنه أهم من المال.

قال بتهكم:

– في أي عصر تعيشين يا ست؟ لم يعد أي شيء أهم من المال. هل تعتقدين أنهم يدعونك من أجل سواد عينيك؟

قلت برقة محاولة استمالته:

– مهما كان الأمر فإن السبب يستحق مني الذهاب على الأقل تقديراً للجهد الذي تبذله الأخريات.

قاطعني قائلاً:

– إذا كان لا بد من ذلك فلك ساعة واحدة تثبتين فيها وجودك وتعودين بسرعة.

ذهبت وتأخرت، الموقف كبير ومؤثر جداً فنسيت نفسي، وما أن تذكرت حتى خرجت مسرعة دون اعتذار، لم أجد ما أقوله حتى لنفسي وسط هذا الشعور الوطني المتأجج. بوصولي رأيته واقفاً بانتظاري خارج البيت، وما أن رآني حتى بدأ يصرخ ويلوح بيديه قلت دهشة:

– أين المشكلة؟ هل يستحق تأخير بسيط كل هذه الضجة؟

قال بعصبية وكأنه يخاطب تلميذاً بليداً لم يستوعب الدرس تماماً:

– ليس من أجل التأخير، ولكن لأنك لا تسمعين الكلام، أنا أعرف أكثر منك، دعي هذه الأمور لأهلها.

قلت ببساطة شديدة:

– لكننا كلنا جميعاً أهلها.

– وأنا لا أريدك أن تشغلي رأسك بأمور لن تجدي، هل ستعيد هذه اللقاءات والمزادات والاجتماعات والتبرعات والهتافات ما ضاع؟

قلت وقد استبد بي ألم غريب لتبلد وجدانه أمام أحداث تذيب الصخر:

– لكنها صرخة احتجاج تفيدنا –نحن على الأقل– في تفريغ شحنات اليأس الذي يكاد يقتلنا.

قال بشكل باتر لكنه يحمل الكثير من الاستفزاز:

– ماذا أسمع؟ لا أريد هذه اللهجة مرة أخرى، ثقي فيما أقول، غاية هؤلاء المال، وعلى الرغم من أننا لا نعرف أين يذهب ولا نريد أن نعرف نقدمه عن رضا، مقابل تركنا في سلام، إن كان لكل ذلك نتيجة فنحن في الصدارة وإن كانت مجرد خزعبلات خادعة فلن نخسر كثيراً.

لم ينته الموقف إلا بسكوتي رغم الغثيان الذي أحسسته دون وعد أن أنفذ مشيئته.

كنت قد وصلت إلى الشارع الذي أقيم به الاتحاد، فكف عقلي عن الدوران خارج المدار الجديد وعاد لما استجد على حياتي، أخرجت العنوان من حقيبتي، وتلفت أبحث عن المكان، وأعيد قراءة العنوان مرة أخرى ويدي تشد عليه بكل وعيي.

(3)

حاول فايز كثيراً أن يكلمني، لكنني كنت أرفض محادثته، كانت أمي في كل مرة ترد على اتصاله تجد مبرراً جديداً لتنفي وجودي حسب رغبتي. ولم ييأس، استمر في محاولاته رغم استغرابي بعد كل تلك الأيام من الصمت المطبق، كل مرة يكون أشد إصراراً على التحدث معي، وأخيراً قال لأمي:

– لقد دعوت ضيوفاً مهمين يوم الخميس القادم ووجود فتون معي في ذلك اليوم ضرورياً جداً، أقنعيها أن تكلمني أو أن تأتي وبعد ذلك سنتفاهم وسيكون لها ما تريد.

ناولتني سماعة التلفون قائلة:

– لا بد أن تكلميه.

أمسكت بالسماعة وأنا أكلم أمي قاصدة أن يسمعني:

– أنت دائماً معه مهما تأزم الموقف مهما كنت على حق، لقد اتضحت الأمور، وعرفنا سبب الإلحاح.

سمعته بقول بمنتهى اللطف:

– آسف إذ أضايقك، فمازال بيننا أخذ ورد، سأنفذ لك كل رغباتك، أرجوك ألا تسببي لي الإحراج بعدم وجودك يوم الخميس ثم يكون لكل حادث حديث.

دخلت البيت الذي تركته غير آسفة لم أتبين أي ضرورة لوجودي إلا كما أخبرني مجرد إنقاذ للمظهر العام أمام ضيوفه. البيت في كامل أناقته بل ربما أحسن مما كان في وجودي لا تنقصه العناية كأنني لم أغادره منذ عدة أسابيع.

تفرست في وجوه الضيوف كلهم ممن اعتادوا زيارتنا، كانوا موزعين إلى جماعات في الصالة الكبيرة، مازالوا كعهدي بهم يتمتعون بكل دقيقة من وقتهم على حساب أي شيء كان، قفز فايز من مكانه مرحباً فرحاً وتقدم نحوي محيطاً كتفيّ بساعده واقترب من الجميع ضاحكاً وقال:

– لقد عادت زوجتي من السفر، وانتهت أيام الحرية، لا مهرب من القدر.

تعالت ضحكاتهم، لم أشعر بأي مرح، ولم أستطع حتى من باب المجاملة واللباقة أن أقترب لأحيي أحداً ما كمضيفة، طافت عيناي عليهم فالتقتا بأعين مستطلعة بمشاعر حيادية ليس بها ود ولا حتى كراهية، كل من الضيوف يجاهد ليبدو أنه الأكثر نجاحاً أو ذكاء أو معرفة. كل منهم يتناول شرابه بلا اكتراث من يد الخادم كلما اقترب، يرشفون منها رشفات قليلة دون انتباه فعيونهم مركزة نحوي بفضول تريد أن تستشف الحقيقة، ولكني بقيت جامدة في مكاني مثل التمثال لا أتقدم خطوة ولا أتأخر.

دفعني أمامه إلى الخارج متخلصاً من الإحراج من وجومي، أدخلني إلى حجرة صغيرة قريبة من الصالون، وقال متوداً، يبدي حناناً زائفاً:

– إذا كنت قد مللت من الوحدة فلماذا لم تلحقي بي بدل الذهاب إلى أمك واختلاق مشكلة لنا يصعب الخروج منها، كانت الفرصة هناك أكبر للاستجمام والترويح عن نفسك. على كل حال أمامنا العمر كله، قريباً سنذهب ونحاول أن نعوض ما فات المهم الآن هو أنك تعرفين كم أحبك ولن أستغني عنك أبداً.

قلت بوضوح:

– لا تعقد الأمور بكلام أحفظه عن ظهر قلب ومتأكدة أنك لا تعنيه، أنت لست في حاجة لي ولا بيتك أيضاً، فأرجو أن تتفهم الموقف... أريد حريتي.

ضغطت على مخارج تلك الكلمات المروعة كما تراها أمي، والدهشة تعلو وجهه وهو يقول:

– لا.. هذا لن يكون، يمكننا أن نناقش الحرية التي تطلبينها حسب ما فهمته من أخيك، بل من الآن لك مطلق الحرية مثلي تماماً لن أسألك ولن أضيّق عليك بعد اليوم.

قلت فزعة:

– لكنني لا أريد الحرية التي تمارسها أنت، إنها حرية من نوع آخر لا تفهمها.

قال ساخراً:

– ها أنت تضيعين الوقت سدى، لم تكوني بهذه الصعوبة من قبل، ماذا دهاك؟ ما علينا، سأعطيك وقتاً إضافياً قبل الخروج للضيوف لتشرحي لي نوع الحرية التي تطلبينها.

قلت:

– أريد أن أكون أنا نفسي لا تلك التي تريدها أنت، وهذا لن يتسنى لي وأنا معك، وأجالس مثل هؤلاء الناس. صدقني إنما أقول ما أقول بعد محاولات كثيرة فاشلة.

قال بعجلة وكأنه يتهرب:

– اعتبريني غير موجود، يمكنك أن تبدئي من الآن، الحقي بي، الناس في الانتظار.

بقيت وحدي أفكر به وبنفسي، عذرته، كيف سيفهمني بعد صمتي والصبر الطويل أنني أريد أن أبدأ من جديد في مكان جديد مع وجوه جديدة، تفهمني، ولا تحاول أن تضعني في قوالبها، أو توهمني أنها تتفضل علي بمنحي حريتي كرماً وتفضلاً؟ أعرف كم هو صعب عليه ذلك، فأنا أيضاً لم أستطع أن أختلط مع مجتمعه، وأتفهم نوع الحياة التي يحياها هو وأمثاله من الناس المترفين الذين يجدون كل ما يطلبونه بين أيديهم كأنهم يملكون خاتم سليمان عشت بينهم ومثلهم طويلاً، لم أستطع التكيف، ولن أستطيعه، بقي في أعماقي رفض جعلني لا أحسن معايشتهم راضية وسعيدة مثلهم.

كنت طوال الجلسة على وشك الوثوب والخروج إلى حيث لا أدري، تصلبت مشاعري وتيقظ عقلي، لم تبق فيّ قدرة على ممارسة الفن الذي برزت فيه وهو الصبر والاحتمال. شعور بالإهانة استحوذ على نفسي، لقد امتهنتها مرة أخرى وقسوت عليها بلا مبرر، لقد كانت عودتي إلى هذا البيت مراعاة للجميع

إلا نفسي كأنني عدت إلى تلك الأيام التي كنت أنتظر بفارغ الصبر أن يفهموا ويقدروا ويمنحوني بعض الحرية.

لم يكن كعادته، أين لا مبالاته الطبيعية فيه؟ رغم ضحكاته الرنانة كنت موقنة من أنه يتابعني، صمتي يقلقه بل ويعذبه، أعرف جيداً طباعه، إنه من أولئك الناس الذين يعيشون اللحظة كاملة دون أن يدع أي شيء يفسدها عليه سواء كانت لحظة مرح أو عمل أو تفكير أو نوم، فلكل شيء وقته ونظامه، لكنه خرج عن مألوفة الليلة، وترك عقله يعمل بجدية كأنه يحاول استقراء أفكاري، وكلما ضبطت عينيه مغروستين في أعماقي أجدهما تسألاني ماذا بعد؟

كان الحوار متصلاً بين الجميع حول قدرات الإنسان وهل التصميم هو أهم الأدوات المستعملة في الوصول أم الاجتهاد والتعب أم أن الحظ يلعب الدور الأساسي، مازلت حتى الآن لا أعرف إن كان فايز يوصل لي بطريقة رده على الحوار الدائر بين الجميع رسالة، أم أنه غير قادر على لمّ شتات نفسه، ومتابعة ما يجري حوله بيقظة رجل أعمال ناجح مثله، سمعته يقول:

– الأحلام تعني أن نتأمل، بينما حقيقة الحياة تتطلب منا اللهاث وراء كل مستحيل، أقصد أن يتعرف الإنسان على قدراته ويستغلها فتطوع له المستحيل نفسه، الدنيا لا تؤخذ إلا غلاباً.

لعلني لم أكن أتابع ما يقال بجدية ولكنني لم أجد بين هؤلاء المجموعة أي رابط، كأنهم اجتمعوا لقتل الوقت، سمعت أحدهم يسعل بطريقة من يريد لفت النظر إليه، توجهت العيون نحوه كان جالساً متصلباً محشوراً بكل بدانته في ثياب تشي بقيمتها وجودة صنعها إلا أنها لم تمنحه الوجاهة المرجوة حين اشتراها أو حين لبسها قال:

– لا يا فايز، إن ما تقوله بعيد جداً عن الواقع، هناك أشياء مستحيلة فعلاً، لا يحققها حلم ولا أمنيات ولا قدرات مهما كانت غير عادية، وفجأة تراها محققة لإنسان اقل من عادي لا يملك إلا العناد وجرأة يحسد عليها، كمن ليس عنده ما يخاف عليه. الدنيا ضربة حظ أكثر منها جهد، فكم من أناس يتعبون إلى درجة الاستنزاف ولا يكسبون إلا قوتهم، وكم من فئة لا تبذل الجهد ذاته ومع ذلك تكسب بشكل لا يصدق.

حين التفت نحوي مستوضحاً رأي أجبته:

– أعتقد أن الله لم يخلق لنا شيئاً عبثاً، فإذا أعملنا كل جوارحنا، عقولنا وقلوبنا وأرواحنا إلى جانب حواسنا الخمسة فالنجاح سيكون لنا حتماً، أما مسألة الرزق فهذا أعتبره نعمة من الله يقسمها على عباده كما يشاء. في الحقيقة أن النجاح المادي الذي تصبّون عليه كل اهتماماتكم ليس هو عنوان النجاح الحقيقي، هناك عدة أمور في الحياة تتطلب الذكاء الاجتماعي ولا تدر أرباحاً بل لعلها تكلف غالياً مادياً ومعنوياً.

جاءت اللحظة الحاسمة التي استعد لها كل منا على حده، حين خرج الضيوف بعد منتصف الليل بقليل، بقيت أمي وأختي وأخي وزوجته، اقترب فايز مني باسماً فتنهدت بحرقة، نظر إلي بود، وسأل بكل حب التقطته أذنا أمي كما يلتقط أدق جهاز استقبال في العالم:

– أتمنى أن أعرف سر هذا الأسى؟

أجبت دون أن أنظر إليه:

– أهو جديد عليك؟

قال بحنو:

– لا.. أحسه هذه المرة أشدّ مرارة.

قلت بجفاء:

– إنها الكآبة التي تنتابني بين حين وآخر دون أن أعرف لها سبباً.

لم يعلق أحد فابتسمت بمرارة وتابعت:

– حزني يزداد حين أكون وسط أناس يعرفون جيداً كيف يستمتعون بوقتهم، في الأيام الماضية كنت أحسدهم كيف يرمون الدنيا وراء ظهورهم، والآن بعد تفتحت الأمور في ذهني أصبحت أرثي لهم، لقد فقدوا الإحساس، نزلوا إلى أحط مراتب الإنسان، ولا ادّعي أنني خير منهم، فأنا أيضاً وصلت معك إلى أقصى مراحل الدمار النفسي والجسدي.

قال وقد بدأ يعود لطبيعته التي تكره التفاصيل:

– لا تراوغي بمثل هذه الحجج السخيفة.

قلت وأنا أبتعد للوراء مرتاعة ومتحفزة:

– فايز.. يجب ألا تصل الأمور بيننا إلى درجة الإهانة، دعني أذهب بسلام.

صاح دون تعقل:

– أي سلام هذا؟ إنك تخربين بيتي وكل ما حققته في حياتي ثم تسمين ما تفعلينه بالسلام، إنك تردين على الحب وكل ما فعلته من أجلك بطريقة مرعبة جاحدة.

ظللت واقفة بنظرات ثابتة وهو واقف في مواجهتي مقطب الجبين كأنه فوجيء بكل هذا التحدي قلت ببطء و ببرود وثقة:

– يجب أن نصل إلى حل.. وسريعاً.

قال وكأنه محموم يهذي:

– لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً، كأنني في حلم، ولا حلم أيضاً، لم يخطر لي على بال قط ولا مجرد خيال أن يحصل في بيتي شيء مثل هذا، على كل حال تريثي قليلاً ودعيني أرتب الأمور، فالمظهر الاجتماعي مهم جداً لرجل معروف مثلي.

قام أخي وذرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم اقترب مني قائلاً:

– إذا كنت ترغبين في شيء من التغيير ففايز على استعداد ليسمع وينفذ. وأنت يا فايز حاول أن تتفهم، فتون عندها حق، فالتغيير أمر ضروري مع مرور الأيام، في المشاعر وفي الأفكار مع نضوج الإنسان، تعاونا للخروج من الأزمة، فشيء لا يصدق مرور عشرون سنة دون تحول وتبدل، اعتبراه منعطفاً خطراً، توقفا قليلا للتأمل.

أردت أن أشرح إلى فايز الأمر كما أراه قبل أن يبدأ المناورة بعد كلام أخي وقد دس فيه سمنه مع عسله، قلت:

– أسمعك تردد دائماً أنك تحبني، وأن مشكلتك أنك لم تستطع أن توصل لي مشاعرك لأنني كثيراً ما رفضت أسلوبك في التعبير، دعني الآن أقلها لك بصراحة إنك لا تحبني، لأنك ببساطة شديدة لا تستطيع أن تحب إلا نفسك. الحب شيء عظيم، درع واق ومهم لكل البيوت، ليتك تحب حقيقة لتدرك المعنى الحقيقي لهذه الكلمة التي تقولها وكثيرون غيرك جزافا، بعد ذلك ستدرك أن الذي كان بيني وبينك ليس حباً، إنه عشق ذاتك وامتلاكي.

– لقد أحببتك وأنا مصرّ على الكلمة ومعناها، أعطني فرصة وسترين.

غزت ابتسامة حزينة شفتي وضغطت على أسناني كي لا أنفجر في البكاء:

– وماذا عني؟

– أحببتني كثيراً، إنني متأكد من ذلك، تغيرت بعد اختلاطك بتلك الفئة المتمردة من النساء، أفهمنك خطأ أن هدوءك واستسلامك يمسان كيانك، مع أني أعتبرهما رمزاً رائعاً لأنوثتك الرقيقة التي كانت تدفعني دفعاً لأن أوفر لك المزيد من الرفاهية والحماية.

شعرت بأن عيني ستقفزان من محجريهما:

– الحماية ممن؟ أخبرني أرجوك؟

– من نفسك، من المشكلة الأزلية التي لم تتخلصي منها، وهي التفكير بقلبك، عواطفك لم تنضج كما فعلت بعقلك، لم تزل رقيقة فياضة، ستبقى تدخلك في متاهات عاطفية مع الناس، ولا تنتهي إلا بتدخلي. اعترفي الآن وبالشجاعة ذاتها التي تطلبين فيها حريتك أنني أنا الذي أفكر وأتعب وأبذل الصحة والمال والجهد فيأتي الشيء دائماً كاملا متقناً، ودائماً كنت راضية ومقتنعة لذا عشنا في هدوء. تذكر بسيط وتدركين أن كل جهدي وجهود العاملين في شركاتي تصب إيرادها عندك أنت، يعني أنت المستفيدة الوحيدة من كل هذا الشقاء.

لم تتبدل قسمات وجهي بل ازددت ألماً لا يفهمه من كان على شاكلته، تحركت نحوه نازعة من يدي وأصابعي ما كنت ألبس من مجوهرات وأضعها أمامه قائلة:

– لا أعرف كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام وأنا في مثل هذه الحالة من التوتر. خذ، هذا هو الشيء الوحيد الذي تقدمه، لم أعد أريده، أليس هذا ما اشتريتني به؟

صاح بوجه الجميع يشهدهم على إخلاص نواياه:

– أرأيتم؟ كيف يمكنني أن أفهم بماذا تفكر وماذا تريد؟

رددت على صياحه بهدوء أثاره:

– هنا تكمن المشكلة، لم تفهمني لأنك لا تريد أن تفهمني، أما أنا فقد حاولت كثيراً أن أفهمك فلم افلح. أعطني ساعة واحدة نتحاسب خلالها فعلاً وقد نصل سوياً إلى حل يرضي كلينا، قد تدهش لطلبي، ولكنني سأكون أشد دهشة منك إذا رأيتك تستجيب وتحاول أن تسمعني.

– لقد قررت أن أدهشك، تفضلي وقولي ما تريدين.

– هل تتذكر أنك استجبت مرة واحدة لإلحاحي على أن نجلس ونتفاهم في كل موضوع نختلف فيه، كنت تنهيه بحزم كأنك جراح لا يعرف إلا البتر أنجع علاج.

قال مندهشاً:

– هل كنت تنتظرين مني أن أثقل عليك بكل صغيرة وكبيرة سواء في العمل أو البيت؟ هل تعتقدين أننا سنحيا حياة أفضل لو فعلت شيئاً مثل هذا؟

قلت بحسرة:

– هذه هي المشكلة، أنت فعلاً لم تحاول أن تفهمني طوال حياتك.

لم استغرب ارتداد لهجته إلى لهجة الانكسار فأنا أعرف أساليبه، قال:

– ولكنني أحببتك.

قلت بأسى:

– قلت لك مراراً وأصرّ على ما قلت أنت لم تحبني لكنك اقتنيتني. مهمتي في الحياة محصورة ضمن مجالك كأن أسليك مثلاً، كان يضايقك جداً أن أزور أحداً أو يزورني أحد من الأهل أو الأصدقاء، تتضايق إذا رأيتني أقرأ، تنفر من مناقشتي في أمور كنت أعتبرها حيوية وأريد أن أفهمها. باختصار، لم أذق معك طعماً لسعادة، قد أقول أنني كنت أعيش في أمان، ولكن ليس بالرضا الكافي. لم تتطور نظرتك لي رغم مرور سنوات طوال على زواجنا، كان يسعدك أن تحس بي صغيرة ومدللة وضيقة الأفق.

أحسست بصدقه وهو يقول:

– كلامك صحيح إلى حد كبير ولكنك تبالغين أيضاً، على كل حال أعدك بأن يتغير كل ما تريدين تغييره.

زحفت أمي إلى جانبي وهمست بأذني:

– أعطه فرصة ماذا ستخسرين؟

قلت أرد على همسها بصوت عال:

– آسفة،لم يعد الرجل الذي أود العيش معه، ولن أضيف إلى عمري أي جديد معه، سأعتمد على نفسي، سأفهمها وأعلمها وأتطلع إلى العالم من زاويتي، أريد الانفصال.

صاح أخي من مكانه وعيناه تقدح شرراً:

– هذا جنون، لن أسمح بذلك.

لأن شر البلية ما يضحك، فقد شعرت رغم الحزن الشديد المسيطر علي، برغبة شديدة أن أضحك من كلامه، قلت:

–لن يجدي المنع، سأفعل بمنتهى العقل ما تفعله طوال حياتك بلا ترو ولا تفكير. كلما وقعت في حب جديد تسرع لتطلق زوجتك من أجل أخرى، وسرعان ما تطلقها من أجل أخرى، أنا أريد تخليص نفسي من قيود أجبرت زمناً طويلاً على اعتبارها مقدسة لا يجوز تخطيها، واحترمت ذاك المعتقد على الرغم من موتي البطيء. ثبت لنفسي عدم جدواها وأنها ليست أكثر من موروثات تنطبق على بعض الناس دون الآخر. لن أهتم بعد الآن برأي أحد، هذا واجبي تجاه نفسي، هي أهم من كل شيء.

قالت أمي:

– هذا منتهى الجنون، ماذا دهاك.

تعمدت أن أوجه كلامي للجميع:

– إنني إنسانة عاقلة تماماً. قد أحتاج بعض الوقت لأصل إلى قدراته بأساليب واضحة بيّنة، ولكني سأصل في النهاية، لا أريد أن يفكر لي أحد، سأخطئ وأصيب، كلنا ذلك الإنسان أولاً وأخيراً.

رمى فايز آخر أوراقه وقد يظنها الورقة الرابحة فقال:

–هل هذا يرضي الدين والضمير؟ أجيبي كإنسانة متدينة.

لم أتعجل الجواب، فخيم الصمت قليلاً، ثم شعرت بهدوء، وتعمدت أن يكون كلامي واضحاً وحاسماً، فأجبت:

– لم أعد أفكر بهذا الشكل منذ زمن، هذه الأفكار قديمة كادت تدمرني، بعد أن قيدني كثيراً قالب الزوجة الفاضلة كما وضعتموه باسم الدين والدين منه براء، فهو جائر وضيق، آسفة، لم يعد يناسبني. أنا وأنت يافايز نرى الأمور من زاويتين مختلفتين. أنت تراني مجرد شيء لزوم شيء ليس إلا، لا يحق لي أن أفكر ولا أن أعلّم نفسي ولا أن أتحرى عن حقائق ما يعتريني من شكوك حول الكثير من أمور الحياة العامة والخاصة، حين تتضارب تلك الحقائق سواء كانت سياسة أو اقتصاداً ولا أن أتحرى أمور ديني وأفهمه فهماً صحيحاً. الآن تطالب بتحكيمه تريده ديناً تفصيلاً وليس الدين المفروض

الصحيح. أرجوك أن تكون شجاعاً أمام الجميع وتعترف بأن مطلوب مني ألا أهتم إلا فيما يخصك شخصياً.

صاح فايز وكأنه يخاطبنا من آخر العالم:

– المؤكد أنك لست في حالة عقلية سوية، ماذا حصل؟ كل هذا لأنني تأخرت يومين؟ لست مجبراً على تقديم تبرير أو تقرير، هذه حياتي ولا أريد أن تحاسبيني، هل نسيت أنني الرجل؟

أثلج صدري غضبه فقلت ضاحكة بسخرية:

– لم أنس، وإذا حاولت فإن أشياء كثيرة تذكرني بأنك السيد، ولكن أيعني هذا بالضرورة أنني أمة؟ إنني عاقلة وربما أكثر منك وإلا لما تحملت كل هذا الصلف والكبرياء سنوات طويلة.

انقلب هياجه إلى تقرير بارد، قال:

– ليس للأمر إلا تفسير واحد هو أنك لم تعودي تحبينني.

أمنت على كلامه بحماسة:

– هذا هو بيت القصيد، أقولها بكل صراحة وبحزن شديد لم أعد أحبك، ولا أريد البقاء هنا، سأحمّل نفسي بعض المسئولية، أو كلها إن شئت. فكّر بأمانة، هل أجدى احتجاجي إلى تغييرك إلا لبعض الوقت؟ تذكر كم مرة كان احتياجي لوجودك شديداً فتخليت عني، فأحتج وأرجو، ثم أغفر، لمجرد وعد بأن تحس بي في المرة القادمة، وأتت المرة تلو المرة، وتكاثرت وأصبحت مرات ومرات وتخليت وتخليت حتى نفذ صبري ونفدت معاذيري لنفسي.

استغربت أنه تحمل كلامي حتى نهايته، فقال بتحد وإصرار:

– لكنك زوجتي وستبقين، لن أتنازل بهذه السهولة.

قام واقفاً، ونظر بعيداً وطويلاً، أراد أن يعطيني فرصة للتراجع بعد التهديد، لم أفكر بالتهديد أو بالتراجع بل فكرت به وبنفسي، كيف كنت أعطيه الفرص ليعرفني جيداً، إنه يعرف كيف يبعثر نفسي حين يحاول أن يعلمني بعض الفنون الحياتية التي أحتقرها. فركت يديّ واحدة بالأخرى شأني حين أغضب فأشيع الدفء فيهما وأبدد قلقي وتوتري، عدت إلى الجلوس دون أن يفارقني التحدي، خطا خطوتين مبتعداً وعاد كالصاعقة ودفع الأريكة التي أجلس عليها فاهتزت بعنف.

ابتعد مرة أخرى والجميع واجم، ينتظر نهاية المأساة المعروضة أمامهم بكل هذه التفاصيل، وبكل هذا الألم والتحدي عند كلينا، عاد نحوي مرتجفاً وقال أشياء كثيرة لكنني لم أعد أسمع.. أريد الخلاص.. أخذت الكلمة تكبر في رأسي وتأخذ صوراً ملونة بديعة، كأنني فنان تشكيلي بارع. تتجمع على شكل صورة واحدة باهرة تملأ الوجدان.. الحرية.. أريد حريتي، يجب أن أحصل عليها، ليس عن طريق المنح أو الاستجداء سأحصل عليها لنفسي بنفسي.

امسكني من ذراعي وشدني بعنف، كأنما يريد اقتلاعي من مكاني، كأنه بهذه الحركة يرجني ليخرج مني أفكاري وقراري، عرفت أنه لن يتراجع، خفت أن أبكي فصرخت:

– لا تتعب نفسك سأذهب الآن دون عودة.

بدا الفزع واضحاً على الوجوه المحيطة ما عداه، وقف منتفخ الأوداج متكلف الابتسام رغم كل شيء كأن زمام أمور الحياة كلها بيده، زحفت أمي نحوي، اقتربت مني أكثر لتهمس في أذني مرة أخرى أشرت لها بيدي فتوقفت، قال أخي بصوت أجش:

– ستندمين يوم لا ينفع الندم.

اقترب فايز منه وهو مازال محتفظاً بالابتسامة ذاتها، وقال:

– لماذا لا تصدقون أنه خلاف عادي سينتهي على خير؟ لا تقلقوا.

انبسطت الأسارير دون أن يكلف أي منهم نفسه عناء التفكير، كيف ستستقيم الحياة بيننا بعد اليوم؟ استبشروا خيراً فمازال عازماً على تجاوز الأزمة، أثلج صدورهم إعطائي فرصة أخرى. كلامي واحتجاجي كله لا قيمة له ولا يخيف أحداً ولا حتى صاحب الشأن، بينما كلمة واحدة منه تنهي الموقف، تنهي حياة وتمنح حياة. استمعوا إليه بكل انتباه، ها هو يمنحني الفرصة وقد خيل إليهم أنها لم تعد موجودة. يريدون إقفال باب الحوار قبل أن يستفحل بين أخذ ورد ويصل إلى الطلاق.

الطلاق نعمة من الله في كثير من الأحيان، هو الخلاص وهو الحياة، ومع ذلك لا شيء يفزع الناس قدر الطلاق، لماذا يخافونه؟ انه أبغض الحلال عند الله لكنه ليس حراماً، ولم يشرع جزافاً. فيه الحل وإلا سيبقى أحد الطرفين أو كلاهما في شقاء دائم. يدرك الأهل كل ذلك لكن تفكيرهم ينحصر في أضيق مجال، ما الذي سيقوله الناس، وهو عندهم أهم مما يعانيه أولادهم، يخشون التساؤلات والنظرات أكثر من خشيتهم على حياة بناتهم أو أبنائهم. سمعت أمي مراراً تتحدث مع أختي وتنهي حديثها بمقولة لا تتغير ترى ماذا سيقول الناس عنا؟ كيف سيكون وضعها بعد ذلك؟ ولم تعطني فرصة لأشرح لها أنني أنا ابنتها أهم من كل شيء، فأجدها مضطربة تعتقد أنها بتعذيبي تتجنب الموقف قدر الإمكان. يجد الأهل تدخل الناس بألسنتهم الحداد أشد وطأة مما يعاني المتضرر، لأنه يعاني ما يعاني بعيداً عن أعين الناس، إبقاء الأمر على ما هو عليه وفي طي الكتمان، رغم الضرر، أهون ألف مرة من إحراج الناس وكلامهم.

أردت أن أبدد هذا الارتياح الذي كسا الوجوه ففاجأتهم قائلة:

– إن الزواج والطلاق رضا و قبول قبل أن يكونا ورقة مأذون وأنا أمام الجميع أعلن امتناعي عن الرضا و القبول.

ارتعدت أمي، قامت من مجلسها وجلست بجانبي، ربتت على كتفي، رفعت وجهي نحوها بأصابعها المرتجفة والمللمومة تحت ذقني بحب لا أشك فيه، تريد أن تتأكد مما أقول، وجدت وجهي جامداً، نظرت

نحو فايز تستمد منه الأمان، وجدته قد عاد إلى التحفز، امتلأت عيناها أسى تجاهه، فهو الرجل ويجب أن تجد له الأعذار بلمحة عين، إنها أمي وأعرفها جيداً، لم أرد على تحية الحب التي حملتها أصابعها المرتجفة، إنما أردت أن أرد على هذا التسامح الضعيف تجاه الضرر الذي أصابني وما زال، قبل أن تسألني توضيحاً قلت:

– صدقوني.. لا فائدة.

قالت أمي بصوت خافت:

– ما هذا الذي تقولينه؟ من يستمع لمثل هذا الكلام..؟ ثم إن البيوت يحصل فيها مثل هذا وأكثر وأنت نفسك تعرضت لأكثر من هذا لكنك تشبهين أباك كان يقيم الدنيا ويقعدها من أجل سبب بسيط بينما يتسامح في أشياء أكبر بكثير.

لم أجب بهمس كهمسها بل قلت موجهه كلامي إلى الزوج الواقف بصلف، يشد قامته وكأنه يظن أنها ستصل إلى عنان السماء:

– أمي تعتقد أن من حقك وحدك منح الرضا والقبول أو حجبهما، ومن حقك أن تمارس ما تريد لأنك حر.

ثم التفت ناحية أمي قائلة:

– صدقت يا أمي، إنني أشبه أبي في الكثير من طباعه، لم يكن في يوم من الأيام يقبل الخنوع، صحيح أنه كان يأخذ أقسى موقف إزاء أبسط أمر كما تبدو للعيان، ولكننا جميعاً نعرف أن صبره بلغ منتهاه وطفح الكيل ولا يعود ثمة مجال للمسامحة، ولأنني أشبهه هذا قراري الأخير.

قاطع فايز كلامي وهو يقترب ويتظاهر بالهدوء والاستخفاف:

–لم أفهم معنى أن تمتنعي عن الرضا والقبول.. هل ستطلقينني مثلاً؟

أطلق ضحكة صفيقة وشت بمقدار خوفه وقلقه لم تزدني إلا نفوراً وتصميماً على ما أريد قلت:

– لا أستطيع أن أطلقك كما تعرف، لكنني أمام الجميع أحرمك على قلبي لن تكون الإنسان الذي أمنحه حبي، أعني لن تكون الحبيب، قد لا أجد وسيلة إلا العيش معك من يدري لأنك كما قلت الرجل وكنت تعني بها السيد، الذي يعني البيت والأمان. هذا بيتك، لن يكون لي أكثر من محل إقامة، ولك الخيار بعد ذلك.

مرت الشهور وأقمت في البيت معه كأننا أغراب، كان معظم الأوقات في سفر ثم ترك البيت ولم يعد. بعد تلك السنوات العجاف في حياتي وبعد تلك الأزمة التي لم أحظ بحريتي كما أريد، بل كما يناسبه، شعرت كأنني واهنة كورقة ذابلة. الحزن وعدم الرضا اضنيا قلبي، بدأ عقلي يذبل وأخذ جسمي يحتج، والنفس كأنها شعلة تخبو، وصلت إلى حالة غريبة لا تحتمل، أعيش في الحياة كآلة صماء، لا أعرف معنى

لما يقيم حياة الناس ويقعدها، أصبحت أيامي حملاً ثقيلاً ملقى على كتفيّ، أشعر أنني مجبرة على حمله والسير فيه صعوداً كأنه عقابي.

صرت حين أرى الناس لا أحسهم، ولا أهتم بتساؤلاتهم، ولا أشارك في أي فرح أو حزن، ماتت أمي فلم أشعر بموتها، لم أحسه في حينه كما ينبغي، ابتسامة ساخرة ليست مني أبداً هي المرسومة على شفتيّ، أتعجب كيف تتصارع الناس من أجل أشياء اعتبرها تافهة، لا أقبل تبريرهم بقيم مادية تستذل الإنسان، الغنى المتعة، الثروة، العمل، النجاح، الحياة العائلية، كلها هذر في هذر، الحياة فعلاً لا تستحق أن تعاش.

لم أمارس عملاً إلا وشعرت أثناء مزاولته كأنه سكين باتر يقطّع أيامي بل دقائق يومي، ورغم ذلك كنت أستمر فيه حتى أسقط مريضة، مرضاً لا يترك لي مجالاً لمقاومته فأرضخ وأتغيب أسابيع ثم أعود، كانت السيدة امتثال ترعاني من بعيد، ففي كل عودة إثر كل غياب كانت توكل لي أعمالاً جديدة ثم أقرت لي راتباً شهرياً ثم بثت حولي مجموعة من الزميلات التي تعرف فيهن روح الصبر والمواظبة لكن شيئاً من هذا لم ينفعني. كانت تجالسني كثيراً وتحادثني طويلاً حول العمل ثم تسألني:

– هل تحببين العمل الذي تقومين به أم ترغبين في عمل آخر؟

أجيب إجابة واحدة لا غير:

– أحب العمل كثيراً، والعمل الخيري بالذات، لكن صحتي لم تعد تساعدني، لا أعرف ما أصابني.

كانت تصمت وان ظلت تراقبني عن بعد وتحاول أن توصل لي أن هذه الحالات المرضية التي تصيبني قد تكون ناجمة عن عدم الرضا عن حياتي الحالية، فأؤكد لها أنني أعيش أسعد أيام حياتي، كانت محاولاتها تلك تدفعني إلى التفكير على طريقتها أحياناً، فأخلو إلى نفسي وأتأمل، أجد أفكاري تسوقني إلى البعيد، إلى البحث عن أسباب أخرى للحياة كما أفهمها وكما أريدها، أجدني أبحث عن أشياء أخرى بعيدة عما هو متعارف عليه، تبدو لي غير واضحة، صعب وجودها، صعب منالها.

كنت أسعى بكل حرقة الأيام الحزينة التي عشتها بحثاً عن الحرية ودفعت لها ثمناً باهظاً، أحاول أن أعيشها حقيقة، أن أستثمرها بعد أن أصبحت بين يدي، لكني لا أعرف كيف. إذن، مم تحررت إذا كانت العلة كامنة في النفس، أصبحت تتبلور وتظهر على شكل صداع رهيب يكاد يحطم جمجمتي، ولا علاج أفادني. يا رب أين الطريق؟ افتح يا رب قلبي دعني ألمس أي جمال، أي خير، أي سبب لاستمرار الحياة. صرت أبحث بجدية أكثر فأرتد خائبة أكثر، ليس أمامي إلا عيون مملوءة بالشر والحقد مطفأة النور، نفوس يأكلها الطمع وكراهية أي امتياز في الآخرين كل ذلك ظل لفترة طويلة يقتل أي بوادر أمل يتحرك في أعماقي.

كنت أعيش ولا أعيش، لا أصلح لعمل أي شيء في الحياة، وتتوه البدايات وتختلط بالنهايات كلما أمسكت بزمامها. أقضي نهاري وحيدة تقتلني وحدتي، أوشكت على الجنون أغلقت أبوابي بوجه كل أحبائي وأصدقائي، ولجأت إلى العتم الشديد حولي، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يقهر صداعي. فترة حالكة من حياتي، كنت أتمسك فيها بالموت كحق أكثر مما أفكر في الحياة كواقع معاش.

الفصل الثالث

(1)

أصبح صداعي في تلك الآونة أشد من أقسى الأمراض، كنت حين تشتد وطأة النوبة أشعر بأنني في عداد الأموات، لم تعد تنفعني المسكنات، لم أعد أذكر كم عدد الحبوب التي أتناولها أثناء النوبة، في زيارتي الأخيرة للطبيب الذي كان يعالجني صارحني:

– لقد استنفذنا كل طرق العلاج، لم نترك صورة أشعة أو تحليلاً أو تخطيطاً لازماً للكشف عن أسباب شكواك إلا أجريناه ومع ذلك لا فائدة.

قلت بهلع:

– هل حالتي ميئوس منها يا دكتور؟

ابتسم بحنو أبوي وقال:

– لا داعي للخوف، إنه مجرد صداع، لكنني أعتقد أن سببه نفسي وليس عضوياً، ولذلك أنصحك بالذهاب إلى عيادة نفسية.

تراجعت بحركة لا إرادية وصحت:

– ماذا؟ هل أنا على وشك الجنون؟

اتسعت ابتسامته الطيبة و قال:

– يا سيدتي هذا مفهوم خاطىء.. كل إنسان بحاجة إلى طبيب نفسي حتى لو لم يكن يشكو أي ألم، والمرض النفسي مرض مثل أي مرض يلم بالجسم. هذا عنوان الطبيب الذي ستذهبين إليه، سأكلمه وأشرح له حالك وأرجو أن أطمئن عليك قريباً.

قال بتبسط وهو يقدم لي نفسه:

– أنا الدكتور جمال فايد، لقد اتصل بي طبيبك وشرح لي كل ما يتعلق بك صحياً، ولكن طبيعة عملي تختلف عن طبيعة عمله، وطريقتي في العلاج تختلف أيضاً، أريد منك أن تكوني صبورة ومتعاونة.

قلت والألم يفتك برأسي:

– أرجوك أن تخفف من صداعي ثم أكون رهن إشارتك في كل ما تريد معرفته.

قال وابتسامة حلوة تكسو وجهه:

– كوني صبورة كما قلت لك، الصداع عرض، يقول بمنتهى الصراحة إنك متعبة نفسياً، ولن نلجأ إلى العقاقير التي كما فهمت قد جربتها كثيراً، فهلا وثقت بي وتركتني أقوم بمهمتي وأعطيتني فرصتي لأحدد طبيعة العلاج.

قلت وقد انبسطت أساريري وتفاءلت خيراً:

– إذن أرجوك أن تسألني مباشرة واختصر الوقت أنا على أتم الاستعداد للمساعدة.

بدا فخوراً بمهنته، ودهش أنني أقدرها، فكلنا يعرف أن كثيراً من المرضى يصرّون على بقاء أمر علاجهم عند الأطباء النفسيين في طي الكتمان. قال ممازحاً:

– هل تعرفين أن الأطباء النفسيين أكثر الأطباء عرضة لتنكر مرضاهم لهم بعد الشفاء، وأنهم يتجاهلونهم حين يصادفونهم في أماكن عامة كأنهم المرض نفسه؟

قلت وأنا أحاول أن أساعده في محاولاته لتبديد جفاف المقابلة الأولى:

– ربما خوفاً من تذكر فترة حالكة في حياتهم ليس إلا.

كانت مقابلتنا الأولى بسيطة جداً، تخطينا فيها بسرعة كل الحواجز بيننا، ووضعنا اللبنة الأولى لعلاقة قوية استمرت سنوات، كان لي فيها الصديق والرفيق والمستشار المخلص، حتى اختلفنا يوم دخل ماهر حياتي وإن بقيت صداقتنا متينة لا يزعزعها أحد أو شيء.

تركني دقائق وعاد ومعه سيدة شقراء جميلة رشيقة قدمها الي قائلاً:

– الدكتورة ملك شحاتة، دكتورة في علم الاجتماع النفسي تساعدني في جلسات العلاج الجماعي.

تقدمت نحوي مادة يدها إلي قائلة:

– أهلاً فتون، أعتقد أننا سنكون أصدقاء بسرعة، فنحن أصدقاء في نادي المرض النفسي الجسدي حسب رأي الطب النفسي.

كانت تكلمني ببساطة وود كأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل، ورغم أن هذا التصرف جزء من طبيعتي البسيطة، أن يكون الانطباع الأول هو الانطباع الأخير، فإما أحب من كل قلبي وبسرعة وإما أن لا يترك في نفسي أثر شأن كل لقاء عابر. نظرت إليها أتفحصها في حذر، هل تعتبرني مجنونة أم تعتقد أنها تساير إنسانة ضائعة عن نفسها دون سبب؟ نقلت بصري بينها وبين الدكتور جمال الذي أسرع بدوره قائلاً:

– ستحبينها كثيراً.

أصبحت هذه العيادة الصغيرة عالمي، مرفأ أمان لي، كان هذا الإحساس يغمرني منذ أن تعرفت على الدكتور جمال وملك، لكنه توثق، ويصير أكثر توهجاً حين أدخلها، وكل مرة يستغرقني التأمل في كل ركن من أركانها، أريد التوصل إلى إيجاد تفسير لما أشعر به من راحة عجيبة تصل بي إلى حالة الاسترخاء الذي بت أفتقده منذ زمن طويل.

لقد توطدت العلاقة بيني وبين أشيائها، شدتني ألوانها الرمادية المختلطة بالبياض، أحاول أن أستشف معاني لألوانها، اللون الأبيض لون النقاء، لون الشفاء، لون السلام، لون مكتب الطبيب ومعطفه، مثل قلبه الذي يتسع لهذا الكم من آلام المتعبين، فيعيد إليها الطمأنينة. ستائرها وسجادها لونها الرمادي يعبر عن لون النفس الإنسانية حين ترهقها الحياة فتمرض، حين يختلط سواد الإنسان

ببياضه. أصبحت آمل أن يكون الوصول إلى مكان كهذا يعني بداية نهاية ذلك الخلط والعودة إلى الصفاء النفسي والذهني.

كنت أنتظر دخول الدكتور جمال في العيادة ذاتها بعد أن قرر إلحاقي بمجموعة العلاج الجمعي كما أخبرتني ملك. حين رأيته يدخل مبتسماً تأكدت أنه الوسيط الحميد بيني وبين نفسي وبين نفسي والدنيا، جلس كالعادة على المقعد المواجه لمقعدي، هادئاً مبتسماً، نظيفاً، منخفض الصوت، كثير الصبر، قوي الاحتمال.. أخذ يتكلم، يطرق كل المواضيع بسهولة ويسر، يلامس الذات المختبئة خلف هذا الكم من المتاعب والأوجاع. يسترخي فتنتقل العدوى إلي فاسترخي، أشعر بحبال المودة موصولة بيني وبين هذا الإنسان الجالس بهدوء المستمع باهتمام بالغ. ينطلق اللسان بالبوح حتى أشعر بأنني أتكلم مع نفسي.

مع تعدد الجلسات كثر الود سألته ذات مرة:

– أحس براحة كلما كنت معك، تستمر بعد أن أغادر فترة طويلة ثم تتحول إلى راحة عقلية تقودني إلى شيء من الأمان، أين دورك في ذلك وأنا الذي أتكلم في أغلب الأوقات؟

لم يرد بأكثر من ابتسامة وديعة، ونظرات أكثر ثقة وتألقاً، ربت يدي، حركة بسيطة لها معان كثيرة، واضحة ومفهومة، لا تترجم بل تحس.

كانت ملك تحضر جزءاً من الجلسة، تجلس على المقعد المخصص لها، وكثيراً ما تشارك في الأحاديث المطروحة، كانت الأحاديث عامة وشاملة. أحياناً كانت تتركنا فترة طويلة ثم تعود فأحس أنها تعمدت ذلك، وكان الدكتور يتركني أحياناً مع ملك ويغيب ثم يعود وكأن ذلك مدبراً أيضاً.

أما ملك فكانت وحدها عالم آسر غريب، حين تنفرد بي تحدثني عن كل شيء لا تنتظر مني رداً. كانت تسأل، وبسرعة تتكهن بالجواب وترد على نفسها، كانت حالة فريدة غير كل من عرفت. أحببتها فعلاً، وصرت أشاركها الحديث بمنتهى البساطة والصدق. بدأت أحس بوجودها كل مرة أكثر من المرة السابقة، أتأملها، ألاحظ ملابسها، طرازها، ألوانها، تناسقها، أشم عطرها، أتابع التعابير على وجهها. دهشت حين بدأت أعرف تفاصيل شكلها ما لم أره في لقاءاتنا السابقة، كانت بيضاء ملونة العينين، طويلة متناسقة القوام، تلون شعرها لتزيد من شقرته بطريقة فريدة رغم كراهيتي لمثل تلك التغييرات التي تحدثها النساء في أنفسهن بلا إتقان أحياناً، أحببتها بكل ما فيها، كل ما كانت تفعله أو تقوله أعجبني، ورأيتها جميلة وأنيقة أنا التي لا أستسيغ هذا الجمال الغربي حتى ولو كان حقيقياً.

كانت ملك نوع فريد من النساء، تعرف نفسها بقدر ما تعرف الآخرين، تحس بسعة معرفتها دون ادّعاء، تتدخل في كثير من الأمور بتلقائية محببة دون أن يحس من تتدخل في أموره بأنها تفرض نفسها، كأن ذلك من حقها، بل ويبحثون عنها إن غابت كأن من حقهم عليها أن تستمع وتساعد.

كانت تجالسني قبل دخول الطبيب، تصول وتجول في موضوعات متفرقة، ومع ذلك شردت بأفكاري بعيداً عنها، لامست يدي لتنبهني إلى أنني ابتعدت عنها كثيراً، ارتحت أمام بشاشة وجهها ورونقه وهذا الانسجام التام بين لون بشرتها الصافية ولون الملابس التي كانت ترتديها، نبهتني من شرودي متضاحكة لمنظري المشدوه. سألتني:

– ما أخبار صداعك؟ هل تحسن؟

عرفت أنها تعيدني أليها بالحديث عما يهمني، هززت رأسي بالنفي، ففي ذلك اليوم كان الألم على أشده، اقتربت مني أكثر ولامست رأسي بأناملها برقة متناهية وقالت:

– هناك طرق أخرى للعلاج، ما رأيك أن تجربي العلاج الجماعي؟

كان الدكتور جمال قد طرح عليّ السؤال ذاته فلم أتحمس له، فهمت أنه قد ترك الأمر للملك، ابتسمت مقدرة لها تطوعها لمساعدتي، حاولت الرد فلم أستطع، شعرت بحزن عميق لأنني في الحقيقة أرفض الفكرة لعدم رغبتي في التواصل مع الناس، حملت لها ابتسامتي المزيد من الأسى، رأيت التأثر بادياً على وجهها قالت بحب حقيقي:

– لماذا أنت حزينة هكذا. ماذا في الدنيا يستحق هذا الحزن والعذاب؟

لم أرد ولكن طفرت دموعي الحبيسة كل تلك الأسابيع حين طغى الأمل على اليأس وجدت فرصة متاحة للتنفيس عن حزن السنين المخزون قالت:

– اعذري فضولي، يبدو أن سؤالي أثار شجونك، لاحظت حزنك منذ البداية ولكن لم أكن أعرف انه بهذا الحجم لأنني اعتقدت أنه الألم، وكلنا ذلك المتألم بطريقة أو بأخرى، ولكن الحزن بهذه الطريقة لا، وألف لا يافتون، جربي العمل لنفسك أو للآخرين.

سألتها وكأن صوتي يأتيني من غيبوبة:

– وهل شفيت من آلامك حقاً؟

قالت وهي تتضاحك:

– عرفت أنك ستسألين هذا السؤال إذ كيف أدعوك إلى طريقة علاج أمارسها ومازال الألم يعاودني؟ في الواقع أن الألم مازال، ولكن أصبح أقل وطأة، وأكثر تباعداً، وأصبحت أقدر على التحمل دون هذا الحزن، أعني أن المساعدة في إزالة أسباب الحزن والتوتر، تفيد في تخفيف الألم مستقبلاً، هل تمانعين أن تتعرفي على مجموعتنا؟

قفز قلبي بين ضلوعي خوفاً وأنا أقول:

– أشكر لك اهتمامك لكني لا أحب أن أفرض نفسي أو أعرض مشاكلي وأوجاعي أمام جماعة لا أعرفهم ولا تربطني بهم أي رابطة.

صمتت قليلاً وقبل أن تهم بالشرح مرة أخرى، استجمعت أفكاري ومشاعري الحقيقية واستطردت:

– لست من أولئك الناس الذين تهون عليهم مصائبهم إذا ما رأوا مصائب الغير، على العكس إنني أحمل مشاكلهم فوق مشاكلي وأحياناً أفكر فيهم أكثر مما أفكر بنفسي.

صفقت بيديها وصاحت في طرب وكأنني ساعدتها على إصابة الهدف:

– عظيم هذا هو المطلوب، بل هذا هو الهدف الأساسي من العلاج الجماعي. أرجو المعذرة لاندفاعي فشعوري صادق وصريح، أريد لك أن تخرجي مما أنت فيه، فخسارة كبيرة أن تظلي على تلك الصورة من الخواء مع أنك تملكين الكثير.

افترقنا على وعد مني بأن أفكر بالأمر وأختار، إلا إنها اتصلت بي هاتفياً بعد يومين وبطريقتها الهجومية في الكلام التي عرفت فيما بعد أنها عادتها قالت:

– هالو فتون.. أنا ملك، لقد سمحت لنفسي بأن أخابرك وأفرض نفسي على فنجان قهوة صباحي، هل تستضيفينني بعد ربع ساعة من الآن؟

قلت بطريقة آلية:

– أهلاً وسهلاً. عنواني..

قالت ضاحكة:

– لا تتعبي نفسك، لقد عرفت عنوانك أيضاً، سأكون عندك بعد ربع ساعة، إلى اللقاء.

أقفلت السماعة قبل أن تسمع كلمة أهلاً التي قلتها كما يقول المغلوب على أمره، لا حول له ولا قوة، لم أندم على صداقتها بعد ذلك أبداً.

هكذا تعرفت على أخلص صديقة في حياتي، واستطاعت ملك برجاحة عقلها وقوة منطقها أن تكسب ثقتي ومحبتي. كنت كلما عرفتها أكثر أحببتها أكثر، كنت قد سمعت لمحات عن معاناتها في حياتها وأعجبت أن معاناتها زادتها قوة وقدرة. في زيارتها الصباحية وعلى فنجان القهوة الساخن ولدت محبتنا، وجدت نفسي دون مقدمات في جلستي معها امرأة عادية كما كنت، أسمع وأشارك وأحب. وأوافق على المشاركة في مجموعة العلاج الجماعي.

(2)

خرجت من البيت تلبية لدعوة إلى العشاء وجهتها ملك لي وأسمته عشاء التعارف بيني وبين زوجها. كنت في شوق ولهفة تدفعني لرؤية ملك وزوجها وبيتها، كان خروجي قبل الموعد بنحو ساعة فقد كان عليّ أن أمر في طريقي إليها لإحضار الورود التي وقع اختياري عليها كهدية بمناسبة زيارتي الأولى، كنت حريصة على احترام موعدها فهذا شيء يسعدها ويرضيها، وهي تقيم الناس بمدى حرصهم على مواعيدهم واحترام من ينتظرهم، انطلقت تاركة نفسي على سجيتها أتمهل في الطريق متجاوبة مع نغم خفي أسمعه في أعماقي فأشعر بفرح قل ما أشعر بمثله.

أخذت الطريق الطويل المؤدي إلى خارج المدينة ليعود ويلتف داخلاً إليها مرة أخرى من طرفها الشرقي. كان الطريق خالياً تقريباً كعادته في مثل هذا الوقت، بدا الجو لطيفاً بعد موجة الحر التي اجتاحت المدينة في ذلك الفصل الصيفي من السنة. تذكرت أنني سألتقي الليلة شاعراً وفناناً لا بد أن يسمعنا بعض عزفه وشعره، وخصوصاً ما أبدعه عندما تفجّرت أحاسيسه ووقع في غرام ملك. مددت يدي أحاول الوصول إلى أشرطة الراديو الموجودة في الجيب الأمامي من السيارة باحثة عن واحد بعينه، أخيراً نجحت في استخراج ما أريد، تمنيت أن تكون أمسية جميلة مع هذين الزوجين المختلفين عن الناس العاديين الذين نصادفهم معظم الأوقات، دفعت الشريط في آلة تسجيل السيارة، هدأت السرعة وانطلق الصوت العذب يحمل الخدر والهدوء الفرح، يتساءل تساؤل الموقنين المعانين "هو صحيح الهوى غلاب".

كم أحب سماع قصص الحب رغم أنني قليلاً ما أصدقها، عذري أنني لم أجربها، فلا يعرف قيمة تلك المشاعر إلا من عاشها، حتى وإن أفرحته بقدر ما أتعسته، يقولون إن الحب لا يكتمل دون هذين الشقين. غيرت اتجاهي وانطلقت مسرعة بعض الشيء بعد عرجت على محل الورد وحملت باقتي الجميلة المعدة برونق أخاذ، لا بد أن أصل خلال دقائق.

حين وصلت إلى المنزل الواقع على إحدى زاويا شارع الزهور المتقاطع مع الشارع الرئيسي عرفته على الرغم من تشابه البيوت الأربعة المحتلة الزوايا، كانت فيلات صغيرة تحيط جهاتها الثلاث حدائق بيتية معتنى بها، والجهة الرابعة محددة بسور للبيت المجاور له. كان بيت ملك بيتاً متميزاً ليس بالتصميم ولكن بتنسيقه الخارجي، وقفت أمامه أنظر إليه بشيء من الفضول، كل شي كان يوحي بذوق رفيع وببساطة متناهية، فجأة فتح الباب على مصراعيه وتقدمت ملك نحوي تضمني قائلة:

– لقد وصلت أخيراً، العنوان سهل أليس كذلك؟ رأيتك من الداخل تتلفتين حولك خشيت أن تظني نفسك تائهة فأسرعت إليك.

قلت ضاحكة:

– تائهة؟ كنت سأعرف بيتك حالما أصل إلى التقاطع، ليس لسهولة العنوان فقط، بل من بصمات ذوقك على كل متر حول البيت، وهكذا تدركين أنني كنت أتأمل مدخل جنتك بإعجاب، فأحسست بتفرده مقارنة بما حوله.

سحبتني من يدي متراجعة إلى الخلف وهي تتكلم بمرح كعادتها، تناولت ورودي الجميلة، واحتضنتها كأنها أجمل وأثمن ما في الوجود، فنثرت حولي باقات من المجاملات الرقيقة عن الذوق والإحساس، حتى اضطررت إلى إسكاتها بوضع كفي على فمها وهي الطريقة المحببة التي أقوم بها حين تبدأ تسأل وتجيب لتعود وتسأل من جديد كعادتها.

كل شيء حولي يحرك الفضول لرؤيته عن قرب، أجلستني في الصالون الرئيسي، كان من الطراز القديم وقد جدد تنجيده بألوان جذابة وعصرية، تابعت ملك وهي تتجه إلى المطبخ، كان على يساري غرفة جلوس أخرى، طرازها حديث وبسيط مقاعدها متلاصقة كخطين مستقيمين يلتقيان في زاوية واحدة قائمة. تختلف عن بقية أثاث الصالون الذي أجلس فيه، أعتقد أنها غرفة سهرات العائلية لمشاهدة التلفزيون أو الاستماع للراديو والموسيقى التي يهواها كل أفراد العائلية. كل شيء مرتب بعناية ونظام وأناقة، فالألوان المتداخلة آية في الانسجام والرقة، بعد تلك الجولة السريعة عدلت جلستي، أحسست بمقدار محبتي للجمال أينما كان، وليسر الحال أيضاً، استراحت نفسي في هذا الجو المريح، والوقت المناسب، فالمساء وقت محبب إلى نفسي، أعتبره أفضل أوقات اليوم كله، فمع قدوم المساء تسطع الأنوار الكهربائية تشع ألواناً ذهبية رائعة تزيد من فتنة المكان، أحب هذه الأنوار سواء كانت متدلية من السقوف على شكل ثريات أو كانت جانبية كما هي الآن حولي.

عادت ملك تحمل صينية عليها كوبان من الشراب المثلج، وجدتني لم أزل في مكاني قلت وهي تنحني قليلاً لأتناول العصير:

– ما هذا الجمال البسيط الفخم؟

قالت ضاحكة:

– أهذه أحجية، ففي الجملة شيء من التناقض؟

قلت أفلسف الأمور على طريقتي:

– إنني أعنيها كما هي، أليس في اللغة العربية شيء اسمه السهل الممتنع؟ إن ما حولي يشبه هذا التعبير.

نظرت حولها برضا ثم قالت وهي تشير إلى الجدار خلفي:

– ظننت شيئاً مثل هذا الجدار التاريخي سوف يلفت نظرك أكثر من أي شيء آخر.

التفت للخلف حيث أشارت، كان الجدار يلفت النظر حقاً ومع ذلك لم ألحظه، فقد رصت عليه إطارات بداخلها صور لملك قديمة بالونين الأبيض والأسود، كانت إطاراتها متساوية في الحجم متشابهة

باللون وطريقة التنسيق، كان الجدار هو الجدار الوحيد السليم في الغرفة بينما بقية الجدران مقسمة إلى مداخل وأبواب وديكورات، قمت من مكاني مقتربة من الجدار التاريخي كما وصفته وقفت أمامه لا أعرف من أين أبدأ، قالت:

– سأتركك مع هذا الصرح وسأذهب لأخبر حسان بأنك وصلت. عن إذنك.

نظرت مرة أخرى عن قرب وبشكل سريع كان على الحائط صفين متتالين من الصور، الصف الأول يحتوي على مجموعة صور تبدو فيها ملك طفلة صغيرة في ملابسها المدرسية، بينما المجموعة الأخرى تمثلها في مراحل دراسية تالية، وبعضها خالية من الصور ولكنها تحمل أرقاماً قدرت إنها سنوات مهمة في حياتها.

دخلت علي في اللحظة ذاتها التي كنت أستعد لبدء جولتي بالتسلسل الموضوعة فيه، اقتربت مني وبدأت تشرح لي، تألقت سعادة من نوع خاص في العينين الصافيتين. هذه صورتي وأنا في المدرسة الابتدائية، وهذه في السنوات المتوسطة، أخذت لنا هذه الصورة ونحن في رحلة كشفية أيام كان كل شيء يفرحنا ويدهشنا، هل ترين ضفائري المجدولة هاربة من تحت القبعة الكشفية؟ وهذه في نهاية العام الدراسي لشهادة الثانوية العامة قبل الامتحان. توقفت لحظة، تنتظر تعليقاً ما، لم أجب بأكثر من ابتسامة مودة ونظرة تشجعها على الاستمرار استجابت فوراً، وابتعدت إلى الخلف قليلا قالت وهي تشير إلى واحد من الإطارات:

– قد لا تستطيعين رؤيتي بوضوح هنا، فأنا هذه التي ترتدي معطف التخرج واقفة بين زميلاتي وبين أهالي الطلبة قبل بدء الاحتفال، ولكن هذه الأخرى أوضح، فقد أخذت عن قرب حين كنت أتسلم شهادتي الجامعية بتفوق مما أهلني للصعود مرتين على المنبر، المرة الأولى مع المتفوقين، والأخرى حسب ترتيبي الأبجدي لأتسلم شهادتي، يومها بشرني عميد الكلية حين صافحني قائلاً "أن لك مستقبلا باهراً إذا أكملت دراساتك العليا" ثم طلب مني مراجعته بهذا الشأن بعد أسبوع. طبعاً لاقيت معارضة شديدة لأسباب كثيرة منها أنني فتاة لا أصلح للغربة وثانيا واعتقد أنه الأهم ضيق ذات اليد، وأن أرسلت في بعثة.

حين انتهت من التعليق عليها واحدة بعد الأخرى، وجدتها تجاوزت تلك التي تحمل أرقاماً، توقفت ورشفت عصيرها بتلذذ فقلت وأنا أشير إلى الإطارات المرقمة:

– ماذا تعني هذه الأرقام؟

ضحكت وقالت:

– هل ترين؟ لقد تركتك تخمنين ثم تسألين، هذه التي على يمينك سنة حاسمة وفاصلة في حياتي، عليها تاريخ السنة التالية لحصولي على شهادتي الجامعية وابتداء مرحلة العمل، بعد عدة شهور في السنة ذاتها فاجأنا بالزيارة خال لأمي مقيم في المهجر منذ بداية شبابه حتى عاد لنا كهلاً. استغرقت زيارته لنا

شهراً كاملاً، لكن مع انتهاء زيارته كان قد تعلق بي، فطلب من أمي وأبي أن يسمحا لي بالذهاب معه إلى أميركا لأكمل دراستي، في البداية استهجنا ذلك ولكنهما وافقا أخيراً، لا أدري إن كان ذلك من باب الشفقة عليه إذ كان بلا ذرية، فأراد أن يعتبرني مثل ابنته كما قالا، أم كان طمعاً في ثروته مستقبلاً، وقد آلت إليّ فعلاً منذ سنتين تقريباً، أم أن القدر كان يرسم خطوط حياتي دون أن أتدخل. ذهبت... هذه كما ترين بعدها بسنتين حين تقابلت مع حسان أول مرة وأحببته ذلك الحب الطاغي الذي أطاح بصوابي وبكل رغباتي وأحلامي، وأصبح الوجود لا يعني شيئاً إذا بقيت بعيدة عنه، أما هذا فتاريخ العام الذي بدأ نجم حسان يهوي من سماء فنه وعبقريته ومن حياتنا العاطفية أيضاً.

وهذا الإطار الأخير المنفرد يحمل تاريخاً جديداً وقريباً جداً، منذ ثلاث سنوات تقريباً، هو تاريخ السنة التي حصلت فيها على شهادة الدكتوراه بعد عودتي إلى أميركا اثر أزمتنا الزوجية التي أجبرتنا على أن يذهب كل منا في طريق. لاحظي الفرق بين الأعوام المهمة في حياتي، تجدين الفرق بين تاريخ زواجنا وتاريخ بداية الهموم التي تراكمت علينا، وبين تاريخ حصولي على الدكتوراه سنوات طوال تقرب من العشرين سنة.

بحركة عصبية تركت المكان، تبعتها وجلست مكاني، بينما وقفت بضع ثوان قبل أن تعود إليّ حاملة سلة الشيكولاته الفضية، قدمتها لي فأردت مساعدها في تغيير مجرى الحديث، أشرت إلى بيانو كبير كان رابضاً في إحدى الزوايا، قطعة فنية رائعة بلونه الأسود اللامع المتميز فقلت:

– إنه قطعة فنية رائعة، ترى أتجيدين العزف عليه؟

قالت بأسى ظاهر:

– أعزف عليه بشكل جيد، ولكن حسان بارع في العزف.

نظرت إلى البيانو وكأنها تراه للمرة الأولى وقالت:

– كان ذلك منذ زمن طويل، كان حسان بارعاً بكل شيء حتى حين أوقعني في الحب أنا التي لم أفكر بأي شيء غير مستقبلي العلمي والعملي.

– كيف ذلك؟

تنبهت، لقد تسرعت، لعلها لا تحب أن تتذكر شيئاً مثل هذا، حاولت تدارك الخطأ:

– آسفة، لا داعي للحديث إذا كان في الأمر ما يضايقك أو يزعجك.

وجدتها تأخذ وضعاً أكثر راحة في جلستها، رفعت ساقيها الطويلتين وطوتهما تحتها واحتضنت واحدة من الوسائد الكثيرة المختلفة الألوان والأحجام المتناثرة على الأرائك لتزيد من جمالها وتزيد من راحة الجالس عليها، أسندت ساعدها على مسند الأريكة ووضعت كفها تحت ذقنها وقالت وابتسامة ليس لها معنى محدد تغرق وجهها، كانت خليطاً من الحب والأسى والحزن والتعود:

– حسان فنان بكل معنى الكلمة، شاعر وأديب، رسام وموسيقي، لكن أحب مهنة له هي الكتابة، وأحب هواية هي الموسيقى، لم يكمل تعليمه، ولكن ما كان ذلك ليقف حجر عثرة في طريق نجاحه على أي صعيد فني يحبه، إلا أنه عنيد، لا يتنازل عن أي معتقد ولو أدى ذلك إلى خسارة فادحة.

– تقولين لم يكمل تعليمه، فماذا كان يفعل في أميركا؟

– لقد ذهب ليتعلم، ولكنه لم يستطع الاستمرار لموت أبيه وانقطاع المصاريف عنه، ابتدأ يعمل في مجال الموسيقى ليعيش، ثم اكتشف أحد أصدقائه موهبته الأدبية، فعرّفه على لطفي عباس الأديب المعروف في المهجر، وصاحب المجلة الأسبوعية والجريدة اليومية اللتين تحملان اسم الامتياز اللتين تصدران في نيويورك، وتوزعان الأعداد اليومية والأسبوعية على أنحاء أميركا وبقية أنحاء العالم تقريباً، تدرب على يديه، وأصبحا صديقين حميمين، ثم شريكين، حين تم إنشاء فرع جديد للمجلة والجريدة هنا، وقع الخيار على حسان للعودة إلى عالمنا العربي، كان ذلك بعد زواجنا بما يقارب العشر سنوات، لذا تركنا أميركا، وعدنا ومعنا توأمانا، بنت اسمها وجد، وأخوها اسمه مجد.

أحزنها التذكر، فقد لمحت دموعاً في عينيها، لكنها حبستها لظهور حسان، اقتر ب مني محيياً:

– أخيراً تعرّفت على من تشاركنا حياتنا دون أن أعرفها شخصياً، أهلاً وسهلاً.

قلت أرد التحية بأحسن منها:

– وأخيراً لقيت الإنسان الإنسان الذي نفتقده في أيامنا المحمومة.

قال ضاحكاً:

– هذا كثر علي، في الوقت الحاضر على الأقل. الحياة كثيراً ما تصوب ضربات قاصمة وعشوائية فيختل البناء. على كل حال سنتحدث كثيراً وطويلاً أثناء العشاء، والآن أتركككما تستمتعان بالحديث ريثما أنهي بعض الكتابات المستعجلة. إلى لقاء.

انحنى مرة أخرى بكل أدب، حياني وقبّل زوجته برقة، ثم تركنا إلى عمله.

قلت بعد ذهابه:

– كيف تعرفت عليه؟ يبدو فعلاً أنه ليس من السهل استمالته.

قالت:

– كان لمعرفتي به قصة طريفة، ابتدأت بشجار، وانتهت بحب جارف قوي أطاش صوابنا.

تحرك تشوقي إلى سماع قصص الحب وخاصة التي تأتي فجأة بترتيب من القدر، قلت ولهفتي واضحة في وجهي وصوتي:

– احك.. وبالتفصيل.

قالت وقد انتقل إليها الانفعال، فأشعل وجهها وزادها بهاء وجمالاً:

– كان خالي وخالتي هكذا أصبحت أناديهما بعد أن أقمت بينهما منذ وصولي إلى أميركا، شديدي الاهتمام بي وبكل ما يتعلق بأي شأن من شؤوني، عاملاني كأنني ابنة حقيقة لهما، ذات يوم سألني خالي ببساطة متناهية:

– متى ستباشرين ممارسة هواياتك؟ لا يجوز إرهاق النفس بالعمل المتواصل.

قلت متسائلة:

– أي هوايات! ليس لي أي هواية.

قالت خالتي وكانت أمريكية مستعربة:

– لا أصدق! فالإنسان يحبط ويمل ما لم يمارس شيئاً من اللهو المفيد إلى جانب مهمات حياته الأساسية.

قلت:

– لم أجد الوقت والمال الكافي للقيام بأي نوع من الهوايات، فهناك في بلادنا، يعتبر الآباء أي شيء غير دراسة الكتب المقررة مضيعة للوقت وللجهد.

قال خالي:

– لا، هنا شيء مثل هذا يعتبر غير طبيعي، كل طبقات الشعب تمارس هوايات حتى من لا يملكون المال الكثير، فهواية القراءة أو المشي الطويل بقصد التريض تصبح مع الأيام عادة، والتنزه في الحدائق العامة عادة، هناك السينما والمسرح وكثير من الأماكن التي تروح عن النفس دون تكلفة. سأساعدك لتكتشفي هوايتك. لنبتعد عن أجواء الكتب فيكفيك كتبك الدراسية. ماذا تحبين من أنواع الفنون أو الرياضة على سبيل المثال؟

– لا أمارس من الرياضة إلا المشي، أما الفنون فأنا أحب الموسيقى كثيراً.

– عظيم! على أي آلة تعزفين؟

– الحقيقة لم أجرب أن أعزف على أي منها، ولكنني مستمعة جيدة، أستطيع أن أميز بين موسيقى وأخرى وبين آلة وأخرى، لكن البيانو أحب آلات العزف إليّ، أحس كأن بعض أوتاره مشدودة إلى أوتار موجودة في نفسي.

– اعتبري نفسك منذ الغد طالبة في معهد موسيقي، ولك أن تجربي حتى تتوصلي إلى تعلم ما يناسب ذوقك وحسك الفني.

انتظمت بعد طول جهد منهما، وبدأت فعلاً أتقدم في العزف على البيانو وأصبحت الرغبة هدفاً، أحببت أن أتقن هذا الفن الرائع، فانتظمت بعدئذ دون ترغيب من أحد.

التقيت حسان بعد عام من التحاقي في المعهد، كان يعمل فيه كأستاذ لتعليم البيانو، يشارك في الحفلات السنوية التي يقيمها المعهد في بداية الموسم الموسيقي الذي يبدأ عادة في شهر سبتمبر من كل

عام، وينتهي في شهر يوليو حيث يتم تخرج الطلبة الذين تجاوزوا الامتحانات النظرية وشاركوا بشكل فعلي في حفلة آخر الموسم.

في ذلك الوقت كان علي أن أشارك في بداية الحفل بمقطوعة موسيقية صغيرة ريثما يهدأ الحضور ويستقرون في أماكنهم، كنت متوترة، وقد أشار عليّ مدربي بأن أختار معزوفة الفالس التي أحبها وأتقنها تقريباً، طلب مني أن أحضر مبكرة بنحو ساعة أو أكثر لأعيد التدريب عليها حتى أتغلب على مخاوفي، وفعلاً حضرت قبل الموعد بساعتين، واتجهت مباشرة إلى الغرفة التي أتدرب فيها، فوجدتها مغلقة لقد نسي أن يتركها مفتوحة، أو لعله قرر الحضور وعلي الانتظار، مضت نصف ساعة ولم يحضر، فأخذت أبحث عن غرفة غير مشغولة، وجدت صالة واسعة جداً ليس بها سوى بيانو كبير الحجم، اقتربت منه بوجل، فتحته، شعرت برهبة حقيقية منه، ومع ذلك جلست أمامه وابتدأت العزف.

فجأة انتصب أمامي رجل، بدا مثل تمثال حي، جامد النظرات والقسمات، حتى محاولتي الابتسام للتحية ماتت قبل أن تكتمل، لم يكن الوجه غريباً علي فكثيراً ما لمحته في المعهد، توقفت عن العزف، انتظرت منه أن يلقي علي التحية، أو يسأل أو يقول أي تعليق، خطر ببالي الكثير إلا الشيء الذي قاله بتلك الطريقة الفجة، التي أقل ما يقال عنها بأنها لهجة خالية من أدب الحديث بين أثنين لا يعرف أحدهما الآخر، فقد صاح بنزق:

– ما هذا يا آنسه، إن عزفك رديء للغاية.

قلت ببساطة لأبدد الجدية البادية على وجهه والحرج الذي تركه في نفسي:

– أعرف، لكنني ما زلت في مرحلة التعليم.

قال وقد عقد ما بين حاجبيه:

– منذ متى تمارسين هذه الهواية؟

قلت بصوت هادىء كأنني تلميذة خائبة:

– يعني! منذ سنة تقريباً.

– أنصحك بأن تحولي اهتمامك لأي نشاط آخر.. فأنت على أحسن تقدير ستبقين عازفة رديئة حتى بعد عشر سنوات.

تسمرت في مكاني مذهولة، ليس من حقه أن يخاطبني بهذا الأسلوب الجارح مهما كان عزفي سيئاً، قلت بصوت مرتجف غاضب:

– من أنت حتى تبدي رأيك في شيء يخصني دون أن أسألك ذلك؟

قال ساخراً:

– إنه الحق العام.. فأنت تشوهين شيئاً جميلاً كلنا نحبه، أما من أنا، إنني محب للموسيقى مثلك إلا أنني عازف جيد، على فكرة لك أصابع طويلة وجميلة تصلح للعزف، ومع ذلك أكرر نصيحتي بأن تجدي مجالاً آخر.

مشى وتركني أغلي من الغضب، فخبطت على أصابع البيانو بجمع يدي، محاولة التنفيس عما اعتراني بسبب تطفله، فعاد وأبعدني عن البيانو، وأغلقه بمنتهى الرقة وكأنه يعتذر إليه، نظر إليّ طويلاً كأنه يراني للمرة الأولى فقلت بجفاء لا يقل عن طريقته في المعاملة:

– يؤسفني أن أخبرك بأنك أبعد ما تكون عن الكياسة والذوق، حتى وإن كنت أشهر عازفي هذا الزمان.

صمت ونظرت إليه بتحد، لم ألحظ أي ردة فعل تنم عن غضب أو امتعاض، ازداد غيظي فقلت بهدوء مصطنع:

– على فكرة يا أستاذ، إن هذه الفظاظة التي لا تحسد عليها لا تنسجم والفن بحال، فأنا أتحداك أن تكون حتى مجرد عازف تحت التدريب.

لم أثر غضبه كما تمنيت، فقد عاد إلى البيانو، فتحه بنفس الرقة التي أغلقه بها، وجلس على الكرسي بمنتهى الهدوء كمن يتهيأ لجلسة طويلة، وبدأ يعزف وهو ينظر إلي متحدياً، ثم لانت نظراته ورقت قسماته، وانسجم مع اللحن، أصبح جزء من اللحن، أصبح اللحن صوتاً أثيرياً قادماً من السماء، أثر في نفسي أبلغ الأثر فهدأت، نسيت نفسي ونظراته تلتقي بعيني بين فينة وأخرى حاملة مع التحدي روعة الثقة والجرأة.

كان شكله فاتناً بملابسه الرسمية السوداء وشعره الفاحم الذي كان يتراقص مع اللحن، ما أجمل أن يعزف فنان قدير متمكن لي وحدي، انتشيت، كأنه ملاكاً نزل من السماء، ليقول كلاماً في الحب بهذه الوسيلة الرائعة.

حين انتهى من العزف، بقيت على جمودي، سمعت تصفيقاً في القاعة، وجدت جمعاً من طلبة المعهد قد اقتربوا وتجرأ بعضهم فدخل القاعة التي عرفت فيما بعد أنها تخصه، لا يدخلها أحد إلا بإذن خاص منه. أخذت أنقل بصري بين الجميع كأنني أنا التي تستحق التهنئة، فهذا الفنان يخصني، وأنا من حرك فيه هذا الإبداع اليوم، امتلأت نفسي فخاراً حين وقف وتقدم مني، وانحنى بكل احترام أمامي وهو يقول:

– آسف لما بدر مني، وتكفيراً عن ذلك أضع نفسي في خدمتك إذا كنت ما زلت مصرة على التعلم.

خطا للأمام بضع خطوات بساقيه الطويلتين حتى كاد يغيب عن نظري وسط وجوه الطلبة الذين ما زالوا يصفقون وفي عيونهم نظرات انبهار لا تخفى، فجأة رأيته قد أزاح رؤوس الواقفين أمامه، وأطل برأسه من بينهم، وهو يقول:

– سنخلق سوياً سيمفونية رائعة.. يجب أن أراك أثناء عزفي هذه الليلة، وانتظريني بعد الحفل إلى لقاء قريب.

انسحب كما ظهر، لم يعبأ بهذا الحشد ولا بنظرات الانبهار والفضول بعد ما قاله. عرفت من بعض أحاديثهم اسمه، إنه الفنان المبدع الشاعر والأديب حسان فارس، كان أكثر الواقفين أمامي من طلبته، خرجنا سوياً إلى الصالة التي سيقام فيها الحفل.

كان واقفاً وسط الجميع، ينسق الفرق ويراقب اللمسات الأخيرة على كل صغيرة وكبيرة، كل ذلك في وقت واحد، دون أن ينسى البحث عني كلما انتقلت إلى مكان جديد، كم كان رائعاً تلك الأمسية، سمعته بكامل وعيي، كأنني أعرفه منذ الأزل، ولا أكون مبالغة إذا قلت أنني سمعته بقلبي، غادرت المكان دون أن أنتظره كما طلب مني، ولكني بعد ذلك لم أترك أمسية موسيقية أو شعرية له إلا وأنا في مقعدي الذي خصصه لي أمام عينيه.

حين سكتت وجدتني هادئة منتظرة منها المزيد متكومة على الأريكة تماماً مثل جلستها، قالت ضاحكة:

– يبدو أن الحكاية أثرت فيك كثيراً.

قلت متنهدة بحرقة:

– جداً.. ذكرتني بالحكايات التي كانت تحكيها الجدات عن ست الحسن والشاطر حسن، آسفة فاسمه في هذا العصر حسان فارس.

لم أتم جملتي حتى ظهر حسان من جديد، نظرت إليه بناء على ما علق بخيالي من حديث زوجته قبل قليل، بدا وسيماً بالفعل، رشيقاً فارع القامة، ربما يماثلها طولا بل أطول قليلاً منها، أسمر اللون، مصففاً شعره المختلط سواده القليل ببياضه الكثير بطريقة جذابة، وشارب معتنى به على طريقة ممثلي هوليوود في فترة ازدهار السينما، مرتدياً بنطالاً رمادي اللون وفوقه كنزة خمرية اللون بقبة عالية أخفت رقبته، منحته شباباً مع أنه تجاوز الخمسين.

مد يده ليساعدني للنهوض إلى العشاء، كم هو فنان ورقيق، ناولته يدي، شعرت براحة يده مسترخية قوية وواثقة، بضع خطوات وتوقف، سحب الكرسي بعيداً عن مائدة الطعام وأجلسني، ثم عاد وساعد زوجته على الجلوس. نظرت نحوه أريد أن أعلق على هذه العادات الأوروبية التي تعجبني كثيراً، حين التقت عيوننا لمحت في عينيه أسى وحزناً لا يوصف، فسكت ولم أعلق، شدني هذا الإحساس الرائع بالحزن فوق ما يتخيل بشر، والمفارقة العجيبة أن ابتسامته التي تبدأ وقورة، غالباً ما تنتهي بضحكة لها

وقع غريب على النفس، فهل هي ضحكة فعلاً؟ أم محتوى لعذاب يتسرب من النفس رغم الأنوف الشامخة؟

تحدثنا كثيراً، وعن كل شيء تقريباً،ثم أدار الحديث بشكل جدي وفلسفي مما غير مجرى ومعنى الجلسة التي كانت مجرد متعة، توثبت العقول وتألقت العيون أنصتت الآذان، أصبحنا وجهاً لوجه مع مفكر لا يعرف الهذر في حياته، أدركت فعلاً مأساة ملك مع هذا الزوج والحبيب والإنسان. لقد بهرني واستحوذ على إعجابي وتقديري ومحبتي، لكن من يستطيع أن يتعايش مع هذا الأسلوب في الحياة في كل ساعات الليل والنهار؟ انتهاج أسلوب جاد في كل أمور الحياة يعطي للحياة صبغة بالغة الصعوبة لمن يعايشوهم، مع ذلك هل نستطيع أن نذمها أو نتخلص منها بالتجاهل أو بالهروب؟ إنها نعمة بقدر ما هي نقمة.

أردت أن أغير مجرى الحديث وأحوله إلى الحديث عن نفسه، تساءلت بشكل عام إن كانت الحياة الجدية تجدي أكثر مما لو أخذناها بشيء من التبسط فأجاب بإسهاب:

– أي جدية تعنين، أهي هذه الأقوال؟ أي تبسيط للأمور تقصدين أهو هذا التسطيح والاستهانة بها؟ إن الجميع يجد وراءها ويفتتها ليعرف كنهها. بالنسبة لنا كعالم مسحور بالسلبية والاتكالية، نستطيع أن نجزم أن عصر الجدية ليس لنا، لا طاقة لنا به، سنبقى نعيش ملهاة سوداء، منفذين لا مفكرين مجبرين لا مختارين.

تدخلت ملك:

– أرجوكما، لنترك مثل هذه الأحاديث الآن إلى وقت آخر، لأنها ستكون وبالاً علي في آخر المطاف وربما ليومين أو ثلاثة.

قلت ممازحة:

– أحب استفزاز العقول، أحبها حين تفور وحين تغضب وحين تحزن.

قال وقد دبت في نفسه الحماسة:

– ما أجمل هذا التعبير "حين تحزن العقول" إن هذا الذي تقولينه صحيح مائة في المائة، فعقولنا أصبحت عاجزة عن العمل بشكل منطقي دون وخز، ولها عذرها، فقد تعرضت كثيراً إلى عمليات إجهاض فكرية بعد فترة ازدهار سرقناها والزمن في غفلة عنا. عشنا أياماً ذهبية في بداية الشباب، أبدعنا في كل مجال ثم نكصنا. إنني أؤيد رأي أحد الفلاسفة أعتقد أنه نيتشه، الذي يعتقد أن الإنسان الحالي هو نموذج للإنسان الذي سيتطور ويكتمل مع الأيام حتى يستحق لقب إنسان العصر الحديث عن جدارة، وقد أطلق عليه ذلك الفيلسوف لقب "الإنسان المتفوق". إذا قرأت رأياً مثل هذا فلا تمري عليه مرور الكرام، بل تأمليه، وسترين كم هو حقيقي.

قلت وقد اندفعت مأساتي إلى ذهني وأخذت بمجامع عقلي:

– لم تتح لي فرصة لأعرف الإنسان بشكل عام على حقيقته لسنوات خلت من عمري، لكنني الآن أحاول أن أعرف بجدية، ولم أتوصل لقراءة مثل هذا الفكر، على كل حال إذا حصل وقرأته فإنني قد أعتبره متعدياً على الدين، لأن الله خلقنا فأحسن خلقنا، وهو قادر على أن يخلق الإنسان المتفوق دون مقدمات.

صفق بحماسة وسرور وقال:

– هذه وجهة نظر لعلنا نناقشها يوماً ما، هيا إلى قهوة ما بعد العشاء، المواعيد في بيت السيدة الجليلة ملك مقدسة.

انتقلنا إلى غرفة الجلوس حيث عرض علينا شريطاً مسجلاً عليه بالصوت والصورة إحدى مقطوعاته الموسيقية، يعزفها بنفسه على البيانو بينما ينطلق صوته مسجلاً يقرأ شعراً رومانسياً رائعاً، لم أستطع أن أعرف هل كانت الموسيقى تمثل خلفية مصاحبة للشعر؟ أم الشعر الذي يصدح به هو الخلفية لتلك الموسيقى التي حلقت معها أرواحنا إلى الذرى العليا فحلقنا وراءها؟ وصلت ملك مع القهوة الساخنة، بقينا سكوتاً نتابع العرض، كان بالنسبة لي شيئاً رائعاً، بينما كان بالنسبة لحسان وملك مثيراً لألم وحزن دفينين. بعد انتهاء العرض رأيته ينظر نحو ملك بينما يسألني أنا:

– ما رأيك في الشعر والموسيقى معاً؟

قلت معجبة:

– قبل قليل كانت ملك تحدثني عنك وعنها، فلا يسعني إلا أن أردد ما قالته عن عزفك وشعرك قالت "حين سمعته يعزف ويقرأ الشعر أحسست كأنه صوت سماوي مهمته أن يوصل رسالة حب من هناك ستبقى ماثلة في وجداني مدى العمر" حقاً إن حسك الفني الرائع يستحق ما قالته ملك.

ردت ملك بسرعة قبل أن يتكلم:

– ألم يذكر لك مناسبة هذا الشريط؟ إنه رسالته الأولى التي قال لي فيها حبيبتي.

قال حسان بصوت حالم:

– نعم أحببتها منذ اليوم الأول حتى وهي تلميذة خائبة، لكن ازداد إعجابي بها حين قالت إنها تحبني، لا ينسى الرجل منا مهما تغرب قيمة العادات والممنوعات التي تنشأ عليها بناتنا في بلادنا الشرقية. قد يسحر الرجل أن تبدأه فتاته بإعلان حبها، لم أستطع أن أعتبرها كلمة عادية رغم أننا نسمعها من الأمريكيات كل يوم، لكن أن تقولها البنت الشرقية فإن لها طعماً آخر على لسانها ووقعاً آخر في الإذن هزني فعلاً. احترمتها بقدر ما أحببتها، ولم تخيب نظرتي فيها فهي تستحق الحب الكبير والاحترام أيضاً.

قالت ملك وقد رأتني أستعد للمغادرة:

– شكراً لك يا فتون، فحضورك جعل زوجي يستعيد لياقته الكلامية وذاكرته الحديدية.

قال حسان وهو يقف ويخلط الجد بالهزل:

– وهل من مجال للتهرب بعد أن عرفتني أكثر من نفسي؟ أعترف أنني أحببتها رغم أن عزفها كان سيئاً وما يزال.

انتهت سهرتنا بذاك المزاح اللطيف من حسان، وتقبله بكل مرح من ملك، ولم ينته الحديث، غادرتهما وفي نفسي شوق لمعرفة أين تكمن المشكلة التي تقض مضجعهما بعد هذا العمر الطويل، فالذي قالته في العلاج الجماعي يؤكد أن ما بينهما حسب رأي الدكتور جمال يسمى في الطب النفسي الانفصال المقنّع، صرت أدور في حلقة مفرغة بين ما رأيت وسمعت، وبين ما قالته سابقاً، خاصة أنني من أولئك الناس الذين لا يستطيعون العيش وحياتهم بمثل هذا الازدواج، يخفون بمنتهى البساطة غير ما يظهرون.

(3)

"مؤسسة المساعدة على الحياة" اسم جميل ومعنى رائع أطلقه الدكتور جمال على مشروع خاص بي ويملك، حين شرح الفكرة التي لا أدري متى خطرت على باله ولا متى أتخذ القرار بإخضاعها للتجربة والتنفيذ لتكون مؤسسة فريدة ليس لها سابقة في مجتمعنا، رأيتها حلماً بعيداً، وومضة أمل ستنير الكثير من القلوب المعذبة وتوصلها إلى راحة وفرحة مرجوة بغد أفضل.

بعد زوال المفاجأة بدت لنا الفكرة مستحيلة، لن تجد مجالاً للخروج إلى عالم النور وتصبح حقيقة وتفرض نفسها كمهنة. كيف سنضمن وعي من سنتعامل معهم وتفهمهم لحسن نوايانا دون أن نكون محل جدل واتهام وربما إدانة؟

كان قد مضى على انضمامي إلى جلسات العلاج الجمعي عدة شهور، تأقلمت بسرعة قياسية تناسبت مع طبيعتي الطاغية في الإحساس بالآخرين، والتقاط مدى معاناتهم قبل أن يتكلموا، كان الدكتور يحاول جاهداً أن أبقى في مكاني بين الفئة الخاضعة للعلاج، بينما أغلب الحاضرات كن يسحبنني إلى موضع آخر، كن يخصصنني بهمسات وأسرار يتحرجن من طرحها بشكل مباشر وصادق أمام الطبيب. الحقيقة أنني تفهمت الهدف الأساسي من هذه الجلسات، فكنت أشارك في طرح المواضيع مهما كانت بالغة الحساسية بإسلوب بسيط خال من التعقيد وبجرأة لا يعتريها خوف أو خجل.

لاحظ الدكتور هذا التقرب بيني وبين بعض أفراد المجموعة، لم يعترض بل على العكس أخذ يشجعني على التقرب منهن أكثر. بعد عدة أسابيع تم انتقالي إلى الجانب الفعّال في حلقة العلاج وأصبح مكاني إلى جانب ملك التي كانت تجلس عادة على يمين الطبيب بينما تجلس على اليسار ممرضة، كان وجودها ضرورياً لتقديم العون في حالات طارئة، فقد تتطور الأمور عند البعض من شدة الانفعالات التي يتعرضن لها أثناء الحوار، في مثل الأحوال قد تصاب إحداهن بنوبة بكاء أو هياج عاطفي أو صداع مفاجيء أو تشنج، فتسرع في تقديم المساعدة لهن.

بدأت أشعر بمتعة تشمل نفسي لكثير من المفارقات التي تحصل أثناء انعقاد الجلسة، لم أتردد في طلب التوضيح من الطبيب الذي لم يبخل أبداً في شرح الملابسات التي تصادفني، كان يعطيني من وقته بكل ترحاب فهمت بعد ذلك إنه كان يعدني لمهمة إنسانية أحببتها فعلاً. قلت استوضحه عن نقطة هامة:

– أعرف أن تجربة العلاج الجماعي جديدة علينا، لكن لا أفهم لماذا يصعب على المترددات بشكل خاص أن يبحن بما يعتبرنه خاص بمشاعرهن وأجسادهن وعلاقاتهن بأزواجهن أمامك مباشرة، فيلجأن إليّ، على أمل أن أوصل لك تلك الهمسات، مع أنهن ما أتينك إلا للمساعدة في أمر بات فهمه مغلقاً عليهن؟

– كثيرون ممن يصابون بتشويش نفسي هم ضحايا التربية الصارمة في الطفولة وإخضاعهم بشكل قسري لقوانين متعارف عليها في المجتمعات المغلقة. فيتخبطون بين العيب والخطأ والحرام والحلال، يخفون كل ذلك وراء قناع الخجل المرضي في أحيان كثيرة.

– أنا واحدة من ضحايا التربية الخاطئة، اعتياد الأهل على وسيلة المنع والتحريم كضمان للسلامة، فذلك أسهل بكثير من بذل الجهد ليفرقوا بين المسموح والممنوع. أو كما يقال سكن تسلم.

– أليس غريباً أن تعري جسدها حين تتعرض للكشف الطبي عند طبيب الصحة أياً كان اختصاصه بينما تخجل من الكشف عما تعانيه نفسها بصدق أمام طبيبها النفسي، دورنا أن نقرب لها الحقيقة بأن مجرد البوح بصدق قد يخلصها وإلى الأبد من آلامها النفسية، عليها تجاوز الخيط الرفيع بين الوهم والحقيقة فيما ألزمت به أفكارها ومعتقداتها.

في البداية كنت أشك أن يوفق اثنان أو ثلاثة أفراد على خلق أي نوع من المشاركة العقلية والوجدانية بين الجميع بحيث تصل بهم إلى درجة الثقة المطلقة والتعري النفسي أمام الآخرين. بعد عدة جلسات وجدت الأمر يتم ببساطة متناهية على الرغم من اختلاف أفراد المجموعة، في السن والثقافة والمستوى الاجتماعي والعقلي، بل أننا نستطيع أن نعتبر تجمعهم بمثابة نسخة مصغرة عن المجتمع الكبير بكل سلبياته وإيجابياته.

كان موعد إحدى الجلسات قد أزف ولم يحضر الطبيب، أخذنا أماكننا بانتظاره وانتظار ملك، جلست بيننا وهي تخبرنا عن اعتذر الدكتور جمال عن الحضور اليوم لانشغاله في أمور طارئة وإنه كلفها بأن تدير الجلسة بمشاركتي دونه.

قمنا بما كلفنا به خير قيام، كنت أقوم بعملية تفجير مخزونات النفوس كما رأيته يفعل، بينما ملك تراقب بحرص ألا يشتط الحوار عن مسار هدفه الأساسي، وألا يضيع الوقت سدى دون إفادة المجموعة.

وصل الدكتور جمال في ذلك اليوم مع نهاية جلستنا، وجد العيادة مازالت تغص بالجميع كأننا في سوق خيري، كل منهن تتحدث وتشارك وتساهم في العطاء والحلول، الوجوه مضيئة بحماسة لا تمت بصلة للحالة التي كانت عليها حين ابتدأنا الجلسة، كانت فرحة بل وسعيدة بعد أن استطعت دفعهن لفتح ملفات سرية مصابة بالعفونة، تطفو آثارها على سطح نفوسهن على شكل تذمر وقلق وأمراض.

كنت بجانب ملك نتهامس ماذا سيكون تعليقه وخاصة أن وقت انصرافهم حان منذ وقت طويل. هل نجحنا أم فشلنا؟ سمعت ملك همستي فأكدت نجاحنا. كان علينا انتظار حكم صاحب الاختصاص، حين تقابلنا معه طلب منا انتظاره ريثما يتفرغ لنا. عدنا للهمسات والتخمينات حتى فرغ من أعماله وجاء وجلس بيننا قائلاً:

– لقد أحسنتما العمل اليوم، لاحظت أنكما أصبحتما محل ثقة الجميع ومحبتهن، ما رأيكما في أن تقوما بتجربة أوسع قليلاً؟

بقينا صامتتين بانتظار ما سيقول فأكمل حديثه:

– أقترح أن تقومان بتجربة جديدة. تفتحان خطوط هواتفكما سواء من البيت أو من العيادة للمجموعة ذاتها التي تشاركنا الجلسات، تستمعان لهن بشكل أكثر حميمية، فإذا تجاوبن وهذا ما أتوقعه، تسعيان للتوسع فتطلبان منهن أن يخبرن أخريات بأنكما على استعداد لسماعهن ولو كن ممن لا يترددن على العلاج الجمعي.

أدهشني الاقتراح وشعرت بالحيرة قلت:

– لكن ألا يحتاج ذلك لخبرة مثل خبرتك إن لم نقل علماً واختصاصاً؟

– لا أعتقد ذلك، كل ما يلزمكما هو الحس المرهف والعقل الراجح وهذان متوفران فيكما، عل كل نبقى على اتصال حتى تكتسبا الخبرة اللازمة، في المرحلة الأولى ليس عليكما إلا أن تستمعا للمتعب أو المتعبة التي تود الحديث، يمكنكما الرد كما لو أنهن صديقات عاديات يتعرضن لمشكلة ما ويخففن عن أنفسهن همومهن بالبوح لكما. ملك تعرف أن هذا شيء عادي ويحصل في البلاد المتحضرة يسمونه الخط الساخن.

قالت ملك:

– لكن في بلادهم تغربت الناس بعضهم عن بعض حتى وصلوا إلى هذه الدرجة من الاحتياج لمن يستمع لهمومهم، أما في بلادنا فلا يوجد مثل هذا الجفاف العاطفي والبرود الإنساني.

ضحك الدكتور جمال كثيراً ثم قال:

– مازالت ملك متأثرة بالفترة التي عاشتها وحيدة في أميركا، لقد أدركت شيئاً، وتناسيت أشياء ما كان يجب أن تفوتك، خاصة إنك عدت باختصاص يبحث في عمق المجتمعات بكل طبقاتها، إن هذا الاحتياج عام لا يستثنى منه أحد، لأنه ضريبة النظام العالمي الجديد الذي يعزز الفردية والملكية، معارك التنافس الشديد تفرز عداوة تستنفذ طاقات الإنسان فيرهق ويتعب ويشقى، فهل يستطيع أحد أن يستمع لأحد آخر يشكو؟ وإن أراد، هل يجد الوقت الكافي لتلك المشاركة الوجدانية والتي لا تأتي بمردود مادي.

– وهل سنقوم بها مجاناً؟

– بداية نعم. فإذا استجاب الناس للفكرة فيمكن بعد ذلك تحديد أجر رمزي، ويصبح للنشاط مقر خاص نسميه من الآن مؤسسة.

لن يكن يخطر على بال كم كان التجاوب كبيراً، هل يصدق شيء مثل هذا؟ هل يصدق أن يكون الناس بمثل هذا الاحتياج الضاري لمن يستمع لهم؟ تصوروا لمن يستمع فقط، أي وقت نعيش؟

كل هذا أتاح للخطوة الأولى النجاح، أصبحت خطوطنا ساخنة بالفعل، التجاوب الكبير والثقة المطلقة بنا جعلنا نعتمد على أنفسنا فلم نحتج إلى الدكتور جمال إلا في حالات استثنائية جداً.

أصبحن يطالبننا بإلحاح أن نراهم ونجالسهن، بل واقترحن تحديد قيمة اشتراك أو مبلغاً لكل استشارة، حتى يشعرن بالراحة ويعتبرن أن لهن حقوقاً أكثر مما هي مساعدة.

بعد هذا النجاح، اقترح الدكتور جمال البدء في إنشاء المؤسسة، ووافقنا على أن نتشارك أنا وملك في التمويل بينما رفض الدكتور أن يكون له أي دور مادي فيها، فهو أولاً وقبل كل شيء إنسان، يعرف أكثر من غيرة حاجة الإنسان الماسة لإنسان مثله، هذا ما قاله شخصياً. بدأنا في الإعداد والتأسيس والتجهيز، استغرق العمل والتنفيذ شهوراً طويلة.

في يوم استلام المؤسسة وصلت قبل الجميع من شدة الفرح الذي كنت أحسه طوال مدة الاستعداد وتفجر اليوم بشكل طاغ، بعد قليل وصلت ملك، لم يحضر صديقنا الدكتور جمال بعد. كانت ملك مثلي فرحة وكلها لهفة لتفقد كل شيء، فاقترحت أن نقوم بجولة تفقدية في أنحاء المؤسسة ريثما يحضر الدكتور جمال. كان كل شيء كما تمنيت كاملاً مريحاً للنفس قبل أي شيء.

كان المكان عبارة عن بهو واسع، قسمنا جزأه الشمالي بحواجز إلى عدة مكاتب، وتركنا الجزء الأكبر للاستقبال، لذا انهينا الجولة في مكتب ملك، جلست في المكتب ثم لحقت بي وهي تحمل بين يديها صينية القهوة وتقول بمرحها المعهود:

– ليكن معلوماً أن هذه المرة الأولى والأخيرة التي أحضر فيها القهوة، يجب أن يكون عندنا متخصص في صنع القهوة بل خبير فيها، فأنت وأنا مغرمتان بشربها.

تناولت فنجان قهوتي دون تعليق، انتظرت فترة وهي تحدق بي ولما رأتني متمسكة بصمتي، وهذه ليست عادتي، قالت:

– ماذا بك؟ هل هناك ما يضايقك؟ هل في المقر شيء لم يعجبك؟

ضحكت من أسلوبها، تسأل وتجيب أو تسأل وتفرع السؤال إلى أسئلة، اقتربت منها بود فهي تطوقني كل يوم بجميل جديد، خاصة حين تشعرني بأن رضائي هدف وأمل ورجاء:

– لا شيء مما تقولين خطر ببالي، ولكن أحاول أن أتجرأ وأسألك عن بقية قصتك، هناك حلقة مفقودة بين ما رأيت في بيتكما وما سمعته منك في جلسة العلاج الجمعي.

قالت ضاحكة:

– إذن من الخير أن نتناقش في الأمر كما لو كنت أزور المؤسسة للاستشارة.

قبل أن أرد رأيت الدكتور جمال بيننا، لم ننتبه لدخوله ولكنه نبهنا حين شارك في التقاط آخر الحديث والتعليق عليه.

– ها قد حضرت قبل بدء الجلسة الأولى التي لا يجب أن تكون بدون إشرافي.

فرحنا لقدومه ورحبنا به بالكلمات ذاتها كأننا متفقتان عليها، مما أضحكه كثيراً وأشاع جواً من البهجة في المكان. قال بجدية:

– يجب أن تصبح مؤسستكما مثل أي واحدة شبيهة لها في الخارج، هذا شيء جديد عندنا، ويجب أن تكونا حذرتين حتى لا تفشلا.

قالت ملك:

– من أي ناحية سنفشل طالما نجحنا في البداية دون أن يكون لنا مقر دائم.

– تلك هي المشكلة الآن، قد يعتبرنها مقراً للعلاج النفسي، ودفعاً لمثل هذا الالتباس يجب ألا تتعدى الفكرة المساعدة، لذلك أسميناها "مؤسسة المساعدة على الحياة" فما زال الكثير في بلادنا لا يعترفون بالتعب النفسي ويخجلون منه، ولا يفرقون بينه وبين المرض العقلي يجب التركيز على هذه النقطة وقد ركزت عليها عند طباعة البطاقات التي ستوزع على المترددات، كتبنا عليها اسم المؤسسة وعنوانها وأرقام هواتفها.

تناول فنجان قهوته، ثم عاد إلى الحديث الذي كنا بصدده قبل دخوله وسمع بعضاً منه فقال لملك:

– هيا ملك ابدئي الجلسة الأولى مع فتون وسأقوم بدور الرقيب.

قالت ملك:

– كنا نتحدث عن حياتي وأرادت أن تعرف بقية الحكاية التي سمعت جزءاً منها في زيارتها لنا منذ مدة. لا أعرف إن كان يجب أن أعطيها فكرة عن بداية التغيير التي طرأت على حسان أم أوجز لها خلاصة الرأي الذي توصلت إليه قبل عودتنا لاستئناف حياتنا بلا عتاب وبلا وعود وبلا ضمان.

قلت:

– أود قبل كل شيء أن تبددي الحيرة في رأسي.

قالت:

– أعرف أنك تريدين شرحاً عن هذا الذي سميته انسجاماً بيني وبين حسان، تفسيره يا عزيزتي يوضح معنى انفصالنا. انفصالنا له معنى وليس له أسباب. الحياة صعبة لكنها ليست لغزاً، إنها مران وقوة تحمل وبالتالي تأقلم، مواقف سلبية في الحياة قد تحمل نواحي إيجابية. بعد تعرض حسان لأزماته العملية والإبداعية وجد نفسه محبطاً تماماً، غير قادر ليس على الحب فقط، وإنما على المعايشة أيضاً، فاتفقنا أن نبتعد عن بعضنا فترة حتى يسترد أنفاسه من معاناته فافترقنا مدة سنتين استغليتهما في إنجاز شهادة الدكتوراه التي تركتها منذ عشرين سنة، ثم عدنا باتفاق ضمني غير معلن، فهمه كل منا بمجرد موافقته على العودة، وهو أننا سنقيم حياتنا على أسس كثيرة ليس من بينها الحب السابق للأسف، أسس بدت لنا أهم بكثير في تلك الفترة من حياتنا، فقد كان كل منا يتمتع بتكوين نفسي سوي

ومتكامل فيما بينه وبين نفسه وبينه وبين الآخر، فكان التقدير والتفاهم وقدرة كل منا على احتواء الآخر وقبوله كما هو، فتم لنا هذا الانسجام تعويضا عن خسارتنا العاطفية.

قام الدكتور من مجلسنا معتذراً بارتباطه بموعد عمل يخص المؤسسة وتركنا وحدنا رأيت ملك تستعد للخروج قلت صائحة:

– إلى أين؟ مستحيل أن تتركيني دون أن تروي لي بقية الأحداث التي بدأتها منذ شهور أثناء الجلسة الجماعية والآن بعد أن تركناها وأصبح لنا جلسات جماعية خاصة قد لا نجد فيها متسعاً من الوقت لنتكلم عن أنفسنا، لذا يجب أن أعرف ذلك منك شخصياً والآن.

قالت ملك:

– لا بأس من رواية بعض المواقف الحاسمة في حياتنا، لن أرويها تخفيفاً عن النفس فقد أصبحت جزء مني لم تعد تثير شجوني على كل حال.

سألتها:

–هل للغربة هناك دور فيما حصل أم للاغتراب هنا؟ كثيراً ما أسمعك ترددين هذين التعبيرين.

قالت والحماسة تتدفق على شكل كلمات:

– لكل واحدة منهما حسنات وسيئات، فقد عشنا في الغربة عشر سنوات بعد زواجنا وأنجبنا توأمينا، كنت قد تفرغت لهما وتركت كل شيء، قبلت أن أتفرغ لأسرتي بأن أكون أماً وزوجة نسيت نفسي وأحلامي بشكل لم يخطر لي على بال. كانت التضحية أقل بكثير من النتائج الباهرة التي حققناها هناك، فقد عدت للعمل في الجامعة بعد أن ذهب الولدان إلى المدرسة. الميزة هناك أننا لم نعش أغراباً في مجال العمل، فلا جواز مرور للنجاح إلا العمل والتفاني والإخلاص فيه، وهذا ما كان حسان بارعاً فيه، لذا فقد استطعنا أن نحقق هناك قيمتنا الاجتماعية، لكن عشنا أغراب عن أهلنا، أغراب عن أوطاننا، العلاقات الإنسانية هناك لا تتعدى الجلد، قانون سائد ومعترف به يذكرك كل من حولك إذا نسيت أو تناسيت بأنك وحدك.

في الغربة يتآكل الإنسان من داخله، لا يعرف متى استحكمت به أوجاعه؟ ولا كيف يعالجها؟ وليس هناك من يسمع أو يهتم، حتى من يعيشون معاً تحت سقف واحد. أما الاغتراب في بلادنا فهو يمس وجود الفرد كقيمة، يتعرض للنفي والإلغاء، بينما يتحقق له الشعور بمشاركة وجدانية حقيقية من نظرة عابرة من كلمة مواسية، على الرغم من الرعب الذي بثه الدكتور جمال في أنفسنا بأن ذلك سيختفي من حياتنا أيضاً، أعترف أنني كنت في أمس الحاجة إليه حين وصلنا، لكنه لم يعوضنا عن عدم التقدير لإنجازاتنا وإهمال قدراتنا أو في كثير من الأحيان قتلها، بل وصل الأمر إلى معاقبتنا إن لم يتمكنوا منها. ماذا يكون الرد سوى الانكفاء على الذات والاغتراب؟ هل من المعقول أن نعيش ونحن نتمزق بين بحثنا عن إشباع مشاعرنا وتحقيق ذواتنا ولا نستطيع اختيارهما معاً؟

– لكن من كان صاحب فكرة العودة أساساً، أنت أم حسان؟

أجابتني وابتسامة أليمة تخترق الذكريات:

– وافقت على الفكرة حين رأيته متمسكاً بها. ولكن بعد وصولنا اتضح أننا تركنا كل شيء جرياً وراء تحقيق حلم رأيته جميلاً في حينه بينما أدركت بعد ذلك كم هو غريب. ترك حسان كل ما بيده من أجل حلم طرأ فجأة على رأس لطفي وتحمس حسان له، كانا مشتعلين حماسة لقوميتهما، أرادا أن يفرضا التغيير برفع شأن الكلمة المنفية في بلادها، بإنشاء مكاتب لإصدار نسخ من جريدتهما ومجلتهما الثقافية اللتان تصدران في المهجر. ملأهما الأمل، بأن تنطلق الكلمة بحرية تامة لتحقق العدالة والديمقراطية في بلادهم، بعد أن لم يبق من أمل غيرها، كان الهدف الأساسي هو تنبيه شعوب المنطقة إلى أن في الحياة أشياء أخرى جديرة بالسعي لتحقيقها إلى جانب السعي المدبر وراء لقمة العيش. كانا يحلمان بأن تفهم مثل هذه الأمور، فيكبر الحلم وتتطلع إلى متطلبات ترقى بهم كما رقت بالأمم المتحضرة.

دبت حماسة في عروقي فقلت:

– أعتقد أنك كنت تشاركيهما ذلك الحلم الذي نعته في بداية الحديث أنه جميل ثم عاقبته وجعلته غريباً.

لقد حاولت في ذلك الوقت مناقشة حسان حين عدنا إلى البيت لتتضح الأمور أمامنا، لكن وجدت حماسته للفكرة أكبر من رغبته في وضعها محل تشريح وتفصيل، فلم يحاول أن يسمع ما أود قوله، فاستفززته:

– كأن ما سمعته منك ومن لطفي قبل قليل، كل منكما على طريقته طبعاً، لا يزيد عن الموضوعات الإنشائية الوطنية عن التضحية والفداء التي كنا نتبارى في كتابتها ونحن طلبة في الصفوف الإعدادية، أو على أحسن حال مثل خطب المرشحين لمناصب حساسة تحمل آمالاً كأنها الحقيقة، وهم أدرى الناس باستحالة تحقيقها، حلمكما يشبه هذا الكلام وليس بينه وبين الحقيقة أي صلة.

رد وقتها ببرود:

– لم أكن أعرف أنك ضد فكرة العودة إلى بلادنا. العودة ضرورية من أجل مصلحة ولدينا ومن أجل بدء وضع أسس للعمل في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها المنطقة كلها.

قلت لا مبالية:

– كما تشاء ولكن إذا كنت تعلق آمالاً على أنك ستحقق ما حققته هنا، في هذه البلاد التي تعرف جيداً قيمة الفرد والأرض فأنت واهم، هناك في بلادنا مازالت الغالبية العظمى تقف طوابير من أجل الحصول على الخبز مثلاً، ناهيك عن الكثير من الضروريات كالدواء مثلاً.

أجاب بثقة العارف:

– من أجل هذا يجب أن يعود كل من يدرك أن ما ينقصنا هو شيء من العصيان، وشي من التحدي والإصرار، ومع بدء تحقيق بعض التفهم عن الحرية والديمقراطية لن تجدي جائعاً ولا عاطلاً.

لم تنفعه تلك الثقة ولا المعرفة ولا التحدي حين أجهز عليه وعلى أفكاره ومجلته وجريدته التي اعتبرت هدامة، فأعلن الحداد وأعلن موته وموت عائلته وهو وهم أحياء. لقد عشت قسوة الزمن المالح بكل أبعاده، فأصبت بجفاف مثل الجفاف الذي يصيب الأرض حين تروى بماء البحر المالح فتتشقق، رأيت وجه الحياة دميماً والكلمات لها وقع موجع، لقد تغيير هذا الإنسان الذي كان بالنسبة لي كل الدنيا، اعتقدت أن الشيطان تغلب على الإنسان فيه ورأيت استحالة الاستمرار.

– هذا ليس تغييراً بل تدهوراً.

–بداية الأمر لم أنتبه إلى أنه لم يعد يجالسنا بكل حضوره كما هي عادته،لم يعد يداعب وجد الأثيرة إلى نفسه، بل أكثر من ذلك لم يعد يطيق أن يسمع صوت لعبهما أو تشاجرهما. لا يريد صوتاً لا يريد استفساراً، كان ما يزال يعيش معنا بكامل هيئته لكنه لم يعد هو.

عاد من المجلة التي يعمل رئيساً لتحريرها حاملاً كثير من الملفات بين يديه، ألقاها على طاولة المكتب وجلس يشاركنا الغذاء، أخذ مجد يتحدث عن مدرسته وعن أصحابه قاطعته أخته وجد ساخرة منه فضحكنا، ازداد غضب مجد،لم يشارك حسان في الضحك أو في الحكم بين الاثنين كعادته، صرخ بعصبية كبيرة لا يحتاجها الموقف وطردهما من أمامه فغادرا المكان في هدوء.

لأول مرة أنظر إليه بإمعان، لقد فقد الكثير من حيويته وذكائه المفرط الذي كان يدفعه إلى الذرى بشكل لافت للنظر، الحزن مسيطر عليه بشكل مرعب، لحظات الفرح أصبحت شيئاً عزيزاً، أشحذ همتي لناله، نجاهد في صمت ليحتفظ كل منا بشيء له في نفس الآخر. أين هذا الرجل من الآخر الذي كنت أشبهه بالجوهرة النادرة المثال؟ أصبح مثل صاعقة رعدية تشق الفضاء ثم تطفأ.

انسحب بعد أن ترك الولدان المكان إلى مكتبه، كنت أرقبه من بعيد من فتحة الباب الموارب وهو مكباً على أوراقه، أتحين الفرصة المواتية لأدخل عليه. التقيت عيناي بعينيه فلم أضيعها، دخلت أسأله إن كان بحاجة لشيء هز رأسه بالنفي، حاولت أن أجره إلى الحديث، فلم أفلح، نفدت كل الطرق التي أعرفها ولم يبق إلا أن أكيل له الإعجاب والمديح فقلت:

– كيف يتسنى لك أن تعرف ماذا تريد من كل ملف مع كل الفوضى التي بداخله؟ ثم كيف تعرف أي ملف تريد وملفاتك بلا أسماء أو أرقام على كثرتها؟

يا إلهي تحرك الجبل، لا بل ابتسم، تشجعت قليلاً وتقدمت نحو المكتب، مازال مبتسماً فجلست، رأيته يرفع إليّ عينيه، ثم ناولني بعض الأوراق، أخذها من ملف أسود وقال:

– مكره أخوك لا بطل. أتصدقين، لم أكن أعرف أنه سيجيء يوم أتجاوز مبدأي الذي التزمت به منذ أن بدأت العمل بمهنة الكتابة، بأنها عمل مقدس، ولا بد لها أن تحقق شيئاً من التغيير في الأمر الذي تبحث فيه أو الابتعاد عنها نهائياً.

قلت مستوضحة:

– لم أفهم ما ترمي إليه، ما الذي حصل حتى تجد نفسك مضطراً لمثل هذا الأسلوب؟

قال ساخراً:

– يقولون إن الدنيا تغيرت، والناس غير الناس، ولم يعد باستطاعة أي منا أن يقول ما يشاء؟

– وأنت ما رأيك.. ماذا ترى؟

قال وقد كسا وجهه شيء من نبله القديم، نبل الفنان الذي أعشق:

– قول الشاعر العظيم " فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى".

تناولت الأوراق لأطلع عليها، قلبتها بين يدي لم أفهم شيئاً، ما قرأته في الأولى بدا لي كأنه كلمات مذكرات رحال "لم تعد الرحلة مجدية، التوقف ضروري بعض الوقت، أتمنى لو كان بالإمكان متابعتها، لكني أرى ما لم يره البعيد، أمامنا وخلفنا وعن الجانبين متاهات،أدغال، ووعورة جبال، أو منزلقات لا قدرة لنا على اجتيازها الآن على الأقل بالإمكانيات الموجودة بين أيدينا، لنكتفي بهذا الشوط من المسير".

رفعت عيني باستغراب، قال وضحكة تراود شفتيه:

– إذا كان مهماً أن تعرفي من هو قائل هذا الكلام أو لمن قيل أو لماذا قيل، أخبرك رغم علمي بأنك ستذهلين. قائل هذا الكلام هو لطفي في رسالة عاجلة بعثها لي مع قريب له. إذا كان المطلوب أن نفتح رؤوسنا لتطير من عقولنا أفكارنا ومعتقداتنا مثل ما يطير الدخان، فنحن بحاجة لمعجزة أو عملية غسيل دماغ.

قرأت الأخرى كانت غامضة أكثر من الأولى "أخبرني يا أستاذي هل مازال بإمكاننا السير قدماً في إنجاز ما بدأناه لنحقق قدراً ضئيلاً من العدالة ونتحدى القوة التي تمارس حولنا؟ أم علينا أن ننسى العدالة ونؤمن بالقوة؟" رفعت وجهي نحوه أستفسر فقال:

– أعتقد أنها من أحد القراء الملتزمين.

قلت أمازحها لأخفف عن نفسي ونفسها:

– أشعر ببعض الفضول في معرفة مشاعرك تجاه حسان، هل تغيرت والأيام تمضي وتحمل لكما المزيد من المتاعب؟ ألم يلاحظ حسان الخطر الزاحف على البيت؟ ألم يهمك التدخل بشكل مباشر لإنقاذ زوجك وحبيبك وبيتك ونفسك؟

– حين اتخذت هذا القرار كان قد فات الأوان. قررت أن أسأله إيضاحاً عن هذا الإحباط الذي أجهز على طموحاته وأحلامه، حتى الصغيرة، حتى البسيطة والشخصية؟

تركت ثورتي مشتعلة وسهرت بانتظاره، انتصف الليل ولم يحضر، تجاوزت الساعة الثانية صباحاً ولم يحضر بعد، قد تأخر كثيراً، أحاول تهدئة نفسي، انقلبت ثورتي عليه إلى قلق يخلخل مفاصلي، ثم تنازلت عن كل شيء أريده أن يعود. ليس من عادته أن يتأخر إلى هذه الساعة من قبل دون أن يعلمني، غالباً ما أرافقه حتى لو كان اجتماع عمل في أحد بيوت زملاء العمل أو الأصحاب. يزداد خوفي مع كل دقيقة تنقضي، لم يعد بإمكاني التخفيف عن نفسي، خرجت إلى الشرفة أنتظره، أتطلع إلى الشارع كأنني أراه للمرة الأولى، بدا غريباً وهو خال من المارة أو السيارات، مرعباً والإضاءة خافتة والظلمة تتشكل وجوهاً وأجساداً تتحرك تحمل جثة تحمل أخباراً مفزعة، عدت إلى الداخل وجدت أن مدة وقوفي في الخارج لم تتعد عشر دقائق، خلتها دهراً، فقد شعرت بالعجز والتيبس حين استدرت عائدة، رحت أتنقل في أنحاء البيت أتمتم بدعاء حار لله أن يعيده إلينا سالماً.

دخلت مكتبه أعبث بأوراقه، عسى أن أجد في مفكرته ما يدلني على موعد بينه وبين أحد نسي أن يخبرني قبل خروجه. لا شيء، لم أجد شيئاً، حتى المفكرة لم أجدها، عقلي يرفض أن يتابع عيني ويتفهم ما تراه أو تقرأه، أقرأ الكلمة مرات ومرات فلا أستوعبها، هتفت من أعماقي هتاف الخائف التائه يا إلهي ساعدنا، ردت الساعة بدقاتها معلنة الثانية صباحاً لتزيد من لهفتي وخوفي.

يبدو أنني نمت، فقد صحوت فزعة على رنين جرس الباب، حالما استرددت وعي داهمني خوف مروع، لم لا يستعمل مفتاحه الخاص؟ لا بد وأن يكون الطارق يحمل أخباراً سيئة، لا أعرف كيف وصلت إلى الباب، ولا كيف فتحته، وقبل أن أتحقق من وجه الطارق كان قد قذف بنفسه على صدري فصرخت هلعاً، ثم استدركت، فصرخت مرة وأخرى هاتفة من قلبي المروّع حسان حسان، خرج مجد من غرفته يسأل، تركت حسان ملقى على الأرض بعد أن همس في أذني برجاء ذليل "لا تدعيه يراني أرجوك ". تقدمت قليلاً معطية ظهري لحسان لأخفيه وقلت لمجد:

– ما الذي أيقظك من النوم فزعاً بهذا الشكل؟

أجاب من حلق جاف:

– لقد سمعتك تصرخين. ماما ماذا حدث؟

قلت مبتسمة أطمئنه:

– لا شيء أبداً، إنك واهم، لقد كنا في وداع بعض الضيوف.

رأيت الاستنكار في عينيه فخشيت أن يطيل المناقشة فقلت:

– اذهب حالاً لغرفتك وعد لنومك، أنت في فترة الامتحانات تصبح على خير.

أدرت ظهري له عائدة إلى حسان الذي كان يحاول الوقوف فيفشل، ساعدته في الوصول إلى غرفته وتبديل ثيابه، استغرق الأمر زمناً طويلاً، فحسان رجل ضخم علاوة على حالة السكر الشديد الذي تزيد من ثقل الإنسان.

لم أستطع النوم، انخرطت في البكاء حتى سمعته يبكي، استدركت، إن هذا سيزيد من تفاقم المشكلة، فانهيار شخص واحد وثبات الآخر يعني أن هناك مجالاً للإصلاح.

في الصباح، بعد ذهاب مجد وأخته إلى الامتحان، حملت له فنجان قهوته الصباحي، أحاول جهدي ألا أشير إلى ما حصل ليلة البارحة، ضاحكته، لم يتجاوب بقي حزيناً صامتاً، وحين رأى ابتسامتي تتسع ثقل همه وتحرجه وخجله، جلست بجانبه ملتصقة به دافئة وجهي في ظهره فسألني:

– هل رآني أحدهما ليلاً؟

قلت مؤكدة وأنا أسند رأسي على كتفه وأضمه بكلتي يدي:

– لا لقد حرصت على ذلك.

لم يرد وصمت بدوري ثم قلت:

– حسان حبيبي ألست أنا زوجتك وحبيبتك؟

هزّ رأسه ثم أمسك كفي بين كفيه ورفعهما إلى وجهه فلامست أصابعي وجهه أنزلهما بتؤدة إلى فمه ولثمهما، سحبتهما وأحطت من جديد كتفيه وضممته إليّ قائلة:

– قل لي إذن ما الذي حصل؟ ولماذا تفعل بنفسك كل هذا؟ إنك تدفع بأسرتك التي تعاهدنا أن نجعلها مثالية وقدوة إلى الانهيار.

قال وهو يهز رأسه بأسى:

– ماذا بي؟ هل تعتقدين يا ملك أنني جننت مثلاً حتى أقبل أن أفعل بنفسي وأسرتي ما تقولينه ببساطة؟ لكن ما باليد حيلة، صعب جداً أن يتهم إنسان نظيف بالخيانة، صعب جداً أن تفسر عواطفه الصادقة إلى حماس شرس، ودعوته للخلاص من التخلف إلى دعوة للعنف الدامي، أنا مخرب إذن من المصلح؟ أهم من يخيفوننا، من يفهموننا أننا أحقر من نملة يمكن أن يسحقها أي كان بين إصبعين.

قلت مواسية:

– الست مبالغاً في هذا الشعور؟

– لا لست مبالغاً. حتى الآن لم أفهم ولم أتعلم أن أهضم هذه الأخلاقيات الجديدة في كل مجال مع أن الجميع يؤكد بلا مواربة وبلا خجل أنها جواز المرور الجديد لهذا النظام الجديد، والذي نحن كأدباء وصحافة وسيلة من وسائله الحيوية. حتى الإنسان الذي تتلمذت على يديه وعلمني شرف الكلمة وشرف المهنة تخلق بتلك الأخلاقيات. أخبريني! كيف أقبل أن أتخلى عن الفكرة الصائبة والجادة

والشاملة التي وهبت نفسي لها العمر كله. فكرت بالرحيل ولكن إلى أين؟ فالقانون ذاته سائد كما قال لطفي في محادثتنا الأخيرة.

– هل تعتقد أن حل مشكلة عامة يكمن في تغيير المكان أو في تغيير الزمان وليس في تغيير أعماق النفس؟

قال وقد بدأ يصحو ويناقش بجدية كما كنت أرجو:

– لا أخفي عليك أنني سعيت لبعث حياة خاصة جديدة لي، مقنعاً نفسي قبل الجميع بأن عليّ أن أخضع لهذا القانون العام، وأقتلع تلك الذات المرفوضة منهم ومني من أعماقي وتبديلها، لم أفلح، صدقيني يا ملك لم أفلح ولن أفلح، قررت أن أبقى كما أنا وحتى النهاية.

بعد تلك المحادثة مباشرة، خرج من عزلته نظيفاً مهندماً، تناول إفطاره، وجلس يكتب من جديد، كان وجهه يطفح بشراً و حماسته تزداد بشكل ملحوظ خلال ساعات النهار. خيل إليّ أن الغيمة قد انسحبت من حياتنا فقد انتظم في مواعيده كالسابق، ورغم أن مجلته تعاني كساداً فقد استمر في إصدارها، كل الذي فعله أنه قلل عدد صفحاتها، وبعد ذلك لم تعد تصدر في مواعيدها المألوفة وإن استمرت مقالاته ساخنة على النهج ذاته.

ففي العدد الأول بعد تلك الصحوة التي قرر بعدها أن يبقى وفياً لمبادئه، كتب مقالة بعنوان "هل المعرفة من حق الجميع؟" وبعدها في العدد التالي والذي صدر متأخراً عن موعده المعتاد بأكثر من أسبوعين وبعد اعتقال رئيس تحرير جريدة الامتياز كتب مقالاً ساخناً "لمصلحة من تغييب الأقلام التي تحاول توصيل المعرفة بالخروج عن الكليشيهات لمألوفة؟" كان يستعجل الكارثة، فوقوع البلاء خير من انتظاره.

كان يتابعني في أرجاء البيت ليقرأ لي مقالته التي فرغ منها في صباح ذلك اليوم، ولم أجد وقتاً لمجالسته للاستماع، فقلت:

– أريد أن أستمع لها وأنا في كامل انتباهي فلندع ذلك لما بعد الغداء، ووطد نفسك على سماع اعتراضي.

– لعلك من أجل ذلك تتهربين من السماع، على كل حال سأستمع لرأيك في حالة واحدة، إذا لم يكن الاعتراض على ما فيها من رأي مباشر، وإذا لم تطلبي مني كما فعل الأستاذ لطفي أن أستعمل ألفاظاً بليغة وفضفاضة، بحيث تتيح لي فرصة للهروب، لا تسأليني مم الهروب، لأنني لا أعرف ولا أريد أن أعرف؟

– إنها تغيرات العصر يا حسان..

لم يدعني أكمل حديثي، فقد استدار عائداً للمكتب، عكف على أوراقه من جديد، لحقت به، نقرت على الباب عدة مرات ولم يجب، أطللت برأسي ضاحكه قائلة في مرح:

– آسفة أن أزعجتك بكلامي، ما كان يجب أن أثيرك بمثل تلك الانتقادات السخيفة. لا تفسد علينا متعة نجاح ولدينا الحبيبين، غدا أو بعد غد ستظهر النتيجة ويجب أن نتفرغ أنا وأنت ونتباحث في أمر متابعة دراستهما.

– لا أصدق أن تصل الحرب إلى بيتي، واليك أنت بالذات، أهو الخوف يا ملك؟

– أخشى أن تكون وحدك في الساحة فتدمي نفسك قبل أن تقول كلمة الفصل، هيا أقرأ لي العنوان الآن، وسأستمع إليك طوال فترة ما بعد الظهر ما رأيك؟

ناولني مقال الجريدة "جريمة إلغاء الخلفية السياسة للكاتب، وتحديد دوافعه وتدجين انتمائه؟" والآخر كان مقال المجلة "حرب مجيدة ضد الحبر والورق، ضد الكلمة المقروءة".

لم أعلق.. انسحبت من المكان وفي أثناء خروجي تصادمت مع مجد العائد من الخارج، عانقني وعيناه تتساءلان عن أبيه ينقلهما بتتابع بين وجهي وباب غرفته، احتضنته وطمأنته وأسرعت إلى المطبخ أتم إعداد الغداء، رغماً عني أخذت أفكاري منحى آخر، الخراب قادم تمنيت أن يتأخر بضعة أسابيع حتى يغادر ولدانا الشابان إلى أميركا لاستكمال دراستهما.

ماذا كنت أتوقع، هذا هو حسان الرجل، لقد قضى سنوات عمره بين الكلمة واللحن، هذا هو نتاج فترة مزدهرة في تاريخنا العربي، عقد الستينيات بكل ما حمله من يقظة وإبداع، وحماس وطني، وبناء اقتصادي، ومكانه سياسية، وصحوة فكرية، تغيرات جذرية في كثير من المجالات، تركت كثيراً من النفوس تزهو بأنها من عاشت تلك الحقبة عاصرتها أو شاركت فيها أو تعلمت منها وأصبحت جزءاً لن يتجزأ منها، وقد ادخرت في أعماقها صوراً جميلة زاهية وعجيبة، عن الثورات والمظاهرات العيش في الشوارع بتمازج رائع وأفكار جريئة.

هذا هو حسان الإنسان الذي ذهب كطالب علم، عاش سنة كاملة متفرغاً له، ثم تحطم حلمه فترك الجامعة وذهب إلى نيويورك، وكانت في ذروة ازدهارها، أغرته الحرية المتاحة هناك بالكتابة بجرأة، فغرف حصاد سنوات مرت، موت أبيه، حرمانه من حقه الطبيعي في أن يتعلم.

كان الحدث الأهم في حياته، لقائه مع الكاتب الكبير والمشهور بيقظة الضمير لطفي عباس، فقد توسم في حسان العبقرية فتبناه، لم يخيب حسان له نظرة ولا أملاً، على يديه وضحت ملامح تكوينه الإنساني الجدير بالاحترام والتقدير فأبدع. دفع به إلى طريق كان مستحدثاً في أميركا وفي نيويورك بالذات هو ما يسمى "الصحافة الجديدة" التي تبيح للكاتب أن يجمع ما بين التحقيق الصحفي والتحليل والسرد الذاتي، تلبية لرغبة القارئ الذي يحب أن يقرأ لكاتب معروف في الصحافة فلا تكون تلبية رغبة القراء على حساب دفن مواهب كاتب مبدع وتحوله لمجرد صحفي.

برزغ نجم حسان هناك في كتابة المقال في القضايا الثقافية المختلفة. حين تعرض العالم العربي للنكسة في أواخر الستينيات، كتب وحلل وأبدع في مقالاته السياسية، كتب كذلك القصة القصيرة

والرواية. لم يكتف بالتنظير بل شارك كثيراً وبشكل جدي في إثراء الحركات الفكرية بشغف ظاهر واستعداد دائم. ابتدأ دهشاً بالمعرفة وانتهى دهشاً وملتزماً، لم يوقفه ظرف أو صعوبات ما، مالية، سياسية، رقابية، واغترابية.

تناولنا الغداء ذلك اليوم في صمت، قطعه سؤال مجد:

– بابا ماذا جدّ في موضوع المجلة؟ هل تفكر بإيقافها؟

قال بشكل باتر:

– طبعاً لا.

ثم استدرك قائلاً:

– الإنسان يا مجد موقف، والموقف تحسمه كلمة، وأنا قلت كلمتي، والناصحون قالوا كلمتهم، كلمتي هي الأعلى، لأنها تحمل الإيمان، بأن الكاتب لا يجوز أن يغفو له ضمير أو ينوم أو يغيب.

قالت وجد بكل لطفها ورقتها:

– لكن يا أبي ماذا يفعل الكاتب إذا حوصر وأجبر؟

– سيبقى عنده خيار أخير على الأقل، من واجبه إلا يهدر أية قيمة من القيم التي آمن بها، حتى لو اضطر لأسوأ الخيارات، التوقف عن الكتابة، فذلك خير ألف مرة من الانخراط ولو مؤقتاً ولو مداهناً بما هو سائد من تطبيل و تزمير من أجل نيل المكافأة والتي هي غالباً رضا كائن من كان. وإن كنت تعنيني يا وجد، فأنا شخصيا سأناطح حتى تتحقق نبوءة أمك "وأدمى قرنه الوعل".

أنجزت الاستعدادات لسفر ولدينا إلى أمريكا، ضمنت لهما الإقامة المريحة في بيتنا الصغير في نيويورك حيث عشنا فيه بعد زواجنا وكان قريباً من منطقة الجامعات. انشغلت عن حسان فعلاً في تلك الفترة، لم أعرف كيف يقضي وقته في البيت أو في العمل،لم أعرف ما الذي أثاره من جديد ، فقد صب غضبه في صرخة حادة حين جئته أستشيره في بعض أمور السفر، أجابني بصرخة مروعة " لا أعرف " أخافتنا جميعاً، ذعرت وجد على أبيها فتقدمت منه وعانقته، فتنصل من بين ذراعيها ودفعها بخشونة فتركته جرياً إلى غرفتها، بينما وقف مجد أمام أبيه يغالب دموعه قائلاً:

– بابا أرجوك أن تفرق بين حياتك الخاصة ومشاكل العمل، نحن على وشك السفر خلال يومين فاترك لنا ذكرى حلوة تعيننا على غربتنا. أولاً لأنها المرة الأولى وثانياً لأن وجد بنت رقيقة لا تتحمل الإهانة منك بسهولة.

غادر مجد الغرفة بينما أبوه يصرخ فيه أنه مازال أقل شأناً من أن يوجه له النصح، انسحبت بدوري ولحقت بوجد أواسيها. كانت فاجعة بالنسبة لها أن يعاملها والدها بمثل هذا الجفاء لأول مرة في حياتها، سمعت صوت باب البيت يصفق بشدة، عرفت أنه ندم، فهو لا يغادر البيت إلا إذا شعر بغلطه، هذه

عادته، وكنت حين عودته أعطيه الفرصة ليعود إلى طبيعته بأن أتناسى ما حصل، فهل تستطيع ابنته أن تعامله كما تعامله زوجته؟

ازددت وحشة بعد سفر الولدين، أصبح البيت هادئاً فارغاً بارداً، ويبدو أن حسان انزلق من بين يدي مرة أخرى إلى واد غير الوادي الذي كنت فيه، لم يكلف نفسه أن يشاركني فترة غيابهما الأولى لنتجاوزها معاً، لم أشأ أن أدقق في مثل هذه الأمور، أدركت منذ زمن بعيد أنه يعاني حالة تهديد بالموت المعنوي إن أجبر على إغلاق المجلة، وقد منعت من عدة بلاد، وهذا يعني المزيد من الكساد والمزيد من الأزمات المالية التي يتورط بها، عاهدت نفسي على أن لا أتدخل في أي شأن من شؤونه إلا إذا سألني المشورة والتفت لبيتي وعملي الذي كان يخفف عني الشعور بالوحدة والإحباط.

سارت الحياة بطيئة وأتضح لي أنه لم يعد يهمه البيت من قريب أو بعيد. لم يعد يستمع لما أقول حتى ولو كان ما أقوله خبراً تلقيته من الغائبين، يثور ويندفع بشكل قاس ينتقدني فتركته وشأنه زمناً طويلاً.

قلت دهشة:

– هل تعني أنك لم تتابعي تطورات الأمور في عمله؟

– لم يعد بيننا أي نوع من الكلام، لكني علمت أن المجلة أوقفت بأمر رسمي، ووضعت الجريدة تحت الرقابة.

– ما الذي حدث بعد ذلك؟

– بعد أسبوعين من أمر إيقاف صدور المجلة عرفت أنه يستعد لإصدارها، حاولت فتح النقاش معه من جديد ولكن بلا فائدة. مرت أيام وأنا مريضة جداً وملازمة للفراش، لم يحاول أن يهتم كعادته أو يسأل مجرد سؤال.

– وبعد..

– تطور الموقف بشكل أليم ليّ وإلى حسان وعمله، سقط آخر خط دفاع تحصن وراءه ضد الهجمات المتتالية. حين جاءني رنين جرس التليفون بلا انقطاع على الرغم من تجاهلي له قفزت من فراش المرض مسرعة فتعثرت مراراً بسبب طول الرقاد وخاصة أن العلاج يسبب بعض الدوار، قد أدركت أنه الطالب فما أن سمع صوتي حتى باشرني بقوله:

– ملك لن أحضر على الغداء ولكن سأحضر ضيفاً على العشاء فاستعدي.

قلت بلا تفكير:

– ماذا علي أن أفعل؟ أعرف أنك لا تعلم أنني مريضة جداً، ولا أستطيع تحضير أي شيء، خذ ضيفك إلى مطعم فذلك أفضل.

– إنه شخص غير عادي والحديث أيضا ليس عادياً، يجب أن نكون في البيت.

تنبهت وتساءلت بشكل فضولي:

– من يكون الضيف يا ترى؟

– لطفي عباس.

قرع اسمه في أذني مثل طبول الحرب، أو مثل يوم إعلان إعدام أحد ما، اعتراني خوف حررني من شعوري المرضي، ولكن حين تذكرت من هو لطفي عباس بالنسبة لي ولحسان هدأ روعي، إنني متأكدة أنه سيكون معنا وليس ضدنا، ولكن حسان.. كيف سيتفهم النصيحة التي يقولها، ويقدر الأسباب التي يبديها؟

قفزت من مكاني مسرعة إلى المطبخ لأعد الطعام الذي يحبه ضيفنا وصديقنا، بل هو الأب الروحي لحسان. في الموعد أنهيت كل شيء، تجاهلت تعبي من الوقوف طويلاً علاوة على مرضي الذي تفاقم بعد التعب، ارتفعت حرارتي من جديد، ومع ذلك جهزت نفسي لاستقبالهما في تمام الثامنة والنصف.

قال لطفي عباس وهو يحييني:

– أهلاً ملك، منذ مدة لم نلتق أليس كذلك؟

– أهلاً بك في بيتك، فأنت بالفعل معنا مهما تباعدت بيننا المسافات.

ذهبت لأحضر المرطبات فلحق بي حسان قال:

– أخشى ألا يتناول معنا العشاء فقد تشاحنا كثيراً، كان رافضاً في البداية تلبية دعوة العشاء، لكنه عاد وقبل متعللاً بأنه يريد أن يراك، لا تضغطي عليه لو وجدته رافضاً للعشاء.

– لكنه صديق مقرب وشريك لك في أعمالك وأستاذك أولا وأخيراً.

قال متألماً:

– يبدو أنه لن يبقى صديقاً ولا شريكاً، لقد تلون ولن أستطيع تقبله بعد اليوم، لأنني لم أقتنع بسياسة التغيير المؤقت كما طرحه اليوم بوضوح، بينما أراه المرض ذاته الذي أخذنا عهداً على أنفسنا قبل عشر سنوات، أنا وهو، أن نحاربه إلى نهاية أيامنا.

– ليتك يا حبيبي حين تفقد الصبر هكذا، تستنجد بالفنان فيك وتلوذ به، دعه يتصرف حين تشتد الأزمة.

– معلوماتك قديمة جداً يا عزيزتي فذاك الفنان مات بالسكتة القلبية منذ دهر مضى.

عدنا إلى الصالون وأعدت الترحيب بالضيف دون إحضار الشراب، فضلت أن نتناول العشاء ثم نجلس للتحدث والمناظرة، دعوتهما للعشاء قبل أن يبرد ويضطرا إلى تناوله بارداً، رد على معابثتي برفض حازم، تأثرت جداً، صمت، ماذا حل بهذا الإنسان الرائع، لم ألحظ أي تغير، كان على أحسن حال،

بكامل أناقته وتألقه، بينما فقد حسان الكثير من اتزانه، أعدت التحديق بوجهه، لا بد من إيجاد أي ملامح مستجدة، لاحظت انطفاء ذاك الدهاء الذي كان يشع على الدوام في عينيه. قال:

– يجب أن أعود الليلة إلى لندن، هيا ننتهي من موضوعنا الشائك،فهذا أفضل بكثير من الضيافة والتكريم. إذا كنت تريد أن تكرمني كأستاذ لك يا حسان فاسمع كلامي وهادن.

كان يتكلم بمنطق من يعرف الكثير من الخفايا، رد حسان بعنف غير لائق ومع ذلك وجدت العذر لكليهما، لكني بطبيعة الحال انحزت إلى حسان، فصدمته كبيرة بأعز إنسان عنده، الإنسان المثال القدوة، أعادني من شرودي صوت حسان الصاخب:

– هل نسيت أننا تعاهدنا على أن يبقى مسارنا الشخصي ومسار مجلتنا على خط مستقيم في بحثها الدائم عن الحرية؟ ألم تعلمني أن أهم وسائل البحث عن الحرية هي الكتابة؟ وأن قلم الكاتب سلاحه الوحيد الذي يملكه، ويموت دونه؟

قال لطفي:

– اسمعني يا حسان، المجلة كاسدة، وأصبحنا نتعرض لخسائر مالية أكثر مما تتحمله ميزانية إنسان يعيش من ريع قلمه، الديون كثيرة والعائد لا يعتد به. قرّاءنا الآن قلة، وأعرف أكثر من غيري أن من يقرأ مجلتنا الامتياز هذه، إنسان ممتاز فعلاً، لكنه يقتطع ثمنها من حاجاته الضرورية. هل فهمتني يا ملك؟ أرجوك أنا لم أتغير كما يتهمني زوجك، ولكن المجلة تحارب بطرق علنية وخفية، هم يعتبرونها خطراً وهي كذلك، لأنها منارة للوعي، فبمجرد أن لفتت أنظارهم وأخافتهم، أعتقد أنها قامت بدورها خير قيام ومن حقها أن تستريح، ثم قد تستأنف مسيرتها بعد دراسة الأوضاع والمستجدات التي ستوضح دون شك خلال سنوات قليلة جداً. الظلام خيم من جديد حولنا إنها عودة للوراء.

قال حسان:

– ومتى عشنا في نور يا أستاذي؟ هناك في أميركا؟ نعم كان كل ما حولنا يشع بالنور ولكننا تغاضينا عنه، لأنه لا يعنينا، وحافظنا على خلفيتنا لتكون حافزنا إلى تبديد الظلمة في بلادنا وبين أهلينا وذوينا. فهل نلغيها؟ هل نلغي عقولنا وقلوبنا ونفكر ونحس بقلوب وعقول مستوردة؟

قاطعه لطفي قائلاً:

– لمن سنكتب يا حسان؟ عالمنا غاص وراء احتياجاته الضرورية، لهث وراء ماديات الحياة، أصبح يبخل بالمال لشراء ما يقرأ. القراءة أصبحت ترفا، الصحافة أصبحت ارتزاقاً، نحن لسنا أمة في الوقت الراهن، أتفهمني؟ إننا طوائف وأقاليم وأوطان ممزقة، أعني بالتحديد أن التوقف مفيد لتظهر حقائق هذا العالم بعد إعادة صياغته. وبعدها سنعرف بالضبط أين نحن؟

قال حسان صارخاً:

– أي جديد فيما تقول؟ كل ما تقوله كان قائماً من قبل أن نعي، ورأيناه بوضوح الشمس مع الوعي، بل إن كوننا لا نريد رؤية كاملة هو أحد أسباب تخلفنا. الجديد الآن أنها أصبحت برعاية نظام عالمي جديد لمعّها وأبرزها وجعلها كتابه المقدس الجديد، وأوحى لنا أننا إذا احتفلنا به وآمنا بما فيه ضمنا السلامة. بالنسبة لك اعتبرتها سلامة تستحق التضحية من أجلها، بينما رأيتها أنا سلامة لا تستحق سوى الاحتقار، مازال عندي عقل يفكر، وقلب ينبض، وحلم أرجو تحقيقه، ولو وصلت للقبر قبل تحقيقه سآخذه معي ليشهد أنني ناضلت من أجله ومت في سبيله.

ازداد الجو توتراً، ازداد هجوم كل منهما ضد الآخر، والمؤلم أنه ليس عن كراهية بل عن حب وتقدير، كل منهما يود أن يشد الآخر إلى طريقة، حسان يعتبر طريقه هو الطريق الحقيقي رغم إنه طريق الآلام، بينما يود لطفي أن ينقذ حسان من تورط لا طائل تحته سوى الخراب، يريد له أن يحفظ خط العودة ليتسنى له الوقوف ثانية حين تشتد الحاجة إليه، يرى أن طريق حسان لن تقوم له قائمة، سيتهدم بضربة قاضية، لا يريد له هذه الخسارة الفادحة.

استأنف لطفي الحوار هازئاً:

– رغم كل ما تقول ورغم إيماني أن التلميذ الفذ قد يتفوق على أستاذه، أظل أكثر منك خبرة على الأقل بحساب العمر.. عالمنا كله والعربي خصوصاً في حالة فوضى وضياع، الثقافة ليست هي التي تعارفنا عليها، إنها ثقافة رسمية تنتمي للسلطة. مفاهيم كثيرة ونظريات ملتوية فرضت عنوة في حياتنا كلها حتى على أجمل ما في الوجود، الفن والأدب. الكلمة الآن لها نخاسها ولها أثمان أغلى، فلماذا تحرق قلبك وتدمي نفسك وتهدم بيتك؟ لنتروى قليلاً حتى تتضح الأمور.

قال حسان متألماً:

– إن هذا الواقع الذي ترهبني به أعرفه مثلك تماماً، هو بذاته الذي دفعنا فيما مضى وسيدفعنا في كل وقت إلى رفع سلاحنا عالياً حتى لو ردوه إلى صدورنا. وبدلاً من أن تطلب مني إغلاق المجلة والمهادنة اطلب مني أن أكون أكثر حدة وشراسة. سأترك مجلتي أمام كل باب من قرائها حتى وإن تركوها تندمل تحت أكداس الغبار والتراب، وسيأتي يوم بعثها من جديد في القريب العاجل أم على المدى البعيد، ويعثرون عليها ويقولون كان هنا من يملك حساً ووعياً، سأموت دون تحقيق ذلك.

سكتت ملك بينما في داخلي دوي، عالمنا كبير مملوء بالمفاجآت مثل جراب الحاوي، هموم خاصة وهموم عامة، وكلها بحاجة لإرادة قوية لتحدي اليأس وتحريك الجمود، الهموم العامة كبيرة وجائرة تهمني وتهم ملك وتهم حسان ولطفي وكل مخلوق في عالمنا العربي وفي العالم أجمع بالقدر ذاته، أمامها تهون الهموم الخاصة، الفرق كبير بين أن تعيش على هوامش الحياة وبين أن تعيش لحظة في عمق الحياة. قلت بصوت مسموع:

– إنها الحياة لا تنتهي عظاتها كما لن تنتهي همومها، أحس الآن كأنني عشت معكم تلك الفترة. حقيقة أن بعض الناس تصنع أقدارها والبعض الآخر تصنعه أقداره. الألم يأخذ الكثير منا ويترك آثار خطواته واضحة على كل جزء من أجسادنا. حين يعيش أي منا فترة قاسية يحس بكل دقيقة تمر مثقلة بعذابنا وحيرتنا، من هموم خلقت معنا، وستبقى وهموم من اختراعنا، هكذا سيعيشها من يعيها بعدنا، لاشيء يتغير سوى الإنسان، ليس من معنى لموت إنسان إلا أنه يترك مكانه لآخر يأتي، وكلما أحكمت دائرة ابتدأت أخرى.

كانت ملك قد أخذت وضعاً آخر في جلوسها أكثر راحة واضعة خدها فوق كفها وهي ترنو نحوي وتستمع إليّ سارحة وراء كل كلمة وتراقب كل خلجة قالت:

– الغريب في الأمر أنني لم أكن في تلك الأيام أفكر في نفسي بقدر ما كنت أفكر في حسان والمعاناة التي كان يعيشها، أرى الهموم كيف أصبحت تتراكم علينا، فأقضي ليلي مسهدة أعددها لأعرف أيهما أقسى من الأخرى وأيهما قابلة للحل وأيهما مستحيلة. هل الأهم تخلي صديق العمر عنا وعن المجلة التي اعتبراها أغلى من الأولاد؟ أم الكساد الذي تتعرض له المجلة ولم يعد بالإمكان تجاهل تأثيره المادي البالغ؟ إغلاق المجلة؟ أم تحدي حسان وإصراره على إصدارها؟ إنذار حاد اللهجة بإغلاق الجريدة إذا لم يتقيد بالتحذيرات التي نبهوه إليها أكثر من مرة؟ إلحاح البنك على سداد مستحقاته بعد أن فات الموعد وأجّل مرات ومرات والإنذار بالحجز على بيتنا؟

حسان لم يمت بعد، لكنه ليس مع الأحياء تماماً. لم يعد يتذكر أن له زوجة. نظراته إليّ تحمل شحنة من العزوف إلى درجة الكراهية، يخرج من البيت لا أعرف إن كان سيعود أم لا؟ لم يعد يهتم بنفسه، يقضي وقته في غرفته المغلقة بالمفتاح، لا يجيب مهما استحلفته أن يرد أن يخرج ويواجهني. حين أراه وهو في طريقه للخروج، أحاول جهدي إقناعه أن يهتم بنفسه قبل الخروج، يرفض دون كلام ويندفع كالهارب.

سيطرت عليّ الأحزان كأن العالم كله على وشك الفناء وأنا مكلفة بندبه، فجأة وجدته واقفاً ورائي مبعثر الهندام مشعث الشعر مهملاً حلاقة ذقنه، صامتاً لكن عيناه كانتا تقذفان حولي شرر الغضب والقرف. منذ أيام طويلة وهو غائب والتلفون لا يكل رنينه بالسؤال عنه وأين يمكن أن يكون؟ والجواب دائماً لا أعرف. لماذا عاد الآن، لأول مرة لم أحفل بوجوده بقيت على حالي بجانبي وعاء من الماء المثلج لأبدل الكمادات التي أضعها فوق جبيني الملتهب لتهدئة الفوران الذي يعصف برأسي منذ أيام. وجدته يقذف وعاء الماء بقدمه حين رفعت رأسي لم أتبينه فقد غشت الدموع عيني، تتقاذف الكلمات من فمه متراكبة فوق بعضها البعض فلم أفهم.

خرج مسرعاً وقبل مضي دقائق على خروجه حتى سمعت عراكاً في الخارج، تحاملت على نفسي لأتبين الأمر، وجدت مجموعة من العسكريين والمدنيين محيطين به يجرجروه كأنه شيء وليس آدمياً على

الرغم من عدم مقاومته، صرخت متسائلة بكل حواسي "إلى أين" سمعته وأنا أهوي على الأرض يقول هازئاً "أخيراً أساق إلى المعتقل".

أيام طويلة ومريرة مرت ولم يعد، ولم أتمكن من زيارته، أغلقت قلبي على أحزاني وبدأت لأول مرة أفكر في العمر الذي يجري بنا، وأفكر بالأشياء التي قطعتها لأوصل ما بيني وبين حسان وبعد ذلك بيننا وبين ولدينا وبيتنا، ما الذي فعلته لنفسي لا شيء، أعطيت الجميع أينهم مني الآن، كيف أنقذ نفسي، أعياني التفكير بعد أن فقدت أي أمل في إصلاح ما تكسر، وكلما اتخذت قراراً أجده ناقصاً بدون أن يكون حسان ضلعاً فيه، كان صنو نفسي، وشطراً من روحي، ولكن القدر الذي أراد لنا هذا اللقاء المفاجئ كتب لنا هذا الفراق العجيب.

الغريب أنني لم ألمه، بل على العكس كنت أتفتت من أجله، فأنا أعرفه أكثر مما أعرف نفسي، فأزداد حزناً وألماً. أخيراً أذن لي بالزيارة بعد أن وسطت ورجوت الجميع، لكن فجأة ظهر لطفي، وعرفت فيما بعد أنه من استخرج لي وله إذن الزيارة.

جاء لطفي في الصباح ليصطحبني لنذهب سوياً لزيارة حسان، كنت في حالة نفسية جيدة لمجرد أن عرفت أنني سأراه قريباً، لكن حين رأيته يدخل إلى البيت ويجلس ثم يتلفت متعلثماً محاولاً الكلام أحسست بحرجه، شعرت بقلبي يهوي بين ضلوعي، ولكني تجاهلت الأمر وذهبت لصنع القهوة نادى علي رافضاً القهوة عدت أتهيأ للخروج فقال بصوت خافت معذب:

– لا أعرف ما الذي يجب أن تعمليه بعد أن تغادري البيت، لا أعرف أين ستذهبين، ولكن إذا أردت اقتراحي فأنا أقترح أن تذهبي إلى الأولاد وسيلحق بكم حسان حين تتحسن الظروف. كنت أود أن أحفظ لك البيت ولكن انتهى الأمر.

قلت مستغربة:

– ولماذا علي أن أغادر البيت، إذا كان حسان لا يريد العودة لنا فهو حرّ، أما أنا فسأبقى، إنه بيتي ولن يجبرني أحد على تركه.

بكيت بحرقة، بكاء أقرب إلى العويل، أبكي العمر كله، والعذاب كله، والخوف كله.

– يجب أن تغادري البيت، فقد تم الحجز عليه من قبل البنك سداداً للدين، وقد حاول حسان خلال الأيام الماضية تدبير المبلغ لم يوفق، لم يبلغني شخصياً بالأمر ولكني عرفت مصادفة وحين وصلت كان كل شيء قد تم، لا أريدك أن تكوني هنا أبداً.

قلت وكأنني لم أدرك من الأمر إلا أنه سيبقى بلا مأوى:

– وحسان أين سيعيش؟ سأنتظر خروجه ونذهب سوياً إلى أميركا وليبدأ هناك من جديد.

–هيا بنا الآن للزيارة، اعتقد أن الأمر بالإفراج عنه سيتأخر بعض الوقت.

لم أتمالك نفسي حين رأيته جالساً على مقعد خشبي في غرفة موحشة، كنت أتطلع إليه بفزع ضحك بحزن وقال:

– لا لم يضربونني بعد، أنها فركة أذن يعني يعيدون تأديب الخارجون عن أصول الأدب لا تخافي أنا قليل الأدب جداً سيعجزون أمامي.

قلت:

– حسان أرجوك طاوعهم وأخرج ولنسافر معاً إلى الأولاد.

– اذهبي أنت وسألحق بك في أقرب وقت، لكن.. ليس قبل أن أستعيد نفسي، لا أقول مكانتي ولا أقول قدراتي، لكني أقول نفسي التي وحدها تعنيك وتعنيني، تعني استعادتها أنني عدت إنساناً جديراً بالحياة، جديراً بك كحبيبة وزوجة، لا أكذب عليك، شعوري تجاهك الآن مجرد زوجة منكودة الحظ، وذهابك يعني تحرري من عبء نظراتك ومن صمتك ومن احتجاجك. ماتت كل أحاسيسي تجاهك وتجاه نفسي وتجاه كل ما كان يعنيني. صدقيني لو لم يكن هناك أزمة مثل هذه التي نعيشها لكان لزاما علينا بأن نفترق.

قلت متفهمة:

– ماذا ستفعل؟ أين ستعيش؟ يجب أن أعرف قبل أن أغادر.

– لا تقلقي علي سأتدبر الأمر، مازال مقر المجلة لي سأقيم به حتى أتدبر أموري.

عانقته كثيراً ولا أتذكر أنه ضمني أو قبلني أو أحس بي. بل ربت على كتفي واستدار عائداً من حيث أتى، ألقى نظرة أخيرة شاملة عليّ وعلى لطفي وخرج وأغلق الباب بيني وبينه، خلت بعد دقائق من ذهابه حين استرددت أنفاسي أن اللحظات التي مرت مجرد كابوس رهيب سينتهي، فهل من الممكن أن تنهار حياة اثنين أحبا بكل هذا العنفوان والإخلاص والتفاني وتنتهي قصتهما بمثل هذه الكلمات القليلة؟

بدأت أرتب أمور السفر ولكن خاطراً ألح علي وقد تنبهت، لعل تركي له سيزيد من تفاقم حالته النفسية وقد تقضي عليه إن بقي وحده، فقررت زيارته وعرض بقائي إلى جانبه كمحاولة أخيرة، فإذا وافق أن أعيش معه حيث يعيش سأبقى، أو يتركني بجانبه ريثما تنفرج الأمور على الأقل. حين وجدني أمامه قام واقفاً وسأل بلهفة:

– ماذا حدث.. هل هناك مصيبة جديدة؟

– وهل في الدنيا مصيبة أكبر مما نحن فيه؟ أردت أن أعرض عليك أن أبقى معك تحت أي ظرف سأعيش مثلما تعيش حتى تنجلي الأمور قليلاً.

– أعرف كرم أخلاقك، وأعرف قدراتك العظيمة على التضحية، ولكنك فعلتها كثيراً وآن لي أن أكون نزيهاً معك. ظننت أنني وضحت لك الصورة، ولكنك ترفضين أن تنقذي نفسك من وضع أليم وربما ازداد ألماً مع الأيام.

مشى بعيداً ثم عاد قائلاً:

– سأبوح لك بسر، أمامي الآن مشروع رواية عنوانها "امرأة واحدة" هذه أنت. وأخطط لكتاب آخر سأدون فيه محنة الكتّاب والمجلات والجرائد، حتى يأتي يوم فلا نجد قارئاً يلوم القائمين عليها ويتهمهم بأنهم لا يقدمون إلا الإسفاف والغث من أمور الحياة، سأقول كلمتي وسأدفع ثمنها دمي. سيستغرق هذان الكتابان سنتين تقريباً، أعدك حين أنتهي من الأول، الكتاب الذي يخصك، سأحضره بنفسي لك إلى أميركا، وبعد صدور الكتاب الثاني إذا بقي في العمر بقية، سنرى أمور حياتنا الشخصية على ضوءها سواء كنت تريدين أن نناقشها أو تريدين إنهاءها، سيكون القرار قرارك. أما الآن فالقرار لي، سافري ودعيني وحدي أبحث عن نفسي.

حين سكتت ملك مرة أخرى سرحت وراء أفكاري وأنا أتساءل "لماذا يقع على المرأة نتائج أي فعل حتى ولو لم يكن لها يد في هذا الفعل؟".

قالت ملك:

_ غالباً ما ننسى أن أنفسنا ذاتها، هي مصدر فخر ومصدر حب ومصدر عطاء ومصدر نجاح، فلماذا ننتظر كل ذلك من الآخرين، أهلنا، أزواجنا، أولادنا. أما آن الأوان لنكون المنجد لأنفسنا طالما نستطيع أن ننجد الآخرين؟

الفصل الرابع

(1)

أخيراً تحقق الحلم وافتتحنا مؤسسة المساعدة على الحياة، رفعت شعارها بين العاملين فيها الحب والرحمة دون حساب والجهد الصادق فيما نقدمه للناس من خلال المؤسسة التي أقيمت خصيصاً من أجلهم. كان يوم الحادي والعشرون من شهر أيلول سبتمبر هو موعد الافتتاح، التقيت مع ملك في المؤسسة في الساعة الرابعة لترتيب بعض الأمور قبل موعد بدء الحفل، انهمكنا في تحضير الصالة التي تتوسط المؤسسة رغم إنها تشغل نصف مساحة المكان تقريباً فتحنا أبواب المكاتب الأخرى المحيطة بها، تراجعت الأبواب المتحركة إلى أقصى اليمين وأقصى الشمال، أصبح المكان صالة واحدة كبيرة، أعطى اتساعاً لائقاً بذلك الجمع.

التأم الشمل وأخذ كل موضعه حسب الترتيب المعد من قبل، ثم ابتدأ الحفل بكلمة ألقاها الدكتور جمال شارحاً أهداف المؤسسة واختتمها برجاء لكل من يتردد عليها، أن يعتبر نفسه بين أخوات له واخوة، يعملون على راحتهم.

في كلمتي البسيطة ربطت تاريخ الافتتاح ببداية الخريف. قلت "قد يعتقد البعض أنه فصل خامل يبقى على الحياد بين بقية فصول السنة، بينما في حقيقة الأمر يقع عليه العبء الأكبر في تهيئة الطبيعة لاستقبال مواسم العطاء. ثم تمنيت لكل من يتردد على المؤسسة أن يستعيد قدراته لاستئناف الحياة بكل تفاؤل ورضا كما تستأنف الأرض عطاءها وخيراتها".

حين جاء دور ملك قالت معلقة على كلامي بأنني قدمت خلاصة العقل والعاطفة، وأنني مزجت بين خيالي الشاعري وبين الواقع الذي قد يكون مريراً في بعض الأحيان، ثم علقت ضاحكة قائلة "على كل حال فأنا أحب فيها هذا الخيال وإن كنت أخاف عليها منه، باختصار إنني أرجو للجميع السلامة والصحة، كما أرجو أن ننال ثقتكم ومحبتكم، وأن تعتبروا زيارتكم لنا مجرد زيارة ودية، حين تحتاجون أذناً واعية صادقة، لا يهمنا شئ قدر اهتمامنا بما يعنيكم".

تناول الجميع المرطبات والقهوة، والتقط بعض الصحفيين صوراً لنا وللمؤسسة، ووزعنا على الجميع البطاقات التي تحمل اسم المؤسسة وعنوانها وأرقام هواتفها. كان حسان قد تطوع بالعزف لنا على البيانو ليلة الافتتاح، وكان قد أرسله منذ الصباح، وبعد الساعة السابعة تقدم من بين الحاضرين وحيا وجلس إلى البيانو وبدأ عزفه الرائع كأنه يدعو الجميع إلى الحياة، ومع كل ما في قلبه من حزن، نثر البهجة، فكنت أكثر الجميع سعادة، لم يحدث أن عشت مثلها، قالت ملك وقتذاك ممازحة:

– ما هذا المزاج الرائق، هل شربت شيئاً؟

رددت ضاحكة:

– بعينك.. لم أفعلها ولن أفعلها، تعرفين رأيي في هذا الموضوع.

– إذن أجيبي عن هذا التساؤل الملح في أعين الجميع أو من وراء الكواليس، يقولون ما الذي جرى حتى أسقطت الحائط الرابع القائم دائماً؟

أجبت ببساطة:

– ليس في الأمر غرابة، إنه وبكل بساطة، يعبر عن تفاؤل بالنجاح، ليس هناك أجمل من وصول الإنسان إلى حريته الحقيقية، الحرية التي تتخطى الحلم إلى واقع ملموس. هذا العمل الإنساني الكبير الذي سنقوم به ابتداءً من الغد، يشعرني أنني إنسانة حرة، تدعمني إرادة فولاذية، توحدني مع العالم والناس. العمل.. العمل كما قالت السيدة امتثال ذات يوم نتاج طبيعي للفكر، يحيل كل فكرة خيالية إلى حقيقة واقعية. هاك مؤسستنا أكبر دليل على ذلك، كانت فكرة وأصبحت واقعاً.

انفض الجمع في الثامنة مساء وبقيت مجموعتنا أنا وحسان وملك والدكتور جمال وزوجته عفاف والسيدة امتثال وزوجها عادل وموظفة الاستقبال شريفة ونعمت وشريكها في المكتب مصطفى المشرف على الأرشفة في الكمبيوتر. كانت جلستنا ودية للغاية، رغم وجود ضيف غريب وسطنا كان قد حضر مع حسان، حين عرفني عليه حسان كنت منشغلة بعدد من الأمور التي لا تقبل التأجيل، لذلك لم أنتبه لسماع اسمه أو صفته العملية أو حتى صلته بحسان، لكنه لفت نظري أن بقي مع مجموعتنا، أعدت الترحيب به وحين رأيت تحية ملك الودودة أدركت أنه إنسان مقرب لها ولزوجها، وحين وجد الجميع يتهيئون لجلسة خاصة بالعمل قام مستأذناً وانصرف.

بنفاد صبر رحت أسعى لمعرفة التفاصيل سألت الدكتور جمال:

– أرى النجاح سيكون حليفنا، فقد رأيت أكثر المدعوات من مجموعة العلاج الجمعي، كأن الفكرة راقت لهن، كانت وداد و خديجه ومنى ورأيت أيضاً بيان وزوجها الدكتور كمال، كانت في أحسن أحوالها لم أرها هكذا منذ عرفتها. كان أيضاً كثيرون، لم أعد أذكر الأسماء، وإن كانت الوجوه ما تزال عالقة في ذهني.

رد الدكتور جمال معلقاً على آخر ما قلته:

– لا.. أرجوك ألا تنسي الأسماء، فاسم الإنسان أحب الأسماء إليه، ولا يرفع الكلفة بينك وبين من تريدين الاقتراب منه شيء قدر أن تخاطبيه باسمه لتشعريه باهتمامك.

قاطعته قائلة:

– عندك حق فيما تقوله إنها ملاحظة ممتازة. لكن يا دكتور ما أنجزناه قياسياً في إعداد المكان والاتصال بالناس وتجاوبهم معنا.

– إن قلت أنك المحرك الأساسي لذلك النجاح أكون قد أنصفتك، ولكن ظلمت الآخرين، فالجميع بذل جهوداً لا تنكر، إذن دعيني أحدد الألفاظ أكثر، فأبرر لم خصصتك بالإنصاف، إيمانك

بالفكرة آنذاك، عززه حالة التعاسة الغامرة التي عايشتها، ثم دعمك المادي لها ساعدها على الظهور وكذلك الدعم المعنوي بكل هذا الزخم هو الذي سيبقيها حية وسيحدد مدى نجاحها وتجدده.

سأله حسان:

– أليست الفكرة جريئة يا دكتور جمال وتحتاج إلى وقت طويل حتى يتقبلها مجتمعنا؟

– أعتقد أن الدكتور كان يريد مساعدتي كصديقة للخروج إلى الدنيا والانشغال بهموم الآخرين.

أجاب الدكتور بصراحة:

– هذا جانب، والجانب الآخر أنني أردت استغلال عقل وثاب جريء وقلب كبير محب للخير، لسد حاجة الناس لمن يستمع لهم غير الطبيب والأهل. إيقاع العصر سريع، لم يعد أحد يهتم بغير نفسه وهمومه ومشاكله، لم يعد هناك من ينصت، ليس عن قسوة بقدر ما هي عدم توفر الوقت. فلماذا لا نوجد من يقوم بعملية الإنصات كمهنة؟ مهنة يحتاج من يمتهنها إلى عدة شروط، أهمها أن يكون قد عاش معاناة كبيرة لدرجة الإحساس بوجع الآخرين، فتون بعواطفها الفياضة الصادقة تدعمها ملك ككابح بقوة قلبها وجسارتها وسيطرة عقلها على معظم أمرها شكلتا ثنائياً رائعاً حسب تقديري، شكلتا معزوفة صدحت جميلاً فأردتها أن تعزف طويلاً.

صفقنا كثيراً خاصة أنا وملك، اعتبرنا كلامه شهادة رائعة، من إنسان له باع طويل في معرفة النفوس. قالت نعمت بزهو:

– حين ذهبت أمس إلى المطبعة لإحضار المطبوعات الخاصة بالمؤسسة، وقفت أراجع البطاقات قبل استلامها، تقدم أحد من زبائن المطبعة قائلاً:

– هل لي أن أسألك عن مهمة هذه المؤسسة؟ لقد لفت نظري اسمها الغريب "مؤسسة المساعدة على الحياة".

أجبته:

– بكل سرور، لقد أسست أصلاً كمؤسسة اجتماعية، لتساعد من يعاني مشكلة حياتية، عجز عن الخروج منها وحده، نحن لا نقدم الحلول مع العسل، بل مهمتنا فقط الاستماع والتوجيه والمساعدة لكل متعب ليصل إلى بر الأمان.

تقدمت سيدة من الحضور كانت تهم بالمغادرة بعد أن فرغت لتوها من دفع ثمن ما اشترت:

– أرجوك أعطني العنوان.

ما أن مددت يدي بمطبوعة، حتى امتدت الأيدي لتأخذ كل بدورها واحدة. آلمني الموقف كثيراً، كم في هذه الدنيا من أناس متعبين ومتلهفين على المساعدة، لله حكمة في هذا التكافل ليستمر احتياج بعضنا للبعض الآخر.

قلت معلقة:

– رغم أننا سنتقاضى أجوراً رمزية، فإنني أعتبر أنفسنا فاعلي خير، نقدم البسمة والفكرة والمحبة والثقة، فحين يشعر المتعب بأن الدنيا ما زالت بخير، يتخلص من قلقه وأرقه وإرهاقه، ويتغلب على كل صعوبة تعترض مساره.

انفض الجمع على أمل اللقاء غداً لبدء مسيرة العمل، كانت تمنيات الجميع لنا بالتوفيق والاستمرار، وأن تتوطد مؤسستنا وتكبر وتصبح استشارتنا مثل التعويذة والنتائج أكبر بكثير مما نتوقع. قبل انصراف حسان جاء ليهنئني قلت:

– آسفة يا حسان، لم أستطع أن أهتم بضيفك كما يجب، وحين فرغت مما كان يشغلني كان على وشك الانصراف، لا أذكر أنني رأيته من قبل، على كل حال مهما كانت علاقتك به فأرجو منك الاعتذار منه نيابة عني.

قال حسان:

– لا داعي للاعتذار. لقد أحضر لي بعض المطبوعات من صديق عزيز وقديم مقيم في لندن، وصل إلى البيت قبل خروجي إليكم بدقائق معدودة، فداخلتني حيرة شديدة، فقد كان بيني وبين الصديق القديم خلافاً ثم زال بفضل جهود هذا الضيف، خشيت إن اعتذرت وتأخرت عن مقابلته ومن ثم التأخر عن الرد فقد أفهم خطأ ونخسر الود من جديد، وإذا استقبلته تأخرت عليكم فشرحت له الأمر واتفقنا أن يحضر معي مهنئاً ملك ثم نلتقي في الغد. وهكذا ترين أنني أنا الذي يجب أن اعتذر لإحضاري ضيف دون دعوة.

بعد ذهاب الجميع جاء دورنا للمغادرة بعد تعب وفرح ذلك اليوم المشهود في حياتي وحياة ملك. قلت وأنا أجمع أشيائي:

– هل لاحظت أننا لم نقم بالترحيب اللازم للضيف الذي حضر مع حسان، يبدو أنه مقرب من حسان جداً فقد أزال جفوة بين حسان وصديق قديم له، من أجل ذلك أكدت على حسان أن يعتذر له نيابة عني وعنك.

قالت دون مبالاة:

– هو صديق لطفي عباس، عرفّنا عليه منذ زمن بعيد، إنه مقيم هنا ويعمل مخرجاً في التلفزيون حاليا، لقد قام مشكوراً بتقريب وجهات النظر بين حسان ولطفي. بالمناسبة لقد شهد له لطفي بأنه مخرج بارع، فقد قام بإخراج أفلام جميلة صوت وصورة تنفيذاً لفكرة برنامج "هذه بلادي" الذي كان لطفي مهووساً بإخراجه إلى النور، وفعلاً حققت الأفلام نجاحاً كبيراً حين عرضت في أميركا وأوروبا، وبعدها ارتبط الاثنان بعلاقة صداقة وعمل سنوات طويلة، اعتبر لطفي أن ماهر حقق له حلم حياته.

– أليست فكرة رائعة؟ لكنها لا تخطر إلا على بال إلا رجل مثل لطفي عباس، حين أسمع أي منكما يتحدث عنه أتمنى من كل قلبي أن أقابله.

لوحت بيدها مبتعدة وهي تقول:

– سنعرفك على صديقه المخرج قريباً، فبينهما الكثير من السمات المشتركة، خاصة في الالتزام الذي تقدسيه.

الشهور تمر والعمل يكبر ويؤتي ثماره، عرفت فن التعامل مع الحياة، كان اتجاهي لمساعدة الآخرين مكاني الصحيح ونتيجة حتمية لمعاناة نفسي التي اختارت أن يكون طريق الآلام معبراً لها. كانت المهمة صعبة، لكنني اندفعت إليها بكل طاقتي حتى أصبحت حالة تشبه الوجد، أتفهم مشاكل الآخرين، أصغي إليهم، أفرح لفرحهم أبذل كل ما أستطيع ليرتاحوا. عرفوني جيداً وأحبوني كثيراً، فنسيت نفسي، لولا لحظات أهرب من كل ما بي، ألوذ بها في أعماق ذاتي أبحث عني، وحين ألتقطها من شرودها أعيدها إليّ، أبثها خواطر تحمل معنى الأمل، بأنه لا بد من ظهور إنسان حياتي، ليتحقق لي بوجوده التوازن الطبيعي والمطلوب، كوعد حق، آت بلا ريب. كل دلائل وجوده تلوح في روحي، أحفظها، فتملأني وهجاً، أصبحت أعرفه وأنتظره، سيأتي من يضيف الناقص لحياتي وتعتدل. عشت صراعاً عصيباً بين الحلم والرغبة، الحلم القديم يتراءى من جديد ويلح في حقه في الوجود فيكبر ويصبح رغبة، تصير أملاً.

الساعة الثامنة والنصف مساء موعد ثابت لانتهاء العمل في المؤسسة، منذ سنة والكل يعمل به ماعداي، كان يجب أن ينبهني أحد ما بأن الموعد أزف وغادر الجميع مكاتبهم، كانت تلك مهمة ملك الأساسية، حين أضطر للتأخير لظرف طارئ كانت تتأخر عن عمد لتبقى معي وإذا أصررت عليها أن تذهب تتصل بي من البيت مراراً لتذكرني بأن أغادر.

كنت على استعداد لمغادرة مكتبي، هكذا أصبحت فجأة دقيقة في موعد الحضور والانصراف، كما لم أفعل أبداً، ألقيت نظرة طويلة على شكلي وهندامي وتفرست جيداً في المرآة الموجودة أعلى المغسلة في إحدى زوايا الممر المؤدي إلى باب الخروج، ابتسمت لوجهي، كان صافياً كما أحب أن أصفه دائماً. تجولت في المؤسسة، دخلت المكاتب الخالية من شاغليها، مازال دفء أنفاسهم يعبق بالمكان، رائحة العطور ودخان السجاير، كانت أقرب إلى الفوضى كروح الشباب التي تنفر من النظام وتعشق السرعة.

عدت إلى مكتبي سريعاً، فقد تذكرت أن أجمع بعض أوراقي لحملها إلى البيت لمراجعتها، كان اهتمامي بهموم الفئة التي تعاني من فرط مشاعرها ورقة أحاسيسها الزائدة عن الحد، فأحاول بعد عودتي إلى البيت إجراء اتصالات بمن أبدى استعداداً للتعاون معنا والمساعدة في حل المشاكل التي تحتاج إلى عون فعلي كإيجاد عمل لمن كانوا دون عمل للتوسط في حل مشكلة بين بعضهم وبعض الجهات، كان ذلك مهماً لإزالة أسباب المعاناة، وبعدها يصبح للبوح معنى آخر ويعطي نتائج إيجابية.

دون تفكير فتحت درجاً بعينه على يميني، واستخرجت بضعة مظاريف زرقاء اللون تحتوي على رسائل وصلتني تباعداً خلال أسابيع بمعدل رسالة كل يوم، لم أعرها اهتماماً في بداية الأمر، لولا أنها لفتت نظر الدكتور جمال، وشغلت ملك بمتابعة وصولها وفضها وقراءتها معي. أضفتها إلى مجموعة الأوراق المعدة وحملتها بشكل حميم كأنني أخشى فقدانها كحرصي على درر ثمينة لا تقدر.

في منتصف الممر سمعت ملك تصيح بمرحها المعهود:

– أنادي عليك سيدتي ألا تتلطفين بالرد؟

قلت على عجل:

– آسفة ملك لم أسمعك.

– نسيت وجودي أيضاً، تغادرين دون تحية. ألم أخبرك بأن في تلك الرسائل سحراً؟ أكاد لا أصدق أنك فتون التي أعرفها، التي تنسى موعد الانصراف وموعد الأكل أو تنسى الكثير من ضروريات الحياة. الحقيقة لقد فعلت تلك المغلفات فيك ما لم يستطعه أحد منا.

لم أرد بل ابتسمت وخرجت بعد أن حييتها بإيماءة سريعة برأسي، ولكن قبل أن أدخل إلى المصعد لحقت بي وهي تضحك قائلة:

– غداً أريد إيضاحاً، لماذا صرت تخفينها عني؟ صدقيني لم أكن أتوقع أن بضع رسائل زرقاء تنشب كل هذه الثورة فيك، على كل حال مرحى لمرسلها.

– صدقيني، لم تكن لتلفت نظري لولا أنك شجعتني على أخذها وقراءتها مرات ومرات، حين كنت تؤكدين أنها ترطب النفس، لعلي ضحكت، كيف سترطب رسائل من شخص لا أعرفه نفساً منهكة إلى درجة المرض معظم الأحيان؟ بعد قراءتها سريعاً أحسست أن بها شيئاً غير عادي، أدركت أنها ربما تكون قدري، أقول بصدق، أتمنى أن يكون هو الإنسان الذي أنتظره منذ أن وعيت أن الدنيا رجل وامرأة متناسبان متكافئان، يكملان معادلة الطبيعة التي لا يحق لأحدنا أن يغيرها تحت وطأة معاناة ما أو خطأ أو سوء تصرف.

قالت ملك:

– بماذا يختلف ما في هذه الرسائل عما جاءك من قبل؟ في الماضي القريب كنت تلقين بها جانباً متهكمة بأنها من مراهق غير ناضج.

– الصدق.. الحرارة. في الكلام كم من الصدق لم يعد موجوداً في هذا الزمان، ثم هذه العاطفة المتوهجة مثل بركان كما قال في إحداها، من يدري لعله هو فعلاً.

هبط المصعد، أحسست بسرعته غير عادية أو لعلها عادية لم أكن أحس بها من قبل، حين خرجت منه وجدت كثيراً من الناس تروح وتغدو في مدخل المبنى، لم الاستغراب؟ إنه موعد المغادرة اليومية، لفت نظري أنهم يعرفون بعضهم بعضاً، لذا فقد كان في التحيات التي لا تنقطع الكثير من

الألفة والمودة، تمنيت أن أكون واحدة منهم، أردت أن أتواصل معهم، شعور يفرضه علينا مزاجنا حين يكون معتدلاً، حين يخلط بين الجد والفرح، فرح يكاد يخرج الإنسان عن طوره فيتمسك بالجدية. استحوذ علي شعور الفرح تمنيت أن أحيي كل من يصادفني، أو أخبرهم أنني أحيا مثلهم، وأحلم مثلهم، وأهفو إلى الفرح الحقيقي مثلهم، انطفأت فرحتي في صدري، لم يصلني منهم أكثر من تودد متكلف، عذرتهم فأنا قلما أغادر في نفس موعدهم، بل قلما أرى الوجوه أو أسمع الكلام أو أرد على تحية، وجهي ليس غريباً عنهم، بينما وجوههم غريبة عني، يعرفونني ويتجنبون التبسط معي، كما يتعاملون مع بعضهم بعض. يا إلهي أين كنت قبلك أيها الإنسان الرائع؟

في الطريق إلى البيت كنت أقود سيارتي على مهل بوحي من ذلك الفرح الخفي الذي يظهر ويختفي وكأنني خارجة تواً من حفلة سمر أو لمة أصحاب، أستمع إلى موسيقى هادئة، فتكون لعواطفي المشبوبة مثل كابح سيارتي الذي أستعمله بين حين وحين، فجأة وجدتني أحول مؤشر الراديو، وأتوقف عند أغنية حب راقصة، لم أعرف من يغنيها، ولكني شعرت بتمازجها مع نفسي مع مشاعر فياضة جديدة تغمرني، حين تنشب الحيرة أظافرها في وعيي أتجاهلها، بل وأتحداها فأدندن مع اللحن، وأسترق النظر إلى تلك الرسائل الغافية بجانبي، بانتظار إشارة مني لتشتعل كلماتها وتدك كياني. منذ مدة لم أعد أستقبلها بفتور كما حصل في البداية، بل أصبحت أنتظرها كل يوم، بكل عطش السنين، ليس ذلك فقط، بل تعودت أن أرد عليها، وأحتفظ بالرد مع الرسالة ذاتها، ليس لأنني مازلت لا أعرف له اسماً أو عنواناً، بل لأنني حريصة على التأكد أنه فعلاً إنسان حياتي، وأن حدسي صحيح وخارق.

شيء لا يصدق أن يتسنى لي أن أجد رداً على كل كلمة كتبها لي قبل أن أعرف أنه موجود، وقبل أن تصلني كلماته، منتظرة في دفتر خواطري العتيد، وفي الرسائل الكثيرة التي وصلتني بعد ذلك، أخبرني فيها أنه كتبها قبل أن يهتدي إليّ، في زمن البحث الدائم عني، صدقته فمثل هذا الشيء حصل معي. شيء محير لكن الحاسة الغريبة الخفية عند كل منا شيء حقيقي وموجود.

راقدة بين مجموعة الأوراق التي ألقيتها على المقعد المجاور، أتطلع إليها بلهفة تضج بالحياة وتعيد إليّ فيض مشاعري الصادقة، ووعياً كاملاً، وإحساساً راقياً بنفسي. نعم أحس بنفسي تريد وترغب وتنتظر وتتلهف، فيعود ذلك الدفق الغريب من الفرح.

دخلت البيت، سمعت صوت ضحكات وضجيج، استقبلتني أختي عند الباب وهمست:

– عندنا ضيوف بعض الأهل والأصدقاء دعوتهم إلى العشاء منذ أمس، لم أجد فرصة لأخبرك، وهم يسألون عنك، ادخلي إليهم وحييهم ثم الحقي بي إلى المطبخ، أريد مساعدتك.

على الرغم من إحساسي بعبء وجودهم رحبت بهم واعتذرت عن التأخير، بادرني جميع من حولي بتعليقات كثيرة، يؤكد كل منهم أن شيئاً فيّ تغيير. بعضهم يقول شيء في وجهك، آخرون يقولون عيناك أو كلامك، تساءلت محاولة مني للتلطف:

– المهم أن يكون التغيير إلى الأحسن وليس الأسوأ؟

عاد الجميع يتكلمون بصوت واحد ومشاعر فياضة قد تكون صادقة أو مبالغ فيها، قطعت سيل المجاملات ودخلت غرفتي، ووضعت حملي على طاولة معدة في الغرفة لكتابتي الليلية، غيرت ملابسي بسرعة وارتديت أخرى مريحة وخفيفة وانتعلت حذاء طرياً بدون كعب، وانطلقت إلى المطبخ لتقديم العون. كانت أختي منهمكة تماماً في العمل، التفتت إلي، التقت أعيننا، رأيت تساؤلاً عندها قلت قاطعة عليها الطريق:

– كان يوماً متعباً.

باشرت أراقب سير العمل بينما أختي تقول:

– أصبحت تواظبين على الحضور مبكراً إلى البيت، كنت أخشى أن تعود إليك حالة اللامبالاة بالتوقيت فجأة وتتأخرين اليوم بالذات، أتمنى أن يصبح هذا التغيير عادة.

صرت دائماً أربط بين كل تساؤل وبين الرسائل، ما إن وصل تفكيري إلى الرسائل حتى ألقيت ما بيدي وخرجت مسرعة، صوت أختي المندهش يأتي من البعيد وهي تتساءل:

– ماذا بك؟

لم أرد، أسرعت إلى غرفتي، فقد تذكرت المغلفات الزرقاء الملقاة بإهمال مع أوراق العمل، ما أن رآني الجميع حتى هللوا صارخين مطالبين بالطعام سريعاً، ضحكت بجذل وأنا أشير لهم دون كلام أن العشاء سيكون جاهزاً بعد قليل.

دخلت غرفتي، وأخذت المظاريف، لامستها بحنو بالغ، وقفت برهة أتخير مكاناً مناسباً، تقدمت من السرير ووضعتها تحت الوسائد مخبأ أوراقي الأمين، لكن قبل أن أصل إلى الباب عدت إليها أحملها من جديد وأضعها في الخزانة وأقفل عليها بالمفتاح الذي انتزعته بلهفة وخرجت.

بدا وقت العشاء طويلاً ومقيتاً. لم أستطع أن أسامر وأجامل وأفتح أبواباً واسعة للنقاش، الذي يكون في معظمه مكرراً وفارغاً في مثل تلك الزيارات. حتى قالت إحدى المدعوات:

– ماذا بك؟ لقد تغير وجهك وبدا عليك التعب.

وجدتها فرصة مناسبة لأقول:

– الحقيقة أنني أعاني صداعاً قاسياً منذ الصباح وكان اليوم متعباً جداً.

قالت أخرى:

– إنك ترهقين نفسك بمشاكل الناس ومتاعبهم، في الوقت الذي أصبح كل فرد يقول يا الله نفسي، ثم أن المشاكل موزعة على الجميع دون استثناء فتأخذ كل الوقت، فماله وللآخرين.

قلت وأنا أحاول أن أوجز قدر الإمكان:

– السبب الرئيسي لإنشاء مؤسستنا هو ما تقولينه تماماً، انشغال كل فرد بهمومه ومشاكله، يوم باشرنا العمل على الهاتف فوجئنا بهذا الكم من الناس المحتاجين لمن يستمع إليهم، وفعلاً أفضوا بمتاعبهم ومشاكلهم قبل التأكد من أهداف تلك الدعوة البسيطة للاتصال برقم محدد للمساعدة.

قالت أخرى:

– أقول الحق، لم أكن مصدقة أن شيئاً مثل هذا قد ينجح، ثم أعجبت بالفكرة جداً بعد أن حدثتني عنها صديقة ابنتي منى. حمدا لله أنه مازال في الدنيا نفوس خيّرة بيننا تقدم نفسها للتخفيف عن نفوس الآخرين.

قلت وأنا أنهض ألملم الأطباق الفارغة إيذاناً بانتهاء العشاء والحديث:

– عندك حق، إنه عمل يريد الكثير من العزم والإيثار والإصرار. ثم إنني أرجوك يا عمة ألا تذكري أسماء في المرة القادمة حفاظاً على الخصوصية التي هي من حق كل إنسان.

انفض العشاء، غادر الجمع المكان، أسرعت بدوري إلى غرفتي، أغلقت الباب بالمفتاح، ثم بدأت أستعد لخلوة انتظرتها طوال اليوم. كنت أريد أن أكون في أسعد حالاتي حين اقرأها، انتعشت بعد الحمام الساخن، تدفق المياه بقوة جعلت أفكاري تتركز على نفسي، لأول مرة أشعر بمثل هذه الغبطة وهذا النشاط كأنني عدت سنوات إلى الوراء وأعيش موعد غرام ولو على الورق، أنا التي ما رضخت لمثل تلك المواقف في أي مرحلة من مراحل عمري، هل هذا ممكن وحقيقي؟ لست أدري؟

جلست على مقعدي المريح أمام مرآتي أنشف شعري وأعطر جسدي، اخترت قميصاً حريرياً رقيقاً انزلق برفق على جسدي، سرت في خفة ووداعة إلى الخزانة أحمل مفتاحها بيدي بحرص كأنه روحي، أضعه باضطراب باد في الثقب وأديره بشغف، فتحت الخزانة وامتدت أصابعي تعبث بين طيات الثياب، وتعود قابضة على مجموعة الرسائل، فأتناولها بيدي الأخرى، أغلق الخزانة بتؤدة، أقف برهة لأسترد أنفاسي المبهورة.

تذكرت وجه الدكتور جمال حين تكرر وجود تلك الرسائل في بريد المؤسسة، كان ممتعضاً وهو يتفحصها طويلاً ويقلبها بين يديه، يشم رائحتها، يبحث بكل الطرق عن إشارة تدل على مرسلها، ثم يتركها أمامي وينصرف. لكنه في ذلك اليوم حين فرغ من تقليبها، رفع رأسه ونظر إليّ، وجدني أنظر إليه بشيء من لوم رقيق أعادها إليّ قائلاً:

– آسف، إنها رسائل خاصة جداً.

أجبته ببساطة:

– لم أعرف لها مصدراً ولا صاحباً. كيف عرفت أنها رسائل خاصة جداً؟

– إنها معنونة باسمك.

– وماذا في ذلك؟ معظم الرسائل ترد معنونة باسمي.

– إنها رسائل حب. لك وليس لأحد سواك.

قلت أوافقه:

– إنها فعلاً رسائل حب.. لقد قرأت بعضها.. موجه إلى امرأة لا أعرفها. أعتقد أنها رسائل هزل لا تستحق الالتفات.

تبرم من الجواب واستدار مغادراً المؤسسة قبل أن يستفهم عن أخبار العمل ويرى البريد كالعادة، لم أهتم بتعليقه، ولا بفضوله الممجوج، لكن أعترف الآن أنه بتعليقاته تلك دفع بي أن أخصها باهتمامي، صرت أستلمها وأخفيها في درج مكتبي. أمس كان اليوم الفصل، جاءت الرسالة الأولى التي تحمل اسمي ولكنها مغفلة من اسم مرسلها، واليوم جاءت الرسالة التي تحمل اسمه الأول. فقررت أن أجمعها وآخذها إلى البيت.

سرت كالمنومة إلى السرير، واستلقيت بهدوء مسندة رأسي على وسائدي، أضأت النور بجانبي،لم أبحث كعادتي عن نظارتي، على غير العادة وجدتها في متناول يدي، كأنما أحضرتها لي ملائكة الحب بسرعة خارقة، فتحت الرسائل رتبتها حسب تاريخ ورودها، إنها منه من ذلك الشخص الماثل في وجداني، خط واضح ورائع وأسلوب مبهر.

وقرأت:

إليك يا من أحببتك قبل أن تظهري في حياتي، وأحببتك بعد أن عرفتك منذ النظرة الأولى، يا من سأحبك إلى ما بعد الموت.

أيتها المرأة الشامخة، شموخ لؤلؤة خارجة للتو من قلب محار. يا ألق جدّد حياتي. أين أنت؟ أين كنت؟ كيف أتيت؟ أخرجت لي من طيب الأحلام أم من يقين الحقيقة؟ ما أروعك، ما أحوجني إليك، تعالي لتنقذي روحي من صقيع هاجمها في عز العمر، تعالي لتهبيها دفء ربيع وجودك.

مشتاق أنا إلى ضوء عينيك، عشت دهراً أرنو إليك، عشت عمراً أنتظر، كما تنتظر الأرض أفراح الربيع، وأخيراً أتيت، امرأة رائعة متفجرة العواطف مثل البركان، ما أروعه من بركان.

التوقيع؟؟؟؟

اشتد ذهولي، هذا الكلام ألم أسمعه من قبل؟ هل حقاً أقرأه الآن على ورق من شخص لا أعرفه أم إنه أمامي أراه وأسمعه؟ إن قائل هذا الكلام لا يهذر بل يعني ما يقول، يبحث عني كما أبحث عنه، فقد التصق بشغاف القلب العمر كله، أعرف صفاته وملامحه، أحفظها عن ظهر قلب، كان غائباً وقد عاد، يعرف أنني بانتظاره فجاء، هو ذاك الموجود في أوراقي، ووجهه منقوش على صفحات دفاتري.

قرأت:

إليك يا امرأة أعطيها حياتي.

هل أخبرك جديداً إن قلت، أن العمر بك صار أغلى، والحياة أجمل، وأصبحت مثل نورس أحلق مترنماً بأغاني الشطآن؟

هل أخبرك عجباً، أنني حين أكتب إليك –وكل ما كتبته وما سأكتبه هو لك قبل أن ألقاك وبعد لقياك– تتساقط الأحرف من قلمي مثل أوراق الورد الصافي مملوءة بالسحر المعجز؟

هل أصغيت في عتم الليل، لحكايات قلبي المروية بشوق السنين عن وجعه مع الأيام؟ حين تسمعينه عديه بأن تنسيه أحزانه بحب كبير مثل ما لك عندي حتى تزهر أشجاري اليابسة الأغصان.

التوقيع؟؟؟؟

وقرأت:

حبيبتي البعيدة المنال:

أعترف أنني قاومت طويلاً حين شعرت بضعف الأمل في اللقاء، لكنني أخيراً استسلمت، بعد أن رفضت، حاصرت نفسي كثيراً، ثم سلمت، ها أنا ذا أرفع الراية البيضاء، ماذا يجري؟ هل انكفأت خيلي؟

التوقيع؟؟؟؟

إلى حبيبتي..

رأيتك مرة أخرى، من بعيد هذا صحيح. لكنها رؤى سماوية في وحشة ليلة من زمن كالفحم سواده طغى على عقلي ومشاعري، اقتربت من اليأس لولا أن برقت في العتمة عيناك.. حبيبتي.

في تلك الليلة من زمن كالعلقم طعماً، لولا أن وعدتني عيناك حبيبتي أن تسقي روحي شهداً من هذا الثغر الضاحك.

أدعوك لحب، أدعوك لبيت، يجمع القلبين كالكعبة قدسي. بيت تغمرينه بالحنان والأشواق السماوية، تملئينه حباً ودفء من دفء الجنة، بيتاً تحتضنه أشجار الجنة، ينتشر فيه أريج الحب العلوي المتأصل فينا والشوق المتنامي أبداً فينا.

التوقيع م.م.

رسائله كلها تحمل الطابع الصادق ذاته، إنها ليلتي، موعدي مع الحياة –حتى الآن، وبعد كل ما حصل لم أوجه اللوم لنفسي، ولن أندم أبداً على اندفاعي– كان من الضروري، ومن الطبيعي، أن يبزغ نجم سمائي الحالكة ذات يوم، عشت عمري بانتظاره.

ماذا بعد أن عرفت بوجوده؟ صرت أبحث عنه في كل الوجوه صرت أتساءل ترى أين رآني؟ من هو؟ أين هو؟ أين أنت؟ أيها الحبيب الغائب الحاضر؟

أقلب أوراقي الخاصة، أقرأ تواريخها، كل صفحة كانت تحمل صورة حقيقة له، تصفه شكلاً وطباعاً، تحكي عن أخلاقه ومميزاته، لابد أن يكون إنساناً فريداً نادراً، فلن يجسر على تخطي حواجز

نفسي إلا فارس، أو حسب وصف الدكتور جمال بعد أن علم بذلك الحدث العظيم، وعلم أنني تجاوبت وأحببت قال كلمة لم أحسه مبالغاً فيها "انه إنسان خارق"؟ نعم إنه خارق.

ليالي كثيرة لم أنم، لا أدّعي أنني كنت فيها مسهدة ضجرة من هجر النوم لي، ولا صحوت في صباحي التالي مجهدة. اليوم الأول بحق كان يوماً مشرقاً، يوم ميلاد حقيقي لي، بعده تبدل حالي. خطواتي بدت أكثر رشاقة، ووجهي أكثر إشراقاً، وقلبي أتسع حتى شعرت بالحب يتعاظم في نفسي، ويغمر الجميع، الناس والأشياء والأصوات والأنفاس آه.. كم هو جميل أن تشعر أنك تعيش حقيقة، وليس لأنك لم تمت بعد.

أصبحت أيامي أخف وطأة، وأحزاني الملازمة لي أعمق غوراً، منتظمة في أوقات العمل أكثر من ذي قبل، إحساسي بكل شيء حولي جعلني منبهرة مبتسمة لكل شيء.

(2)

دخلت ملك المؤسسة ألقت تحية الصباح بشكل تلقائي واتجهت إلى مكتبها، إلا أنها تراجعت وعادت إليّ، وقفت أمامي وصاحت باندهاش:

– آسفة سيدتي، لعلي دخلت المكان الخطأ.

قلت ضاحكة من أعماقي:

– ماذا دهاك؟ كيف تلقين بالتحية كمن يتخلص من عبء؟ أ هكذا يكون السلام؟

قالت وعيناها تزدادان دهشة ولمعاناً:

– آه.. من أنت سيدتي؟ إنك امرأة أخرى غير التي أعرف.. فتلك كانت المرأة الآلة والتي أمامي الآن تنبض حياة.. لحظات وأتخفف من حملي وأعود إليك بالقهوة، ستكون نخب هذا التغيير الطارىء.. لا.. الحقيقة أتمنى ألا يكون طارئاً، بل طبيعة حقيقية ثابتة.

جلسنا متقابلتين على مقاعد الزوار نحتسي القهوة، قالت ملك:

– ما الذي جرى؟ كنت حريصة ألا نضيع دقيقة واحدة قبل موعد الغداء.

قلت بلامبالاة:

– لا رغبة لي في العمل، كأنني كنت أسيرة وأفرج عني، سعادة بحجم الدنيا تغمرني، أريد الانطلاق أتمنى أن أطير وأحلق في السماء ولا أعود.

قالت جادة:

– غريب أمر الإنسان، أحياناً ينتابه شعور بالإحباط لدرجة الوقوع في براثن اليأس، فيتمنى أن يبكي أو يصرخ أو يحلق ويرحل إلى البعيد، ثم يعيش شعوراً مناقضاً، كأن يشعر بالسعادة تملأ أعطافه، أو حالة رضا تام عن الدنيا ونفسه والناس، فتكون أمنيته أيضاً أن يبكي أو يصرخ أو يحلق في كل الأجواء. أتذكرين حينما كنت في ذروة المحنة؟ تمنيت ما تتمنينه الآن وكذلك حصل معي. أهو عشق الهروب من اللحظة أو إليها؟

سمعت صوت وداد في المؤسسة، علقت سريعاً:

– أعتقد أننا نقوم سريعاً من كبواتنا أنا وأنت ومن على شاكلتنا، لأننا نعترف بمنتهى الأمانة بأننا نعاني فعلاً. وفي الموقف الصعب نطلب المساعدة بجدية، ونتقبلها مهما كانت بسيطة، حتى وإن كانت على شكل اهتمام أو استماع.

قالت ملك وهي تبتسم في حنان:

– إنك تتحدثين عن وداد. تعتقد بشكل جازم أنها لا تعاني أي مشكلة سوى القولون اللعين، أعرف أن إصرارها على ذلك يثير أعصابك، ولكن إذا كان حضورها إلينا يريحها فلتحضر.

قلت بتهكم:

– إنها تحضر إلى هنا وكأنها ذاهبة إلى كافتيريا، وبدل أن تتحدث عما يعنيها شخصياً تتحدث عن فضائح الناس من تعرف ومن لا تعرف، وقد أخبرت الدكتور جمال أنها بحاجة له وليس لنا.

قالت ملك:

– لقد يئس منها. كانت عنده الأسبوع الماضي، جاءته بعد غياب طويل، وجلست أمامه، وبدأت تسأله في كل شيء، ما يخصه وما يخص مرضاه. قاطعها دون أن يلتفت إليها بأنه لم ينس أنه طلب منها ألا تعود إلا إذا كان في نيتها مساعدته، لأنه ليس منجماً أو دجالاً، فإذا لم تصارحه فلن يستطيع معالجتها.

قلت:

– فها هي أتت إلينا لتتسلى بنا أو علينا.

دخلت وداد حيتنا بتحفظ ثم جلست وسكتت، فأشارت لها ملك وهي تقف أن تتبعها إلى الغرفة الأخرى ولكنها رفضت وبقيت جالسة مكانها، استدركت قائلة:

– أهلاً وسهلاً. لك ما تريدين، لكن لدي موعد بعد نصف ساعة، فتفضلي وأعلمينا كيف نستطيع مساعدتك، عليك فقط بالإشارة ونحن رهن إشارتك.

– مهلاً عليّ، مشكلتي الأساسية أنني لم أعتد الشكوى أمام أحد ولو كان أقرب الناس إلي. لا أعرف كيف؟ لا أعرف لماذا؟ ولا أعرف لماذا لا يصدق أحد أنها طبيعتي؟

– هذا شيء عظيم وخارق للطبيعة أن يعيش إنسان وحده ويكتفي بنفسه مع أنه خلق اجتماعياً بطبعه، النساء عادة يثرثرن بأدق مشاكلهن منذ اللقاء الأول دون الشعور بالحرج، حصل هذا أمامي بل معي كثيراً، سمعت مشاكل أقرب للسرية في أماكن لا تليق بتلك الخصوصية، عند مصففي الشعر، أو في غرف الانتظار في عيادات الأطباء بكافة اختصاصاتهم، في النوادي الرياضية أيضاً. إذا لم تكوني من هواة الثرثرة فلن نستطيع مساعدتك.

قالت بتحد:

– لماذا تقطعين عليّ الطريق؟ أقنعيني بأهمية ذلك.

قلت:

– ليست مهمتي أن أقنعك، ولكن مهمتي الأساسية أن أسمعك، بعد أن تكوني قد وصلت إلينا عن قناعة أنك بحاجة فقط لمن يستمع أو يقدم مساعدة ما. على كل حال تحضرني الآن قصة أعتقد أنها من قصص التراث التي تتناقلها الجدات عادة، فأرجو أن تصلي في نهاياتها إلى ما فيها من الحكمة.

تقول القصة إن فتاة تزوجت وذهبت مع زوجها إلى بلد بعيد. عاشت غريبة بين أهله، كانت صغيرة السن، قليلة الحيلة، قليلة الخبرة في معرفة الطريقة المثلى للتعامل مع الناس، ولم تستسغ تلك العلاقات السطحية التي أغرقها بها من حولها من أهل زوجها أو جيرانها وبقية المعارف. غابت ما يقارب

السنتين عن أهلها، ثم رجعت لزيارتهم. دهشت الأم حين رأت ابنتها حزينة كئيبة وقد خسر الكثير من وزنها ومن نضارتها، راقبت الأمر، وجدت زوج ابنتها كريماً محباً ودوداً، فاستغربت من حال ابنتها، فأرادت استعمال حكمتها التي اشتهرت بها وقد أدركت سبب علة ابنتها فسألتها على انفراد:

– تبدين غير سعيدة، لماذا وأنت تملكين الكثير وخاصة هذا الزوج المحب وهذا الطفل الرائع؟

– لا أعرف يا أمي، لعلني أفتقدك، أحتاج لمن يكون قريباً مني كنفسي، أستطيع أن أكون معه على طبيعتي، فلا يخذلني بكلمة أو قول أو فعل، مهما كنت على خطأ، ومهما كنت متذمرة بلا سبب، الإنسان يتعب أحياناً من لاشيء، ويود أن يتخلص من همومه لو بكلام سخيف لا يسمن ولا يغني من جوع.

قالت الأم وقد استعادت فرحتها، لأنها أدركت أن تقديرها في محله، وأن ابنتها طبيعية تفتقد ما يفتقده معظم الناس:

– اسمعي يا ابنتي، عندي لك نصيحة مجربة ستساعدك، أحضري حجراً كبيراً نوعاً ما، وغطيه بحيث تنسي أنه حجر، وضعيه في أقرب مكان إليك، ولكن دون أن يراه أحد سواك، ثم اجعليه مؤنسك وصديقك وأمك وأبيك، بثيه شكواك كلما احتجت ذلك وأخبريني بالنتيجة.

أيام طوال مضت والبنت تعمل بنصيحة أمها، وذات يوم قررت أن تنقل حجرها إلى مكان آخر، ورأت ما لم يخطر لها على بال. هل تستطيعين يا وداد أن تخمني ما الذي أثار دهشة البنت؟

فكرت قليلاً، وقالت على عجل:

– أرجوك أخبريني ماذا وجدت؟

ضحكت كثيراً، وسررت أنني أثرت فضولها فقلت:

– وجدت الحجر هيكلاً فقط، خفيفاً خاوياً من الداخل، لقد نخر من شكواها وتفتتت أعماقه بينما كانت هي قد ازدادت شباباً وجمالاً وصبراً وقوة على مدى الأيام.

انبسطت أساريرها وقامت واقفة بمرح وهي تودعني وتقول لملك:

– إلى اللقاء غداً وسأكون على استعداد تام للدردشة المفيدة.

بعد خروجها عدت إلى مكتبي أجمع بعض الأوراق وجدت ملك ترجع إلي وتسألني:

– يبدو أنك تمرست في هذا العمل جيداً وعرفت ما هو مطلوب منا، ترى هل أحببته؟

قلت لها:

– هذا هو السؤال الأهم، اعتقد أن الإنسان لا ينجح إلا إذا أحب عمله، ولا أنكر أن هذا الطريق قادني إلى اكتشاف قدرات كامنة فيّ، كان للدكتور جمال الفضل الأول في إطلاقها ولك الفضل الثاني.

– لقد أحببته أيضاً وسعيدة أكثر أن نجحت فكرة مثل هذه في بلادنا، رغم ما نتحمله ونعانيه فإنني فرحة فخورة حقاً.

خرجت ثم عادت وهي تقول:

– لا أعرف لماذاً أتخيل أن إحدانا قد تقع في إحباط ما أو خذلان ما، وتحتاج للأخرى، فلا تستطيع مساعدتها للخروج من مأزقها. سيكون ذلك أضحوكة أليس كذلك؟

قبل أن أرد رأيت الفتاة واقفة بالباب تحييني وتبتسم بشجاعة وفي نظراتها جرأة أكثر مما كانت عليه في المرات السابقة. أثار حماستي رجوعها إلينا بعد فشلنا في التواصل الحقيقي في اللقاء الأخير، قمت أستقبلها بينما كانت ملك تغادر إلى عملها وتتركنا على انفراد.

جلسنا متقابلتين كما أجلس مع ملك حين نكون بحاجة للدفء وللكلمة الصادقة، على وجهينا تغلب مشاعر حب وتقدير، كانت الفتاة قد تجاوزت الثلاثين ببضع سنوات إلا أنها متزوجة منذ سنوات تقارب الخمس عشرة سنة. لقبتها بالفتاة منذ اللقاء الأول، فهي بالفعل مازالت تماما عند العمر الذي تزوجت فيه ولم تنضج بما فيه الكفاية لكن الإحساس الذي يراودها يبشر بخير. قالت:

– أعتقد أنك اليوم مرتاحة أكثر مما كنت في آخر لقاء بيننا، تبدين في منتهى الرقة والأناقة.

– أنني صادقة مع نفسي ومع الغير، لكل فرد مزاجه الخاص والمتقلب نتيجة صراعات الحياة، جميل ألا ينافق أحداً ولا يضلل نفسه فيبدي غير ما يخفي. وأنت نفسك كنت في المرة الأخيرة فاقدة الحماسة والثقة نهائياً بنفسك وبالمؤسسة، وهي أهم مقومات نجاحنا سوياً.

فجأة ودون مقدمات رأيتها تندفع في الكلام في حديث ساخن وسريع وصادق. تعمدت ألا أتابعها باستمرار، أثارت مشكلتها كوامن نفسي، إن سبب تدميرها كان نتيجة زواجها المبكر واكتشافها بعد كل السنوات التي عاشتها مع زوجها إنه آخر شخص يناسبها، حين سكتت، تنبهت ونظرت إليها رأيتها تبتسم، بل أستطيع أن أقول أنها سعيدة، علقت بمثل هذا الكلام قالت:

– مهم جداً أن يجد المرء من يستمع لشكواه، ومهم جداً أن يكون ذلك الشخص على الحياد ليكون محل ثقة وأمانة.

– هل تنتظرين مني أن اقدم لك النصح في بعض أمورك التي شرحتها؟

– ليس مهماً، وإن كنت على أتم الاستعداد للسماع، لقد تجاوزت الخطوة الأولى، الجرأة على البوح من أجل البوح ليس إلا، وتوصلت إلى شيء هام أنني حين سمعت مشكلتي بصوتي العالي رأيت الأمور أكثر وضوحاً، وتفتحت أمامي آفاق أستطيع التطلع من خلالها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. فشكراً لك.

كان يجب أن أحكي لها بدوري بعض معاناتي فذلك يريحها من جهة، ويدفعها إلى المزيد من الثقة بي وبنفسها وبالغد. فقلت:

– لقد عشت ظروفاً مشابهة لظروفك، أعتقد أن النصح دائماً كان يأتي على شكل قتل غير مباشر، الجميع كانوا يؤكدون أنه لا سبيل أمامي إلا الاستسلام للنصيب والحظ. لعلي لم أكن أريد الانفصال وقتها بقدر ما كنت أنشد مساعدة ما لإيجاد وسيلة أدخل بها لعالم يخصني، أجد فيه بعض ما يريحني ويسعدني، أجد فيه ما أبحث عنه. الحقيقة حين جاء القول الفصل كان لي وحدي.

وجدتها تزفر وتمنع دموعها، وتقول بشجاعة أطربتني:

– معك حق.. أنا الآن في طور الإفضاء وسوف أجد طريقي وسنبقى على اتصال.

انتصف النهار، أنهيت ما بين يدي من أوراق، أصلحت هندامي وبدأت أستعد للخروج في موعد الغداء، قبل أن أغادر جاءتني ليلى بالبريد وضعته على الطاولة أمامي دون أن تنبس بكلمة، وجدت مع البريد المكوم دون ترتيب على الطاولة أمامي إشعاراً لاستلام طرد بريدي من مكتب البريد، فقمت أستعجل المغادرة، جمعت أوراقي، وحملت حقيبة أشيائي الخاصة وخرجت إلى مكتب ملك نقرت بابها فأطلت برأسها قائلة:

– أراك على أتم الاستعداد للخروج، أذهبي أنت في أمان الله. عندي صديقتي التي تعرفت عليها منذ سنوات في أميركا سأبقى معها قليلا.

– لكن عندي طرداً بريدياً لا أعرف ممن ولا ما هو، وأريدك أن تذهبي معي إلى مكتب البريد لإحضاره.

– لا أستطيع تركها قبل أن تنتهي يافتون. اتركي الأمر إلى الغد أو إلى المساء.

_ لا أستطيع الانتظار، لعله مهم، وإلا كان وصلني بطريقة عادية، سأذهب وحدي.

لا أعرف من أين خرجت ليلى، فقد وجدتها أمامي تعرض علي خدماتها، فوافقت بينما امتعضت ملك، خرجنا سوياً أنا وليلى في سيارتي وتوجهنا رأساً إلى مكتب البريد.

عدت من مكتب البريد إلى بيتي بعد أن أوصلت ليلى إلى أقرب مكان للذهاب إلى بيتها واتجهت نحو الطريق العام المؤدي إلى بيتي، خطر لي أن أمر على بيت ملك لنرى سوياً ما بداخل الطرد الذي استلمته منذ دقائق ثم نتناول غداءنا معاً كما نفعل غالباً، لكنني لم أجد سيارتها، أسرعت أغير سيري وآخذ أقرب طريق إلى بيتي.

ملأ ذلك الطرد تفكيري وكل ما حولي منذ قرأت اسمي الكامل عليه السيدة فتون طالب واسم مرسله الكامل ماهر مؤمن، لأول مرة أعرف أسمه الكامل، كان ذاك اللغز المغلق قد بدأ يتجسد في خيالي وفي كل ما حولي، نفسي والمقعد الخلفي والطريق الممتدة أمامي، مع أنه لا يشغل إلا حيزاً صغيراً في مقعد السيارة الخلفي.

كلمة إهداء رقيقة على البطاقة الملصقة على الطرد انتزعتها وأخفيتها، لم أشأ أن أقرأها أمام ليلى، رغم أنني نسيت مكانتها والمسافة التي بيني وبينها على الأقل في عدم رفع الكلفة بيننا كموظفة وربة

عمل، لكن السعادة التي غمرتني أخرجتني عن وقاري فقبلتها وهي تغادر السيارة، لاحظت أنها كانت متشنجة قليلاً، وبعد أن غادرت السيارة تذكرت فضولها في محاولاتها المستمرة لقراءة الكلمات الموجودة على البطاقة التي ألقيتها بجانبي بعيدة عنها.

فتحت الطرد بلهفة جعلتني أمزق الغلاف الخارجي كطفل أمامه أمنية عزيزة وتحققت،كانت الهدية عبارة عن تمثال لرجل وامرأة ملتصقان تماماً كأنهما التوأمان اللذان يولدان متلاصقين. كان تمثالاً جميلاً من الكريستال بهرني، وضعته أمامي على طاولة مكتبي في غرفة نومي وأخذت أتأمل فيه، لم أتوصل إلى الهدف من تخيره لهذه الهدية، لابد أن به رسالة خاصة يريد أن يوصلها إلي، قمت بجمع الأوراق التي كانت تغلف الطرد وجدت بداخلها رسالة منه، رسالة طويلة، أول رسالة طويلة تحمل اسمي وتنتهي باسمه.

كانت البطاقة الخارجية التي تحمل العنوان تحمل إهداء أيضاً "إلى مليكة قلبي، إلى نصفي الآخر، إلى امرأتي مكملتي، نعم أنت ولا أحد سواك".

تسلحت بالصبر عن قراءة الرسالة، فهي ليست كأي رسالة، حتى رسائله السابقة كانت رموزاً، تثير الفضول وتحرك المشاعر، لكنها لا تدل على شيء واضح، لا تحمل معنى لذلك البركان المتفجر الذي يحكي عنه بكلمات غزلية مقتضبة صادقة، ولا توضح هدفاً. لحظات وأفض هذه الرسالة المخبأة بانتظار أن أفتحها وأعرضها على هذا الحشد المتحفز بداخلي، عقلي الثائر الرافض هذا الأسلوب الذي يتسم برعونة المراهقين، قلبي النابض بسرعة أحسبها مرضية فأحاول تهدئته فلا يستمع ويعيش على الانتظار المتوجس خيفة، الحدس الخارق يؤكد أنه رجلي صنوي الآخر.

الحياة رجل وامرأة، لا بد من التقائهما حتى تصح معادلة الحياة، قد يعيش رجل دون امرأة طوال حياته، وتعيش امرأة دون رجل أيضاً كل عمرها، هذا لا ينفي صحة المعادلة بضرورة وجودهما معاً. قد ينجح كل منهما في الحياة بكافة وجودها، وقد يعيش مع آخر لا يمت له بصلة ولو عاشا سوياً دهراً كاملاً، وينجبان ويكون أولادهما من خيرة الأولاد، ولا يؤكد هذا أنهما متكاملان، سيظلان ينقصهما ذلك التوافق العظيم والتآلف الرائع، ذلك المعنى الكبير الذي من أجله خلق الله نوعان مختلفين في الجنس.

نام الجميع في البيت وانفردت بنفسي وهاجسي ولهفتي، انتهى قلق الانتظار مع فض ظرف الرسالة الزرقاء، قلبت أوراقها، عددت صفحاتها، توقف ناظري على تلك المناداة الرائعة التي خاطبني بها في بداية الرسالة، أغمضت عيني لأريح نفسي من تلاحق أنفاسي وتوتري، أعانني الصمت المطبق حولي، لدنيا كلها هوت في قلب الليل واستكانت وهدأت، في قلب هذا الليل امرأة ساهرة تصلي بقلب مفعم بإيمانه، أن يجمعها بتوأم روحها، فتحت عيني ببطء ورفعت رسالتي بين يدي في منصف المسافة بين قلبي وعيني وقرأت.

حبيبتي.. يا امرأتي الرائعة..

لكل رجل في هذا الكون امرأته التي خلقت لأجله.. ولكل امرأة في هذه الدنيا رجلها الذي خلق لأجلها.. تلك هي سنة الحياة التي أؤمن بها. عشت زمناً في وهم آخر. أتمنى ألا يهزأ بنا القدر فنقول، كان من الأفضل لي ولك أن نبقى في الوهم، وألا نكتشف هذه الحقيقة.

الآن أجد نفسي مؤمناً بنظرية أفلاطون حول الرجل والمرأة.. هو يقول إنها أسطورة ولكن ما أروعها من أسطورة وما أجملها، وكم هي معبرة عن هذا التوق الأبدي الذي يحس به رجل نحو امرأة وامرأة نحو رجل، لكنني لست مؤمناً بالتفسير الموسع لهذه النظرية الأسطورة، وهو أن الرجل تكمله أي امرأة والعكس صحيح..

الرجل تكمله امرأة محددة.. وكل امرأة يكملها رجل بعينه.. لا غيرها ولا غيره.. بعضهم لم يفهم هذه الحقيقة، بعضهم لم يسمع بها، بعضهم فهمها على أنها تعني المرأة التي اختارها، أو وضعها القدر في طريقه. هذا هو الوهم الذي يعيشه معظم الناس ويكون جميلاً.

لكن التوق يشتد عند من شفت نفوسهم، وظمئت قلوبهم للحب المعطاء الجميل.. متعة الحياة وزينتها.. عبق أزهار الحدائق الملونة وانفجار البراكين..

شطرا هذا المخلوق الجميل المتكامل الذي تحدث عنه أفلاطون، فصلتهما يد قاسية، وحكمت عليهما بهذا البحث الأبدي، ولعلها أسدت إليهما صنيعاً عظيماً، بأن جعلت هذا التوق مفجراً لمعاني الجمال والشفافية والشعر العظيم والفن الرائع. فمن رضي الله عنه ورضي عنه والداه، وكان محظوظاً ومنحه الله جنة الدنيا فهو الذي يلاقي شطره الآخر ولا تحرمه منه الظروف.

السعادة كل السعادة أن تجد الشطر الذي يكملك، وأن تهبه ذاتك، ويهبك ذاته، وكل ما يأتي بعد ذلك لا قيمة له.

كيف نعرفه من بين كل مخلوقات الله؟ الجواب بسيط رغم دقته ورهافة الإحساس به. تكون مهموماً.. تكون كئيباً.. تكون قلقاً.. تكون مريضاً.. تكون ما تكون.. فتجد عند نصفك الآخر البهجة والمتعة والسعادة والراحة والارتواء والاستقرار والطمأنينة والسلام. ليس عند الآخر بل في ذاتك التي لا تتفجر إلا بالتقائكما.. وجودكما معاً هو الذي يخلق كل هذا من العدم، لا ليس من العدم تماماً، بل ينبشه من تحت أكوام الحياة الذابلة وركام التفاهات، لأنه أبدي مخلوق معكما.

هذا تفسير هذا الشعور العظيم الذي جذبني نحوك، ولذا كان هذا الانفجار الرائع، ولذا جاءت تلك الصاعقة من الفرح في لحظة مجنونة بالسعادة. بعد ذلك لا شيء يهم أبداً سوى أن تتجاوبي مع هذا الحب الكبير، فكما تأكدت أنك امرأتي أتمنى أن تتأكدي أنني أنا وليس غيري رجلك، أرجو أن تتأكدي بعد أن نتلاقى قريباً.

أحبك كثيراً وسأحبك حتى آخر المطاف، فأنت آخر المطاف، لا أطلب منك حباً مثل حبي حالياً، ولا أريدك أن تقلقي، وتخافي، وتظني أنني مفروض عليك.. سنتقابل، يكفي أن نتقابل بادئ الأمر، ثم لك الخيار برفض هذا الحب أو قبوله، ولك الخيار في الزمن الذي تريدينه للرد، لكن لا تتسرعي فأنا فعلاً أحبك أكثر مما أحب نفسي.

التوقيع

ماهر مؤمن

في الصباح وفي جلستنا الاعتيادية حيث نوزع العمل، بين المهم والأهم، ونشرب قهوتنا أنا وملك ثم نبدأ العمل. كل من الحاضرين كان يتحدث ويتساءل، كنت أشارك أحياناً وأتحسس الرسالة التي في جيبي، سأخبر ملك حالما نفرغ من اجتماعنا هذا، أسرح وراء كل كلمة في الرسالة، وأحاول أن أتكهن برد فعل ملك حين تقرأها، أغيب طويلاً عن الحضور، أعود إليهم وأنا أشدد قبضتي على الأوراق الراقدة بهدوء بين أصابعي، ثم أعود أفردها كأنني أربت على خد حبيب كنت بانتظاره وسيأتي وسأعرفه، كأننا دخلنا في رهان بعد رسالته "أعترف أنني رأيتك مرة كانت كافية، لا تسأليني أين ومتى في أي وقت من الأوقات سيأتي اليوم الذي أخبرك أنا نفسي بذلك، أو قد تتذكرين وجهي وهذا ما أشك فيه، رأيت صورتك مرة أخرى في مجلة "مرآة المرأة" حين نشر بها تحقيق مطول عن افتتاح "مؤسسة المساعدة على الحياة" كان يوم الاحتفال بافتتاحها، كانت النظرة الأولى كافية لأعرفك، فتلك النظرة المتألقة في العينين، والحزن الدفين فيهما، والابتسامة الغامضة المحيرة، هي بعض صفات امرأتي، تأكدت أنك أنت، وعرفتك فهل لك أن تخبريني كيف ستعرفينني حين نتقابل؟". ابتسم لنفسي وأعيد ما قلته بعد قراءتي لرسالته سأعرفك، ألم أقل مراراً إن ملامحك هي بعض ملامحي، ولابد أنك تشبهني كثيراً.

دارت دوامة العمل بنا، لم أكن وحدي في انتظاره، كانت ملك أيضاً في ترقب دائم وكلما تلاقينا حتى من بعيد تسألني إن كان قد اتصل أو حدد موعداً، فأضحك لا شيء من هذا حصل خلال الثواني التي مضت، كان السؤال والجواب بلا كلام، ولكن له وقعاً وضجيجاً وإلحاحاً مثل أي حالة انتظار وتشوق ولهفة وتخوف.

الربيع في كل مكان، في نفسي، في بيتي، في الشارع المحيط بالبيت، جلست مع أختي في الشرفة لتناول إفطارنا كان يوماً دافئاً في بداية فصل الربيع بعد برد الشتاء القارص. أعدت لي خصيصاً بعض الشطائر التي أحبها، كنا نتحدث عن أمنا وعن هذه الجلسة الصباحية التي اعتدت عليها منذ شهور، لم نقطعها إلا في أيام الشتاء نستعيض عنها بجلسة مماثلة في الشرفة الزجاجية كأنها حديقة صغيرة. قلت مازحة:

– ماذا حصل هل سأعود إلى تلك الأيام البليدة التي كنت أقضيها بين غرفة النوم والشرفة أو في الحديقة؟ هل يمكن أن نحنّ إلى أيام عشناها مكرهين ورفضناها مختارين؟

ردت أختي وهي تحتسي قهوتها حتى الحثالة:

– لقد لاحظت ذلك منذ مدة، لم أشأ أن أسألك لأنني أعرف مدى التزامك، عزوت الأمر للتعب أو للملل، اليوم تبدين متحمسة مثلما كنت في السابق جميلة وأنيقة، هذا اللون الأصفر الزاهي يليق بك كثيراً خاصة وقد كسرت حدته بهذا اللون البني، كأنك ذاهبة إلى موعد مع حبيب.

قبلتها وانطلقت إلى الخارج وأنا أتساءل بيني وبين نفسي، ما الذي ألهمها هذا القول؟ لعله يأتي اليوم؟ أختي لا تعلم شيئاً عن هذا الهوس الذي أصابني، كنت بانتظار أن تتضح الأمور ثم أخبرها، ولكن الشهور مرت ولا تحمل لي إلا المزيد من الغموض، فأزيد من التكتم والسرية خاصة أن ملك كانت تتابع القصة منذ كانت مجرد طرفة نتندر بها، حتى أصبحت تحمل كل هذه الجدية لدرجة الترقب القاتل. بقيت رسائله تأتي يومياً، وبقيت زادي النفسي، وبقيت تعني أن النهار قد أبصر النور مرة أخرى وعاد.

حين جلسنا في استراحة ما قبل الغذاء مع بعض الصديقات، دار الحديث حول أفكار متشعبة وجدت استحساناً مني ومن ملك، كان الحديث قد أخذ منحن جدياً فأعرضت فجأة وسكت بدل أن يثير حماستي، انتابني شعور خفي بأن ماهر قريب مني، أبعدت الفكرة عن رأسي فكثيراً ما أحس بتلك الصلة الروحية حين تصلني رسالته الصباحية أو الوردة الجورية الحمراء اليانعة، شعوري في تلك اللحظة كان غامراً أكثر، داوياً أكثر، أحسسته قريباً مني، لعله في طريقة إليّ فجأة وقفت وقلت على عجل:

– لنؤجل كل شيء إلى ما بعد الظهر، يجب علي إنجاز شيء مهم قبل الغذاء عن إذنكم.

بعد دخولي إلى مكتبي بدقائق كان ماهر واقفاً أمامي، تقدم نحوي ماداً يده لي، جاعلاً كفه للأعلى، ألقيت يدي بداخلها، احتضنها بكفه، أحسست خفاقات قلبه تنسكب في كفي، ثم ربت عليها بيده الأخرى. لحظات تساوي زمنا كاملاً. توجه إلى المقعد الذي كنت قد أعددته مرات ومرات في خيالي لجلوسه. جلس واضعاً ساقا فوق الأخرى ماداً نظره نحو عيني، وصمتنا طويلا، لا يسمع إلا صوت تهدج أنفاسنا، تركت مكاني وراء مكتبي وجلست على المقعد المقابل له، بكل هذه البساطة تم لقائنا الأول.

أخيراً.. تم اللقاء.. كان حدثاً عظيماً لا بد أن يتم، ولا بد أن يترك أثراً غير عادي يفوق الوصف في أعماق ذاتي. هل يمر نزول الأمطار بمقدار وبتوقيت دقيق على أرض عطشى دون أن يتركها في عرس فتهتز وتربو وتزهر؟ هكذا في لحظات معدودة استعدت ما فقدته من عمري.

لحظة واحدة، بعد هذا الحضور الكبير، كانت كافية لتوضيح كثير من الأمور في رأسي، فحين كنت بانتظاره وعلى ثقة بظهوره لم أكن أفاضل بين يوم ويوم، بل بين الوجود والعدم، بين الموت والحياة، بين أن أكون معه أولا أكون. انسكبت قي روحي دفعة حماسة غريبة، فأصبحت أكثر شجاعة في مواجهة الحياة من هذا المنعطف الجديد، كما يليق بمثل هذا الحدث. إذا كانت الحياة متكررة الوجوه فها

نحن نتداولها تماماً كما تفعل بنا، وإن كان لها وجه واحد وعلينا أن نتقبله بسلبية بحتة فلماذا وهبنا حق الاختيار؟ وإن كان لها وجوه سلبية وأخرى إيجابية وخلقنا لنخوض غمارها، فلماذا نخاف؟

قلت وكأنني أواصل حديثاً انقطع لتوه:

– لقد تحقق اللقاء وبقي لي أمل آخر، أن أسمعك وأعرفك أكثر.

قال بصوت انساب كلحن عذب:

– كيف حالك؟

رددت على الفور فجاءت إجابتي تقليدية:

– الحمد لله، وأنت كيف حالك.

قال بشغف غير خاف:

– مشتاق.

شدد على كل حرف فيها. كأنها شعر أو معزوفة، في صمت غرق في عيني، وراح يقرأ ما ترويانه، أسطورة حب تعيشه، ليس له مثيل في دنيا الناس، تشجعه أن يستمر في العزف، كلماتك تأتيني مثل لحن ساحر، مثل غيث منهمر يوقظ في نفسي فضائلها، صحوت على صوتي يقول:

– الحق أنك إنسان فريد، وصفتك في إحدى معزوفات أوراقي أنك العذب الفريد.

– أهذا قبل أن تعرفي اسمي؟

– صدقني لم يشغلني الأمر كثيراً، ألم يعجبك أن أسميتك العذب الفريد.

مد يده ولامس يدي الهادئة في حضني، بانت فرحتي الطفولية على وجهي وأنا أتابع يده وهي تأتيني ثم تغادر ببطء قلت:

– والآن يا سيد ماهر من أنت؟ وماذا تريد مني؟

قال وقد تأهب للجواب بحركة تمثيلية مرحة أضحكتني وزادت فرحتي:

– أقدم لك نفسي سيدتي ، أنا محب ومتيم تعبان وزهقان وعشقان ومفتون. أنا ماهر مؤمن، رجل كهل كما ترين، لست وسيماً، أعني أنني لست دونجواناً كما توحي جرأتي، أعمل في الإخراج، عشت حياتي كأنها وظيفة مدروسة، ليس بها ما يفرح أو ما يعد بفرح قادم إلا حلم راودني ذات ليلة فتمسكت به، وهو البحث عن توأم روحي حتى وجدتك. لحظة ومضت، وتفجرت الأشواق والآمال، لحظة مثل هزة الوجد الصوفي التي تأتي دون موعد، ولا تذهب قبل أن تدك كل ما كان قبلها صامداً وصامتاً، لم أضع فرصتي، نفذت خاطراً طرأ على ذهني، أنك لي، لا بد أن أعلمك أنني لقيتك، فابحثي عني لعلي أكون من تنتظرين فنتلاقى.

لأول مرة في حياتي لم أتردد أنا المعروف عني عدم اتخاذ أي قرار دون التفكير بجميع الاحتمالات وكثيراً ما أنكص أو أضيع الفرص بترددي. كتبت لك، وانحنيت أمام هذا التغيير الكبير، صار لي دنيا

صغيرة خاصة بي، صارت هذه الدنيا هي نفسي، صرت أنت هي، أحيطها بنفسي وكذلك هي تحدب علي وتحتضنني، صارت غايتي، وصرت أنت محورها، صارت الوسيلة الوحيدة لتدفق دماء حياتي في شراييني، وصرت أنت المتنفس الوحيد لإنعاشي وسعادتي وهكذا ولدت من جديد.

قلت متابعة ما بدأ:

– آه.. أخيراً أتيت، معاناة طويلة ورحلة ألم استنزفت عمري، بقيت جروحها حية حتى ظهورك في حياتي، فتأججت صلتي بالدنيا، أصبحت الجروح في الحال ندوباً، والفزع أماناً، أحسست كأن الدنيا التي نفرت منها طويلاً أصبحت يداً كبيرة تصافحني، وشفاه تواسيني.

زفرة ارتياح تصعد من صدره للسماء فتأخذ في طريقها روحي. غيّر من وضعية جلوسه، مد ساقية ووضع قدمه اليمنى فوق قدمه اليسرى وفرد جسده على طوله وقال:

– شعوري الآن كشعور عطشان غرق فجأة في لجة ماء عذب، أحسه يتناثر فوق كل أجزائي، أحسك تتسربين لأعماقي، فترويها أو تنتشرين فيّ مثل النور، فتبددين ظلام عمري. كنت أظن إن ما أكنه لك حب كبير،لم يبق مزيداً لمستزيد، فإذا به يتمدد ويزداد. ابق في قلبي، أسكني فيه، كأجمل لحن، وأن أنفرط عقد النوتة، وروع سلمها الموسيقي، وتاه تناسق نغماتها، ابق في قلبي وإلى الأبد، فأنت آخر محطات الرحال.

هل أنا ما زلت أنا التي أعرفها؟ والدنيا.. هل مازالت كما هي تدور ضمن مسارها الأبدي، تقلّب فصولها باتجاه واحد لا يرتد؟ ألا ترجع لنا يوماً واحداً خسرناه أو فرحنا به؟

لا أظن.. كيف إذن عاد إليّ ربيعي المسلوب مني؟ أرى نفسي مثل أزهار كؤوس القطن النقي الصافي، مشرعة هامتها للسماء ملآنة بالخير الوفير، نوار في العيون في الروح في الحياة كلها، نعم لقد قهر بقدومه الربيعي السحري خريفاً ربض طويلاً وباكراً في أيام العمر، فأعلنت به انتهاء اغترابي، وعودتي نغمة حية في سيمفونية الحياة، تطرب كل جارحة فيّ. سألت ماهر:

– قلت لي إنك رأيتني منذ مدة طويلة، فلماذا لم تأخرت كل ذلك الوقت؟

قال وهو يهز رأسه هازئاً من تردده.

– لا أعرف، لكنني أعتقد أنها تلك الخصلة غير المحمودة أحياناً، والمحمودة جداً في أحايين أخرى وهي التردد. حين أهم بعمل كبير أحسب حساباً لكل شاردة وواردة، صغيرة وكبيرة، فمثلاً كلما هممت بالاتصال بك أعيد ترتيب الأمور من جديد، فأخرج بتساؤلات جديدة، تعيدني إلى بداية الحوار مع نفسي، فأجد أن الخوف يكبر والفرص تقل. ماذا لو لم تكوني أنت امرأتي بل خيل إليّ؟ ماذا لو لم أكن رجلك ويكون في حياتك آخر قد عرفته فعلاً والتقيت به؟

قلت ضاحكة مادة يدي مغلقة فمه:

– وهذا عيب آخر غير التردد، تتكلم دون أن تترك فرصة لغيرك، ما هذه الأحاجي التي تقولها؟ أنا لست أنا وأنت لست أنت.. لم أفهم.

قال منتصراً:

– آه.. هذا عيب فيك أيضاً، تقاطعين الناس بالقوة بلا ديموقراطية. الحمد لله أن وجدت فيك عيباً، كانت مشكلة أنني رأيتك كاملة بلا أي عيب.

– عيون المحب عن العيب كليلة. لقد وصلتني هديتك والإهداء الرائع ورسالتك المعبّرة، فأنت لست بشاعر فقط، وإنما أنت ناثر ممتاز.

قال وعيونه تشع بالحب والذكاء النادر:

– وعاشق متيم أيضاً. إنك امرأتي التي خلقت من أجلي، آمل أن أكون رجلك. هذا ما جعلني أتردد، لكن لا أنسى ولا أغفل الأمر، أبحث عنك دائماً، وأكون حيث تكونين دائماً، عرفتك أكثر مما تعرفين نفسك ومثلما أعرف نفسي فوجدتك توأمها. الأمر حقيقي يستحق التروي أليس كذلك؟

– وماذا بعد؟

– أريدك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

جفلت وخفت، ماذا يعني ذلك؟ كنت أنتظر الحب ولم أكن أعرف أن له بدايات وسدوداً وحدوداً،لم أحر جواباً، ولما حثني على الجواب بلهفة بدت واضحة على كل معالم وجهه قلت:

– ليس عندي استعداد لمثل هذا الارتباط الذي يبدو كمغامرة، لا وألف لا. وهذا لا يعني أنك لست أنت الذي أنتظر، بل هو أنت، لقد عرفتك قبل أن تظهر، ولكن لم أفكر فيما بعد ذلك. ما شغلني هو التساؤل لماذا جاء الحب الآن؟ لماذا وقد تجاوزنا منتصف العمر؟ لماذا والمعاناة الطويلة جعلت الحزن طابع حياتنا القاتم؟ والأمل انطفأ، والحب أغفى، والعواطف أخذت منحى آخر ارتبط بمجالات إنسانية عامة؟ ما عدا ذلك لم أفكر بأن للعلاقات أنواعاً وتطورات ودخولاً في متاهات لا قبل لي بها، وقد لا أستطيعها.

قال بحنان:

– الحب عطاء.. ألق يهمي من رب الأكوان، شيء يتفجر مثل السحر بروح الإنسان، لماذا الآن؟ لا أدري، أقسم بعينيك لا أدري.

صدقته وتعلمت منه الحب، أحسست بكل ما همس به لي فقد كان صداه يتردد في حنايا ضلوعي بصدق مذهل. كلام كثير كنا نقوله لا نعرف من يقول ومن يستمع. صدقت أنه الحب الحقيقي، وصدقت أن الحب الحقيقي ليس له أوان ولا زمان ولا مكان ولا أسباب. حين جاءني صغرت كل الأشياء، هانت كل الأحزان، لم أعد أحسب كم دمعة حزن سالت، وكم تنهيدة أشعلت يومي

وحرقت دمي. صدقت حدسي أنه هو وقد جاء، جاء معه حب ليس مثل أي حب، أطل من عينيه من شفتيه من ملامسة كفيه، من احتضاني رغم ابتعادي، من امتلاك قلبي وعقلي رغم خوفي ورفضي، أطل عليّ من الصوت، من الهمس، من النجوى، من الألم والحزن، جاء الحب معه ومنه وعاد إليه نبضاً ورفه قلب وعصب واختلاج جفن وهمس شفاه بالكلمة الخالدة أحبك. عاد إليه محملاً بكنوز كانت مخبأة له بانتظاره، لم أشك لحظة في أنها ستبقى نضرة وحارة ولامعة، صدقت أنه ليس للمشاعر أعماراً، ولا للنبض أواناً، الحب كما الإيمان يخلق النفس من جديد.

جاءت الليلة الأولى بعد أن رأيته، كما جاءت ليلة أن عرفته وقرأته، ومضت وحلقت بي عبر أصقاع الأرض باحثة عنه، تلك الليلة ركنت إلى الهدوء والراحة، راحة المتعب والمنهك من أثر الجري ساعات، من اثر الخوف سنوات، من أثر القلق شهوراً متواصلات، اتضحت الصورة، ورأيت توأم الروح المكمل لها، الذي هامت به طويلاً وسبحت في هذا الملكوت السماوي. حاولت استحضار وجهه لم أستطع، كان يملأ الدنيا حولي، أجمل وأرق وخير الرجال. في منتصف الليل رن جرس الهاتف لم أفزع رغم تأخر الوقت، عرفت أنه ماهر، دون اتفاق كنت أنتظر مكالمته قال:

– مرحباً فتون كيف حالك الآن؟ لقد بذلت اليوم جهداً خارقاً.

– كيف عرفت؟ فعلاً لقد قضيت يوماً حافلاً هدني.

– من الآن وصاعداً لا تسأليني مثل هذه الأسئلة. أنا أعرف ما تحسين لأنك ذاتي. على كل حال لقد دونت مقابلتنا الأول، أريد أن أسمعك إياها، لك أن تزيدي أو تحذفي ما لم تشعري به مثلما شعرت به في وقتها وعبّرت عنه تماماً. اسمعي يا ست الكل ما سأقول:

حين تلامست منا الأيدي، وتعانقت أطراف أصابعنا،

اشتد وجيب القلب، اضطربت النظرات وارتعشت الكلمات.

تراقصت في الغرفة كل الأشياء.

رحل مني القلب إليها، انتثر حولي ورود وكواكب ونجمات.

سكت.. ثم سألني:

– موافقة على ما أقول هل أكمل؟

قلت مبتهجة:

– موافقة طبعاً، هذا ما شعرت به في تلك اللحظات، لكن لماذا كل هذا الحزن و..

– من أين يجيء الحزن وأنت معي؟ من أين؟ وأنا أتلمس وجهك الأجمل من صبح يتنفس، من أين وأنا أغوص في هاتين العينين وأغرق؟

– دعني أكمل ما بدأت. اختفت الكلمات وضجيج يتعالى في صدري حلو الأصداء.

أخبرني كيف تجيء شمس في الليل فتهزمه ويصير نهار؟

(3)

العمل يتجدد ويكبر، صار يستهويني أكثر فيستغرقني، أصبح أمتع، وأصبحت بدوري أقدر على العطاء، وأصبحت أحرص على محاولة بث السعادة المفقودة في النفوس المتعبة الغارقة في بحور ليس لها قرار من التعاسة والإحباط واليأس. دأبنا أنا وملك على تبادل الحالات، نحيل بعضها إلى الدكتور جمال بين حين وآخر، نجتمع معه مرة كل أسبوع لنتبادل المشورة، ولنغرف من معينه الذي لا ينضب ولا يبخل به علينا، فكان ذلك يعيننا على مواصلة عملنا وتطويره، وعلى استعادة البهجة في نفوسنا بعد استنزاف قدراتنا من الجهد الذي يبدو واضحاً على الكثير من إنجازاتنا.

أصبحت ليلى التي لم أكن أعرف لها عملاً خاصاً بها أكثر نشاطاً من أي واحد منا في المؤسسة كلها، لم يخطر على بالي في ذلك الوقت أنها ستكون وبالاً عليّ وعلى عملي، حتى لو قيل لي شيء كهذا، كيف لي أن أصدقه وقد زكاها جمال للعمل عندنا وكل ما يقوله أو يفعله محل ثقتنا وتقديرنا؟ ومع ذلك كنت ألحظ الحزن بادياً في نظراتها وتزداد صمتاً يوماً بعد يوم، حاولت التقرب منها ومساعدتها فأبت أن تخبرني إلا بالقليل الذي أعرفه غالباً أو كما سمعته من الدكتور جمال حين ألحقها بالعمل معنا .

في إحدى الجلسات معه سألته توضيحاً عنها إن كان يعرف أكثر مما قاله لنا ، أخبرته على حالة شرودها وحزنها فأعاد ما قاله بأن لها همومها الخاصة بعد أن تركها زوجها لعدم التوافق بينهما ثم اضطرارها لترك عملها الذي كانت تحبه وتعيش من دخلها منه مع ابنها، حين لا حظ عدم اقتناعي بما يقول اخبرني مضطراً أنها مازالت تتردد على عيادته بين حين وآخر وهو يحاول أن يساعدها على قدر الإمكان ولكنه عاد وأكد أن العمل معنا خاصة قد أراحها كثيراً كما أخبرته. قال مؤكداً إنها بحاجة إلى العمل مادياً لكنها أحوج له كمساعدة لحالتها النفسية.

ريم صديقة ملك هي التي حركت مواجع ليلى بعد أن استقر بها المقام بيننا بعد عودتها من أميركا حيث تعرفت عليها ملك. كانت امرأة لها شخصيتها المتميزة ، مما أثار حماستي في التعرف عليها، لقد حدثتني ملك عنها كثيراً ولكنها لم تكن تتوقع ظهورها هكذا فجأة بيننا.

كانت قد تزوجت من رجل أميركي دون موافقة ذويها، ولكنه توفى بعد زواجهما بثلاث سنوات فعادت إلى بلدها مع ولدها لكن أهلها لم يغفروا لها فعلتها ورفضوا وجودها بينهم فتركت بلدها وحاولت أن تبدأ من جديد في أي مكان حتى قرأت شيئاً عن مؤسستنا، وعرفت أن ملك شريكة فيها، فجاءت لزيارة ملك، بعد ذلك تعرفت عليها واستمعت إلى قصتها المثيرة .بعد فترة عرضت علينا أن تشاركنا في المؤسسة، فأرجأنا الأمر إلى وقت آخر حتى نفكر ونستشير، ومع ذلك بقيت معنا وحولنا في المؤسسة دون صفة، ولكن بدأ شيء من الود والإعجاب المتبادل بيننا وبينها، حتى أصبح وجودها محبباً وله قيمة كبيرة عند بعض المترددات على المؤسسة . يبدو أن ليلى خشيت أن نستغني عنها بعد وجود من هي

أقدر على الإفادة لنا فعادت لها حالة التوتر ، حاول جمال طمئنتها بأن مكانها محفوظ لها ولن نستغني عنها. قبلت هذا التفسير وإن كنت لم أقتنع به كثيراً .

كانت الأيام تمر بسرعتها المعهودة، لكنني كنت لأول مرة أشارك الناس هذا الشعور، فقد كانت أيامي عادة أشعرها بطيئة ثقيلة، ثم جاءها الحب والسعادة وبدأت أعيش حقيقة وانتظم في جوقة الأحياء، بل وأصبحت أخاف من سرعتها كل يوم أكثر وأكثر.

كانت علاقتي بماهر تتوطد كل يوم بل كل لحظة. كانت رسائله اليومية ترد بانتظام، ومكالماته الهاتفية في موعدها المحدد، أصبحنا نعيش تقارباً روحياً عجيباً، يحس كل منا بالآخر إلى درجة أن يظن أنه يسمعه على الرغم من البعد المكاني والزماني ، فأن اشتقت إليه يكفي أن أسأله عن كل هذا البعد أن يسمعني صوته فيفعل، ويكفي أن أمر بخاطره بإلحاح وهو في شدة انهماكه بالعمل فأطلبه على الهاتف فيرد وهو واثق أنني على الطرف الآخر قبل أن يسمع صوتي.

بدأنا نجد وسائل أخرى لتقاربنا الروحي والفكري والعاطفي العجيب، فأصبح يحدثني عن لقاء أبدي يجمعنا، ويحلم في بيت بحري، يخطط له ويصفه كأنه حقيقة قائمة، ثم يدعوني إليه في الخيال عند منتصف الليل، فكنت أرحل إليه في الموعد أحلق وراء خيال وأسري وراء همسات، فتصبح الرغبة أملاً. كان لا بد أن تتبع وجود البيت الوهمي اختراع تسمية لكل منا لينادي بها على الآخر، وكان أن أصبح ينادني بامرأتي وحبيبتي، وأنا أناديه برجلي وحبيبي.

كنت في زيارة مفاجئة لملك، ولم يمض على وجودي غير بضع دقائق حتى خرج حسان من غرفة مكتبه في البيت ومعه ضيف تقدما نحوي للسلام فبهت أن وجدت ضيفهما هو ماهر مؤمن نفسه، بدت العلاقة متينة بينهم أكثر من صديق عادي، استغربت فسألت بشيء من اللوم:

– هل تعرفان ماهر مؤمن؟

– إنه صديق منذ زمن طويل، لقد تعرفنا عليه ونحن في أميركا عند صديقنا المشترك لطفي عباس، يعني من الطبيعي أن يصبح صديقنا.

سكت حسان ثم تذكر فجأة فقال :

– لقد حضر معي يوم افتتاح المؤسسة، وبعثت له باعتذار شديد هل نسيت؟

التفت إلى ملك :

– ولكن لم تخبريني أنه هو بذاته من أكلمك عنه ليلاً ونهاراً.

– من أين لي أن أعرف أنه الشخص ذاته، فقد تعرفنا عليه باسم ماهر عبد الله.

تدخل ماهر بالحديث بهدوء:

– الحقيقة أنا الملوم، لكن أردت أن أتعرف عليك بطريقتي، وأنت تعرفين معنى ذلك فقد شرحته لك في أول لقاء تم بيننا، ثم إن اسمي هو ماهر عبد الله مؤمن، اختصرها لطفي وحذف مؤمن تسهيلاً

لنطقها هناك في أميركا. لقد تقابلنا فعلاً في المؤسسة أول مرة، رغم أنك نسيت وجودي أو أهملتني عن عمد لا أعرف فقد دخلت عالمي من أوسع الأبواب، قلبي.

حاول حسان تبديد وجومي وقلقي بأن طلب من ماهر البقاء بعض الوقت لكن ماهر اعتذر بارتباطه بعمل عاجل وتركنا وانصرف، لم يلبث الكلام أن عاد بيننا بالحدة ذاتها والقلق ذاته، شارت ملك إلى حسان أن يقول شيئاً:

– أقسم لك أنني لم أكن أعرف اسمه كاملاً منذ عرفته حتى الآن، ثقتي الكبيرة بلطفي الذي حدثني كثيراً عنه جعلني أعتبره صديق وأتعامل معه على هذا الأساس.

ولكن فجأة سألني:

– هل أخبرك أنه متزوج؟

هززت رأسي بالإيجاب فعاد يتساءل:

– وماذا بعد؟

– لا شيء بعد، لا أريد الزواج، ولا أريد علاقة كاملة، هو يعرف وموافق.

– لأول مرة في حياتي أسمع أن امرأة تريد الحب الأفلاطوني فقط في عصر لا يؤتمن، أما عن زواجه فليس بعائق، ولن تضيفي إلى علاقته غير المستقرة بزوجته جديداً، عرفت من لطفي أنه غير سعيد على الإطلاق معها، بل أنه لا يحس في علاقته بها أي معنى للزواج الحقيقي.

أجبت بهم كبير:

– أعرف كل هذا، لا أريد الارتباط من جديد.

سألت ملك :

– ألم يعرض عليك الزواج؟

– لم أعطه الفرصة لذلك، بل على العكس، حين حاول قاطعته قائلة بأنه لا يصلح زوج بقدر أن يكون حبيباً.

لم يعجب ملك ما أقول فردت:

– إذا كان هذا ما تريدينه فلا تتعلقي به أكثر، ليبق صديقاً، أو ابتعدي عنه، ولو سألتني رأيي فلن أشجعك على الزواج فأنت قاسيت كثيراً فقد كنت ومازلت لا تعرفين كيف تكونين أنانية في بعض الأحيان، والارتباط في حياة مشتركة بين اثنين يجب أن يتعلم كل منهما متى يكون غيرياً ومتى يكون أنانياً.

ضحك حسان ولم يعقب، لكن ملك استفزته قائلة:

– سكوتك لا ينفي أنك تعتبرني أكبر أنانية في الوجود.

– على العكس أنت إنسانة واقعية وعاطفية في وقت واحد ولا أظن أنني أستطيع العيش مع امرأة قلبها في رأسها وعقلها في صدرها مثل العزيزة فتون، على كل حال الخوف ليس عليها بل على المحب الولهان.

بقي الحب مشتعلاً سنة بعد أخرى،خمس سنوات مرت والحب يزيد ولا ينقص، والعلاقة على شكلها الأفلاطوني كما أطلق عليه حسان، كلما ازداد سما وعظم، لم أفكر في الموافقة على الزواج إلا حين بدأت أشك في تصرفاته وفي إخلاصه، لم أستطع أن أستمع إلى ملك وهي تقول أن الحب حين يتعرض للشك فالواجب بتره لا تأخير مدة معاناته التي لا بد ستصل لنهايتها إن عاجلاً أو آجلاً. اعتبرت أن الزواج هو المنقذ الوحيد لذلك الحب الكبير، ظننت الحرمان قد أضر بعلاقتنا، شعر ماهر بشيء من لين من جانبي فأخذ يعد البيت الذي كان يحلم به كل تلك السنوات وأصرّ على أن يحققه على الشكل الذي كان يصفه.

في المؤسسة التي تعني كل من لي في حياتي، ووسط كل الأصدقاء والمحبين أعلن زواجنا بشكله الرسمي، انطلقنا بعدها سوياً ليوصلني إلى البيت لأقضي آخر ليلة في مكان غير المكان الذي سيقضي ليلته فيه،لم نتكلم طوال الطريق، يدانا المتعانقتان تتكلمان، وقلبانا ينبضان ذاك النبض الذي يقرأ في عيوننا ووجهينا وفي صوتنا.

أوقف السيارة أمام مدخل البيت تماماً، أطفأ محركها، التفت ناحيتي بجمعه، التقيت وضحكة عينيه التي كدت أسمع ضجيجها بقدر ما أرى حلاوتها وروعتها وأتلاشى، رفع يدي ووضع الخاتم في إصبعي قائلاً:

– عديني ألا تخلعينه أو تستبدليه مهما كان.

قلت وأنا أمسك بيده وبيدي الأخرى خاتمه:

– أعدك.

فهمس بحب متناه:

–وأنا بدوري أعاهدك أنك ستكونين الأولى والأخيرة في حياتي، لم يكن أحد قبلك ولن يكون أحد بعدك. أنت فقط مليكة قلبي وحبيبة روحي.

التصقت به، وفي أعماق قلبي أتمنى أن أتوحد معه، أن أذوب وأدخل من مسامه، أن يكون هذا العناق أبدياً، اقتربت أكثر، ألقيت رأسي على كتفه وبمنتهى الحب تركته ينزلق حتى توسد صدره العريض، تفانيت كأنني أسري بين جلده وعظمه كأنما دخلت من مسامه، رفعت وجهي إلى وجهه، أقسم أنه كان يتألق بعشق لا مثيل له، وبكفيّ الباردتين من شدة انفعالي، احتضنت وجهه الساخن، أغمض عينيه واقترب تعانقنا طويلا دون كلمة أو همسة، دون خوف، هو لي وأنا له وإلى الأبد.

سحبت نفسي من بين ذراعيه وترجلت بهدوء وانسيابية، كأنني جدول صغير عذب غادر منبعه الصافي مملوءاً بالخير والعطاء، وجدته قد سبقني وتلقاني بساعديه قبل أن تلمس قدماي الأرض، ورفعني قائلاً:

– غداً موعدنا مع الحياة.. غداً سنكون في بيتنا السحري، وسندخله حقيقة وليس خيالاً كما فعلنا في سنوات حبنا الخالدة، سندخله في توقيتنا المفضل يا حبيبتي، بعد منتصف الليل، كوني في الانتظار.

قلت وأنا أبتعد ملوحة:

– إلى الغد يا حبيبي..

قال بسرعة ولهفة:

– لا.. لا تنسي المناداة التي ألهمناها في ليلة من ليالي سعادتنا.

قلت ضاحكة:

– تصبح على خير يا رجلي و حبيبي.

قال:

– تصبحين على خير يا امرأتي وحبيبتي.

توجهت نحو مدخل العمارة التي أقيم فيها، التفت نحوه، كانت عيناه تتابع كل خطوة من خطواتي. عاد إلى السيارة وجلس وراء مقودها ثم رأيته يخرج نصفه وهو يقول بصوت مرتفع جداً:

– تذكري.. هذه آخر ليلة أقول لك فيها تصبحين على خير وتنامين بعيدة عني وإلى الأبد.

اختلطت ضحكاتنا الصافية مع هدير السيارة وصوت انطلاقتها في اللحظة التي كنت أفتح الباب وأدخل إلى البيت، كان غارقاً في صمت وعتم في هذا الوقت المبكر، تسللت إلى غرفتي بهدوء وأضأت نوراً خفيفاً وبدأت أخلع ملابسي، كنت محلقة في جو غريب، أحاول أن أثبّت نفسي على الأرض دون جدوى، أتمتم بأغنية لا أعرف من يغنيها، أردد بلا ملل مقطعاً بعينه فوجئت أنني أحفظها بمثل هذه الدقة، رفعت صوتي استمعت لنفسي قائلة لها في جزل "صوتي جميل كما يقول ماهر هذه موهبة جديدة" ضحكت بصوت عال خلت معه أن أحداً سمعني فلن يصدق أنني وحدي، ولكن هل حقيقة كنت وحدي؟ أبداً ماهر معي كل دقيقة.

تمددت على سريري خيل إليّ أنني أطول من ذي قبل وأثقل، غداً يا إلهي، ما أروع أن يتحقق لي كل هذا بعد أن تواضعت طلباتي وحصرت في حلم عاش ألقاً، ثم خبا ثم اختفى. أصبح واحداً من آمالنا الكثيرة التي حين يصعب تحقيقها تنزوي في مكان ما في أنفسنا، تؤرقنا حيناً بعد حين، بعد أن توصلنا إلى قبول ما هو متاح، طالما صعب علينا الحصول على ما نريد.

شيء برق في سمائي إنها الحقيقة، الحقيقة التي نتغافل عنها في لحظات حيرتنا، حقيقة تقول بصراحة، الحياة لا تساوي جناح بعوضة إذا كان قلب الإنسان خالياً ووحيداً لا يتجاوب معه قلب آخر، كل مشاكل العالم بسياسته واقتصاده تاريخه وجغرافيته لا أهمية لها إذا كانت نفوس الناس مليئة بالهواء الفارغ، صحراء قاحلة يقتلها هجير شمس نهارها، و يبتلعها في ليلها الظلام. لو كنا أنا وهو بداية العالم لما ساده إلا الوئام والحب، هو السلام وأنا المحبة. لو أغرقت القلوب بمثل هذا الحب لما قامت حروب وعداوة لما كان هناك جشع وتجار موت ودمار.

ذرعت الغرفة جيئة وذهاباً أحاول أن أجمع بعض حاجياتي، ثم اكتشف بعد عدة تنقلات أنني لم أقم بأي عمل، دون قصد أتناول كأس الماء المعد على الطاولة أمامي، أرشف قطرات منه دون حاجة، أجلس إلى مرآتي فلا أرى نفسي، أعرف أن وجهي يتألق حين أكون معه وبعد أن أعود من لقائه يبقى معي لا يغيب، إذن سأبقى متألقة دوماً. ضحكت مرة أخرى لذلك الخاطر نظرت ملياً في المرآة رأيت أسناني على قدر اتساع ضحكتي، فضحكت من جديد.

أخرجت من الدرج الموجود بجانب سريري رزمة رسائل زرقاء مربوطة بعناية، كان بعضها كتبها وهو يبحث عني منذ سنوات، أعطاني إياها على شكل يوميات مترابطة كأنها مذكرات أيام حزينة عاشها في غربة بين كل من حوله، والأخرى رسائله التي أتتني تباعاً بعد ذلك، آخرها كان أمس. كان ضمن الأوراق خواطر كتبتها بنفسي لنفسي قبل أن أجده، كلها موجهة إليه بأنني بانتظار ظهوره، فتحتها وأعدت تصفحها كما أفعل دائماً، كم كنت على ثقة من أنه سيأتي مهما طال الزمن، أوراقي بيضاء صافية بلون البراءة التي تكتنف جوانب نفسي عمري كله، بعضها الآخر رسائلي إليه، فقد كنت أرد على كل رسالة تصلني منه ولم أعطها له.

رأيت الباب يفتح ببطء، التفت وجدت أمي واقفة أمامي، كدت أصعق، لكن علامات الحزن التي لا تفارق وجهها عادة قد ازدادت اتساعاً. وهمست بحنو أقرب للحزن:

– ألم تنامي بعد؟ عدت دون أن تعرجي على غرفتي لتحييني.

قلت وأنا أقف والحيرة تعصف بي فخرج كلامي ملجلجاً :

– آسفة أمي، لم أعرف أنك.. اقصد لم أعرف أنك لم تنامي بعد.

سكتت وسكت بدوري، لم أتمكن من حضنها رغم محاولتي، كأن شعاع من نور يفصلها عني، ابتعدت عنها بشكل عصبي، إنها ليست هي، ما أراه مجرد خيال وهم ليس إلا. اقتربت مني، راجعت نفسي، إنها هي بلحمها وشحمها بل وصرامتها، كل منا تعرف ما يدور برأس الأخرى، كل منا اتخذت قراراً بالتصميم على رأيها، تحركت نحوي مرة أخرى فلامستها بوهن وأنا أهمس:

– أرجوك أمي أن تمنحيني رضاك وموافقتك.. لماذا يا أمي تريدين حرماني من الابتسامة الوحيدة في حياتي؟ ابتسامة برقت في ظلام أيامي، أنت وحدك من يعرف أكثر مني كم عانيت وكم حزنت وتعست.

– لا تقولي مثل هذا الكلام، إنه غير صحيح، فأنا لا أريد حرمانك لكنني أعرف أكثر منك أن لكل شيء أواناً، لا تفعليها، لقد فات الأوان، فات الأوان. ستنقلب الدنيا عليك حتى أقرب الناس إليك.

أحسست بها رغم هذا الذي يفصلها عني وهي تضمني لصدرها، سمعت نبضات قلبها المخنوقة، شعرت بدفء الحب الكبير فيه، وضعت رأسي على صدرها كان رحباً رحيماً. ماذا أقول؟ إن الأسباب التي تلوح بها ضدي هي ذاتها التي تشد من أزري وتدفعني للعيش قبل انتهاء العمر، رفعت عيني نحوها وأنا أحاول ألا أكون قاسية، رفعت صوتي بما يدور في نفسي:

– ماذا يعني الأوان؟ قبل الأوان؟ بعد الأوان؟ مجرد كلمات لا تحمل لي أي معنى إلا حينما أقول له قبلك أو بعدك.. هكذا تكون مقارنة حقيقية بين الذي كان والذي أعيشه معه، ليس لطاقات النور أوان أو زمان يا أمي.. الأمر أبسط مما تتخيلين، عليك الاعتراف فقط بأن هذا حقي مثل كل الناس، فها هو فايز قد تزوج، لم يقل له أحد ولا أي من أولاده لقد فات الأوان، وأخي فعلها كثيراً، وسيفعلها مرات ولن يفوت له أوان، أمي.. صدقيني.. لم يعد لي مطلب غيره.. يكفيني وجوده، حتى وإن كان في آخر الدنيا، يكفيني شعوري بنعيم هذا الوجود، ليعم الربيع ويخضر العمر ويأتي الأوان.

استرخت يداها من حولي، صدرها مازال يعلو ويهبط، شعرت بارتياحها، فقد شدتني إلى صدرها وقالت:

– تصبحين على خير ليبارك الله خطواتك.

رأيتها وهي خارجة ترفع يدها إلى وجهها لعلها تمسح دموعاً بدأت تهمي، لن تدرك أنني كبرت بما فيه الكفاية. تحاول إقناعي بأن الأوان قد فات، وبعد ذلك تؤكد أنها تعرف أكثر مني لأنها الأكبر. إنه احتكار الآباء. ليس صحيحاً ما تقوله، الحقيقة أنها تريدني أن أعيش حياتها مرة أخرى لآخذ شهادة المجتمع، مثل تلك التي أخذتها هي لأنها دفنت نفسها في الحياة، بأنني ابنة أمي، ضحيت وتناسيت وتنسكت..

هززت رأسي بعنف كأنني أنزل عنه هماً بدأ يتراكم فوقه، لن أدع أحداً يعكر صفو فرحتي، سأخرق معادلة الخيار بين من نحبهم وحرياتنا، فإذا سمحنا لهم بحجز حرياتنا خوفاً عليهم من الألم إذا ما تجاوزنا ممنوعاتهم، حتى وإن كانت تدمينا، فإن ذلك يعني أننا ندفع بأنفسنا إلى اليأس، كثيراً ما تنازلت من أجلهم عن أغلى ما أملك مع إنه أدنى حق لي وأبسطه. أمي مثل معظم الأمهات اللاتي يقتلن كل رغبة تتفجر في نفوس البنات بشكل خاص في إثبات حقهم ومكانتهم، يريدهن مثل هوام الطبيعة.

رنين جرس الهاتف في منتصف الليل أيقظني من غيبوبتي التي استغرقتني هروباً من أوجاعي، تناولت السماعة ببطء فانساب الصوت الملائكي الهادئ وكأن العالم دائماً ينام بين كفيه. قال:

– مرحباً.

صمت طويلا أستجمع شظايا نفسي، صوته وحده يكفي ليعيد لي توازني، قال في قلق واضح:

– ألو.. لماذا لا تردين.. يا امرأتي وحبيبتي؟

قلت متمهلة:

– كنت أعطي فرصة لتحيتك أن تسري فيّ مسرى البلسم في السقيم لتعيدني إلى الحياة التي تفارقني بفراقك.

قال ضاحكاً:

– غداً لقاؤنا الأبدي، لن يفرق بيننا شيء ولا الموت نفسه.

قلت أداعبه لئلا يصله شيء من توتري:

– ألم نمت بالحب؟ ألم تقل أن الحب أفنانا؟

– الموت من الحب ليس موتاً إنه نوع من التماهي، فناء أحدنا في الآخر، إنه موت من نوع آخر، موت ممتع.

– لكنه يكون أكثر شراسة معي حين تبتعد عني.. لن نفترق أبداً، تصبح على خير يا رجلي وحبيبي.

مضى يومي وأنا أعد أشيائي التي ستنقلها ملك إلى بيتنا البحري، ومع قدوم الليل امتلأت بهجة وفرحاً وانتظاراً. نفير بوق سيارته يزعق في الشارع، يصلني فيزيد من ارتباكي في اللحظات الأخيرة قبل المغادرة، خرجت إلى الشرفة ليراني ويعرف أنني في طريقي إليه، أخرج رأسه من النافذة وأرسل قبلة عبر الفضاء، وعاد إلى مكانه وراء المقود ينقر عليه نقرات فرحة مرحة تشاركه الغناء الذي كان يدمدم يه، أستطيع أن أخمن أنه كان يغني مقطعاً بعينه من أغنية أم كلثوم سيرة الحب، المقطع الذي كان يدندن به غالباً حين نكون معاً، كان يبدأ دوماً من ذات المقطع الغنائي "يا ما عيون قابلوني لكن ولا شغلوني" ثم يلتفت نحوي ويكمل الغناء "إلا عيونك أنت، دول بس اللي خذوني وبحبك أمروني، أمروني أحب لقيتني بحب، وأدوب بالحب".

وصلته أخيراً وجلست بجانبه في صمت تاركة له يدي بين يديه وعيناي تغرقان في نشوة عينيه، كان كل ما بي منتشياً يشارك الوجود الذي كنت أظنه قائم على قدم وساق في هذا اليوم من أجلي.

ترجل ماهر واستدار إلى الباب الآخر وأدخل ثوبي وأغلق الباب بهدوء، كنت أتابعه بوله وحب بلا حدود، كان أيضاً رائعاً وأنيقاً، يرتدي سترة كحلية اللون فوق قميص رمادي وبنطال رمادي، يعقد رباط العنق الذي اخترته له قبل أيام، كانت بعض خيوطه من ألوان ملابسه وملابسي، قبل أن يعود إلى

مكانه، لامسها بيده وهو يغني ليلفت نظري، تلاقت أعيننا حولها ثم ضحكنا كثيراً. قبلته على خده حالما جلس بجانبي، استدار نحو المقود وانطلقت بنا السيارة خارج المدينة متخذة الطريق المؤدي إلى البحر.

اقتربنا من الخط المحاذي إلى الشاطىء، ثم دخلنا المنطقة الرملية فتمهلنا أكثر متوجهين ناحية المكان الذي أعده ماهر ليكون مرآباً ، كانت سيارتي هناك منذ الصباح فقد أخذتها ملك وحسان مع بقية أشيائي وأوصلاهما إلى البيت. توقفت السيارة بجانب الأخرى وترجلنا ومشينا يدي ويده متعانقتان، يساعدني على السير كلما غاص كعب حذائي في الرمل الندي، أكاد أنكفئ على وجهي، فيحول ماهر بيني وبين السقوط.

السكون يعم المكان، أصوات الأمواج تتضارب فترسل أنغاماً متفاوتة مثل سيمفونية تتناهى بالخفوت ثم تعلو وتعلو إلى حد الهياج، السماء غارقة في سوادها بلا نجوم. التفت ناحية ماهر كان يجد في السير يريد أن يسبقني ليضع الجسر المتحرك مكانه لنعبر عليه إلى دنيانا الخاصة والجديدة:

– ماهر ..المكان ناء ومخيف.

– سنعتاد ذلك، لا تخافي من شيء، فالبيت محصن من كل جهاته، والحديقة الخلفية محاطة بسور عال وقوي ومضاءة تماماً، والأبواب لا تفتح بسهولة، لا شيء يخيف.

– لكن رغم كل شيء فإن لبيتنا رونقاً خاصاً ورائعاً من الخارج فيجذبني إليه، كيف به من الداخل؟

قال وهو يلف ذراعه حولي:

– هو رائع من الداخل ومن الخارج لأنه يضم بين جدرانه أعظم حب وأروع حبيبين.

اقتربنا من الباب، أخرج المفتاح من جيب سترته، دسه في ثقب الباب وهو يقول:

– اقتربي قليلاً والتصقي بي، لن يفتح الباب دون ذلك، هذه كلمة السر، لذا لن يدخله أي منا بمفرده، بل يجب أن يكون معه نصفه الآخر، ومتلاصقان هكذا.

شدني نحوه بعنف في اللحظة ذاتها فتح الباب ودخلنا سوياً إلى مملكتنا التي طالما حلمنا بها وتحققت. وقفنا في منتصف الصالة نلقي نظرة شاملة على البيت الذي استغرق إعداده شهوراً طويلة، حاول كل منا أن يحقق فيه للآخر كل ما تمنى في بيت العمر. اخترنا المكان سوياً، البحر هو حبنا والابتعاد عن جو المدينة رغبتنا معاً، سرنا بخطى جذلة صوب النافذة التي تطل على الحديقة الخلفية، كانت أشجار النخيل تلف السور متعالية مضاءة بشكل خفي، والجهة المقابلة كانت النافذة الأخرى التي تطل على البحر مباشرة لا يفصلها عنه إلا جزء من الصخرة التي تحمل البيت على كتفها.

تقدمني ماهر وهو يقودني من زاوية لأخرى، دخلنا إلى غرفة نومنا، كانت تزغرد لنا فرحة بنا، يختلط البياض باللون الأزرق بتناغم جميل، جلس على المقعد الطويل وأراح قدميه على مسند خاص يقابله وجذبني من يدي وأجلسني فوق ركبتيه، وهو يقول:

– ها نحن الآن زوجان أمام الدنيا وفي بيتنا، ضميني إليك أكثر وأكثر، دعيني اختبئ العمر كله في صدرك، كما عشت طويلا بين عينيك وأهدابك.

ضممته إليّ بكل الحب الموجود في قلبي، بكل شوق السنين، الذي كنت أحرص عليه يوماً بعد يوم خوف أن يضل ويهدر في مكان غير المكان وغير الزمان، بانتظار الآخر الذي سيكمل نصفه، ليسيرا معاً ما بقي من طريق الحياة.

ما أن شعر بيدي تطوقان عنقه، حتى مد ذراعيه ولفهما حولي، وضمني إليه طويلاً، سمعنا الصمت حولنا يتكلم، يحكي قصة حب وحبيبين آمنا به كعطية من السماء، وأن رضا الله يباركه، ويصونه ليستمر. صوت همهمة نشيجه ترتفع رفعت وجهه نحوي أمسح دموعه بأصابعي، برقة عواطفي التي طغت في تلك اللحظة، أسأله دون كلام، هز رأسه بمرح، وتألقت عيناه المخضلتان بالدموع المتألقتان في اللحظة عينها بكل الفرح والسعادة. قال همساً:

– ألم أخبرك أنني كلما فكرت في لحظة تجمعنا ويكون كل منا للآخر حقيقة، دون أن نتجزأ كما تفعلين، ونحب قلباً وروحاً وجسداً، لا أعرف كيف سيكون شعوري، فلا أجد تعبيراً أكثر صدقاً من أن أبكي، أنا الذي قلما أبكي. أتذكرين أنني قلت لك شيئاً مثل ذلك؟

قلت بهمس كهمسه:

– الدموع يا حبيبي في لحظة ما تكون مثل الصلاة شكراً لله.

قضينا الأيام الأولى نعب من السعادة والحب عباً، لم نفترق لحظة، سوياً نقوم بأي عمل، ندخل المطبخ لنعد طعامنا سوياً بعد أن يهدنا الجوع، ننظف البيت معاً، نتسامر أمام إحدى الشرفات، مرة بالقرب من البحر بجانب المدفأة، ومرة بالجانب الآخر بالقرب من الحديقة، يجلس على طاولة المكتب فيكتب أشعاراً، يرسم خطوطاً، تتشابك تخرج صوراً لوجهي أو لوجهه أو أحرف اسمينا، أو يخرج الرسم معبراً عما يدور في فكره، ويطلب مني أن أحدد ما يفكر فيه، غالباً ما أتوصل لمعرفة أفكاره تماماً، والتي غالباً ما كانت تتعلق بي أو بحياتنا معاً، أحياناً بجانب النار المتقدة، يشملنا الدفء الرائع، نقرأ أشعاراً من دواوين قدماء الشعراء، أو نقرأ شيئاً من التراث، أما أنا فما كان علي إلا أن أقرأ له رسائله التي سبقته إليّ، وأشرح له كيف كانت تحفر مكاناً لها وله يوماً بعد يوم.

الفصل الخامس

(1)

أخيراً وصلت ملك إلى بيتنا البحري، وكنت قد وصلت للتو من التسوق استعداداً لاستضافتها بضعة أيام، انتظرتها ريثما أوقفت سيارتها بجانب سيارتي في الجهة الخلفية للبيت وقفت لحظات تتأمل المكان من حولها، أخذت نفساً عميقاً ملأت رئتيها بالهواء المنعش النظيف. وهرعت نحوي تقبلني وأبادلها القبلات بينما أيدينا مشغولة بأحمالهما ومشينا سوياً نحو البيت. قلت:

– أهلاً بك ومرحباً.

– منذ متى لم أرك؟ يخيل إليّ أن زمناً طويلاً قد فات.

– لم أصدق أن تتركيني كل تلك المدة.

– أليس هذا بناء على طلبك وإلحاحك، ثم من قال لك أنني لم أتفقدك بين حين وآخر، كثيراً ما عرّجنا على المنطقة أنا وحسان إثر كل خروج لنا للتنزه أو الزيارة، كنا نتوقف دقائق ريثما نتأكد أنه لا جديد أو مخيف حولك، أرقب النور الخافت إيّاه مازال منبعثاً من غرفة نومك فأعرف أنك ما تزالين معتصمة حسب العادة حين تشتد معاناتك.

– بالمناسبة كيف تركت حسان؟

– لقد تحسن. وقد ألح عليّ كثيراً ألا أعود من غيرك أو أبقى معك.

شعرت نحوه بحب وامتنان كبيرين، فمنذ أن عرفتهما وهو يبذل كل ما في وسعه لمساعدتي، كنا قد وصلنا إلى البيت وصعدنا فوق الجسر والدرجات القليلة، وضعت ما أحمله قرب الباب وأخرجت مفتاحي ووضعته في الثقب، فتح الباب في اللحظة التي كانت ملك تلملم ياقة معطفها الصوفي وتدفن رأسها بداخل ياقته العريضة صحت بها:

– هيا يا عزيزتي تفضلي، لقد فتحت لك أبواب قلعتي.

– البرد شديد هنا، وقد استعددت للوقوف فترة طويلة حتى تفتحي الباب دون التعويذة، لم أعرف بعد أن بابك نسيها عياناً جهاراً.

دخلت البيت ووضعت حقيبتها في الركن الجانبي من الغرفة وأخذت تتخفف من أحمالها وملابسها وهي تثرثر بأي كلام، إنه الشوق والبعد والقلق كلها عوامل حملتها على انتظار زيارتي بفارغ الصبر، اقتربت من النافذة المغلقة وهي تقول:

– تذكرت كلماتك حين عبرت الطريق الرملي إلى البيت والهواء يلفح وجهي فأشعر به يداعب جبيني، كنت تصفين الهواء والماء والرمل كأنهم بعض من ذاتك كأنهم أفراد عائلتك حين يستقبلونك بعد غياب فيربتون على مشاعرك فيهدأ انفعالك.

– كان هذا زمان أيام كنت أعيش أيام الحب مع ماهر بالطول وبالعرض. آسفة أن أقلقت وأتعبتك طول الفترة الماضية.

– في الحقيقة لقد هدأت أفكاري وهواجسي بعد مكالمتك الهاتفية، تخلّصت قليلاً من الحيرة التي تنتابنا حين تتعارض أحكام القلب مع أحكام العقل والمنطق. استطعت أن أتفهم طريقتك في التفكير وأقدر نظرتك للأمور، إذا أردت أن نتحاور ونتناقش ستجدينني أوسع صدراً، لكن أكثر إصراراً على أن تكون حوارات مجدية وليست جدلية وبلا نهاية كالسابق.

بدت الغيوم هشة في منتصف النهار، فأخذت الشمس تظهر وتحتجب، كأنها تلاعب الكون فيضاء المكان ثم يعود إلى العتم، فتترك شيئاً من الوحشة في النفس، ويزيد الشعور بفراغ المنطقة الخالية من الناس في مثل هذا الوقت من السنة.

عادت ملك وقد رتبت حاجياتها في غرفة صغيرة بجانب غرفتي، أبدلت ثيابها وارتدت روباً ثقيلاً ومع ذلك كانت ترتجف من البرد اقتربت من نار المدفأة. قلت:

– بعد قليل ستعتادين على الجو هنا بل وستحبينه. ما أخبار الدكتور جمال والمؤسسة وكل من فيها، الصغير قبل الكبير؟

– أحياناً أحب فيك هذا التواضع وأحياناً أخرى أعتبره وآسفة للتعبير سذاجة توقعك في مشاكل أنت في غنى عنها ليتك تبخلين قليلاً بمشاعرك وبعطائك.

– لا تتعبي نفسك، خلقت هكذا ولن أتغير، أعتقد أن أمثالي ضرورة كبيرة للحياة، وإلا فقدت معناها.

لامست كتفي قائلة:

– إذن دعيني أتبارك بك أيتها الملاك الحارس للبشرية جمعاء.

– أبعد كل تلك السنوات الطويلة مازلت متهمة بطبيعة وهبها الله ليّ فأحببتها؟ منذ تعارفنا كنا مختلفتين وخاصة في طبيعتنا، فأنت قلما تحكّمين عواطفك في علاقاتك، لكنك تستطيعين كسب ود وتقدير الجميع وثقتهم بسهولة، ربما يرجع ذلك لطبيعة عملك، بينما كنت أنا على العكس تماماً فأنا أحب بكل قوة أولا أحب، لا أحب العلاقات التي يفرضها واجب أو ظرف، لا تتحرك مشاعري إلا لمن أتوسم فيه الكثير من صفات الإنسان الحقيقي، لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة، ما يهمني أولاً وأخيراً إنسانية الإنسان. هل أوضحت لك شيئاً جديداً؟

– كلما رأيتك أحس بتلك الجاذبية الخاصة بك، جمالك البسيط المريح يضيء كل شيء فيك، إشراق وجهك لم يغب حتى في أوج معاناتك. "أي سر فيك لست أدري"؟

الوجه مرآة صادقة لأعماق الإنسان، يعكس ما في القلب والصدر، كل ما في داخلي جميل لأن الله يسكن قلبي، اعتقدت إن من يدخل قلبي سعيد الحظ، لأن قلب به الكثير من نور الله. حتى الحزن الذي اخترق جدران قلبي لن يستطيع أن يصمد أمام هذا النور.

– ملك هيا انظري إليّ، ابتسامتي تحتفل بقدومك، صنفيها كعادتك.

– صحيح على شفتيك ابتسامة لكنها لم تسترد عافيتها بعد، في البداية عندما عرفتك كانت ابتسامة بائسة، ثم تبدلت إلى ابتسامة انتصار بعد العمل، ثم صارت أجمل ابتسامة على أجمل وجه امرأة حين اشتعل قلبك بالحب، أصبحت ضحكة مجلجلة تسعد نفوس من حولها مع ماهر، وها قد قدر لي أن أراها وهي شبح ابتسامة، تحاول الظهور فتخنقها العبرات، تماماً مثلما تخنق هذه الغيوم الكثيفة أشعة الشمس.

رأيت ملك تتأمل البيت الصغير الكبير بشيء من الأسف، لم أعلق شأني حين رأيتها ونحن مازلنا خارج البيت تحدق في اللافتة النحاسية الملصقة في زاوية الحائط بالقريب من الباب التي كانت تحمل اسم البيت الفردوس الكبير وحرفان متعانقان الميم تعانق حرف الفاء بالعربية وبالإنجليزية، تشاغلت عن ابتسامتها الحزينة بفتح الباب، لكن حين استقرت على اللوحة المعلقة فوق المدفأة التي كانت تحمل كل أحرف أسمي الأول واسمه الكامل بشكل رسم تجريدي بديع. قلت قبل أن تسأل:

– سأتركها مع الأخرى التي خارج البيت إلى الأبد.. فهي بقدر ما تحمل من وفائي ستحمل رائحة الغدر.. ستروي سذاجتي وشغفي وذكاءه المرعب.

تجولت في أنحاء البيت، كل ما فيه منبسطاً أمام ناظريها، أتابع عينيها وحين تلتفت نحوي ابتسم، الصالة بيتنا بكامله، مقسمة بحواجز فنية إلى أمكنة بذوق رفيع ليس ببعيد على شاعر مثل ماهر وامرأة حساسة للجمال مثلي، وقفت أمام المرآة الذهبية التي تتوسط الحائط المواجه للباب الرئيسي عن الدخول، كانت مستندة على رخامة خضراء ضاربة للزرقة هلالية الشكل تقوم على قوائم ذهبية اللون، بجوار المرآة كان كرسيان ذهبيان صغيران مكسوان بقماش يتمازج به اللونان الأخضر والأزرق.

بقيت واقفة في مكاني أرصد البيت كأنني أراه للمرة الأولى، ثم اكتشفت أنها فعلاً المرة الأولى التي أراه بعينيّ وحدهما دون عيني ماهر، أو ربما كنت أراه بعينيّ صديقتي الأثيرة، مشت أمامي بضع خطوات إلى الصالة وجلست على الأريكة التي تتوسطها، لحقت بها وجلست بجانبها فقد كانت تتسع لشخصين ليس غير، رأيتها تستعيد هدوءها وهي تلامس قماشها الموشى بنقوش ملونة تجمع ألوان السماء، وألوان البحر، كان على جانبي الأريكة الكبيرة منضدتين صغيرتين تحملان مصابيح كهربائية تشبه الشموع تسكب الإضاءة في أرجاء البيت، وتلقي مسحة رقيقة على صور جمعتنا أنا وماهر أو وحدي أو وحده في مناسبات كثيرة.

جلسنا صامتتين، كنت أعرف أن ملك بانتظار أن أبدأ في الحديث لتستشف حالتي النفسية بعد فترة الاعتزال التي عاشتها بعيدة عني، لم يخدعها منظري المرح الضاحك الذي كان لهفة ومحبة حقيقيين لرؤيتها، تلهيت عنها فيما حولي، غرفة الطعام الصغيرة الأنيقة بمفرشها الأزرق في أحد الأركان القريبة من المطبخ، المدفأة المشتعلة تحيط بها جلسة أرضية مفروشة مثل كل أجزاء البيت بجلود الحيوانات المختلفة الألوان والأشكال، ملقاة هنا وهناك بطريقة تبدو عشوائية.

يبدو أن ملك كانت تتابعني فقد رأيتها تقفز وتقترب من المدفأة قائلة:

– جلسة شاعرية كأنها منزوعة من مجالس العرب حين ينصبون خيامهم للتمتع بالطبيعة، بسط ومساند وفرش عديدة وملونة، ولكن إضافة هذه الأشياء العصرية تحيل الركن كله إلى جلسة شاعرية راقية ، هذا جهاز الراديو في هذه الزاوية وبجانبها عدد كبير من أشرطة الكاسيت، أرفف مرصوص عليها كتب كثيرة ومنسقة، أجزم إذا ما اقتربت منها، سأجدها مصنفة بترتيب دقيق بحيث أن من يقصد الوصل إلى كتاب بعينه لا تخطئه يده، شعر إلى تراث إلى فلسفة إلى سياسة، ثم هذا الحطب المتقد في المدفأة ما أجمله، ما رأيك فتون أليس من الأفضل أن نجلس بجانب النار في هذا الركن الفاتن؟

أومأت لها برأسي وقبل أن تجلس أشرت لها إلى اللوحة المعلقة فوق المدفأة، تقدمت نحوها ووقفت بجانبها أمام المدفأة قالت بإعجاب غير خاف:

– توحي عن البعد أنها رسم تجريدي لفنان حساس، سكب ذات نفسه وعواطفه كما يحسه، بينما عن قرب وبوضوح بدت خطوطاً متشابكة، لا بل أحرفاً متعانقة، لم أستطع أن أتبينها هل لهذه الطلاسم معنى في قلب الشاعر:

– إنها أحرف اسمينا كاملين... إنه عرض للزواج. يبدو الآن كل شيء كالمهزلة حتى الحوار الذي كان يعني لي غذاء روحي لنفسي، هل كان يهزأ بي وبسذاجتي يا ملك؟ أتذكر حين أراني اللوحة أدركت معنى رموزها، لكنني تجاهلت وسألته:

– إنها أحرف اسمي واسمك ولكن ماذا تعني؟

أجاب وهو يحتضنني:

– تعني أنك امرأتي.. وحبيبتي.. إلى الأبد.. ألا تحبين أن تحملي اسمي؟

– بل يسعدني ويشرفني يا أعز الناس.

أشرت لها أن تجلس في المكان الذي يحلو لها بينما قفزت من مكاني كالهاربة إلى الركن القريب الذي هو بمثابة مطبخ صغير صائحة بصوت مختنق:

– سأعد بعض القهوة.. لم نشربها سوياً منذ زمن طويل.

– هذا المكان عايشته معك لحظة بلحظة، ولم أحس هذا الإحساس الفياض، الذي يملؤني بعواطف شتى خروجاً على مألوفي، استغرب لماذا تجعلين هذا المكان الفاتن قبراً، وخصوصاً بعد أن ظهر أن رجلك لم يكن فريداً ولا ذكياً ولا فارساً، ولا حتى إنساناً كما كنت تؤكدين. لم يبعده عنك الموت كما أكد مراراً، لكن أبعده الغدر والخديعة. لا أخفي عليك أحياناً أتحفز وأشعر نحو ماهر بكثير من الغضب. أتمنى لو أستطيع أن أصرخ بما يعتمل في صدري، أرجوك لا تغضبي مني يجب أن تثقي بي وتصدقيني، أقول لك بمنتهى الصدق والغضب والحب، إنه لا يستحق كل ذلك، طيلة الأسابيع الماضية كنت أتفتت حزناً وألماً. لماذا كان لك هذا المصير؟ ألأنك أحببت بصدق؟

تركت قهوتي تفور وأدرت وجهي صوب ملك كان الحزن يقطّع أحشائي ومع ذلك تحاملت على نفسي وقلت بهدوء:

– سأقبل منك الآن ما قلت رغم قسوته لأنني أعرف لماذا أنت متحاملة عليه، لكن أرجوك لا تعودي إلى الطعن فيه مرة أخرى، إذا سمحت لنفسي أن أغضب منه أو عليه فهذا شأني وحدي، لا أريد بل لن أسمح لأحد بذلك مهما كان.

عدت إلى قهوتي التي فرغت من وعائها فأعدت صنعها من جديد، وحين عدت إلى ملك، عاد لوجهي الهدوء، على أمل أن تقنع بمحاولتها الأولى، لكني رأيتها بذكائها المعهود تعود وتطرق الحديد وهو ساخن فقالت:

– أرى أن تغيري بعض الأشياء هنا لتساعدي نفسك على النسيان، غيري مثلاً جلود الحيوانات التي تفرشين بها الأرض، أفرشيه بالسجاد أو بالرخام كما كنت تودين.

قالت بنزق ونفاد صبر لأشعرها بأنها دخلت منطقة حرام:

– من قال إنني أريد أن أنسى؟ هل تعتقدين أن الذكريات الجميلة هي وحدها التي تحفر بالذاكرة، على العكس، اللحظة التي نعيشها بسعادة، تتسرب منا، تاركة لنا فرحة ومتعة، تغذي روحنا وتمنحنا القوة والقدرة، أما الأخرى التي تحبطنا فإنها تحفر بكامل هيئتها وأوجاعها في العمق، كلما تحركت تؤذينا، تقوم بعملية تعرية لدواخلنا، تماماً مثلما تعري عوامل الطبيعة القاسية الجبال والصخور، سأحتفظ بكل شيء كما هو، حتى هذه الجلود التي كان يحبها، سيبقى كل شيء متوهجاً كما جروحي التي أعانيها. ثم إني أريد أن أقول لك شيئاً قد يساعدك على تخفيف ضغينتك على ماهر. لا تصدقي أن جروحي منه.. أبداً إنها من نفسي يا ملك، من ذلك السيل الذي تدفق ذات يوم من كل جزء مني في شغف وسذاجة وجرف معه ما جرف.

تناولت قهوتها واستعدت من جديد لحوار طويل:

– لكن فتون حبيبتي الحياة يجب أن تستمر، ويجب أن نوفر لأنفسنا أكبر قدر من الرضا والقبول، ألا تؤمنين بأن غداً يوم آخر؟

قلت وكأنني أعرض عليها نقوشاً زرعت في قلبي مع تكويني:

– هذا هي المصيبة الكبرى، غداً يوم آخر هذا صحيح، والحياة يجب أن تستمر هذا صحيح أيضاً، لكنها لن تعود حياتي التي كنت أعيشها قبله، لن تجد عندي ما كنت أعطيه، من يظن مثل هذا الظن ويؤكد أنها كذلك رغم الفقد الكبير لأهم أسباب وجودها فهو مخطئ، فقدان من أعطاها معنى جديداً لم يكن موجوداً أصلاً في الحياة، يعني أن استمرار الحياة بدونه ليس سوى أننا لم نمت بعد.

قالت وهي تزفر:

– لكن لا تنسي أن قانون حياته كان سياسة عاش الملك مات الملك، ولا..

تنهدت مهمومة فسكتت، حاولت الكلام ثم سكتت، رأتني أحاول التغلب على دموع مستعدة للتدفق حالاً بعد إحساسي بفتح الجرح عن قصد منها. أخيراً قلت:

– حتى وإن كان غادراً وخائناً، نحن لا نكره من أحببناهم ولو ارتكبوا أخطاء بحجم العالم، إنني حزينة على نفسي. تؤلمني الطعنة من الخلف لا أنكر، ربما من الغدر، ربما من سذاجتي في الحب، أتصدقين لأنني أشعر أحياناً برغبة ملحة في أن أصيح من شدة الوجع آه، أقولها بحجم الدنيا،لم يعد يهم سمعها أم لا، كان يسمع أصغر نبضة في قلبي، ويستجيب لنبضه، لصمته، هاهو الصمت أصبح صراخاً والفرح القليل مأتماً، ولم يعد يستطيع لي شيئاً.

حين أتذكر همساته وكلماته أحسها سكيناً بارداً وحاداً غرس وغاب بين ضلوعي، سحبه أخطر من بقائه. هل تصدقين بأن كل ما عشته معه كان زيفاً ووهماً؟ كيف؟ ولماذا؟ أبهذه السهولة يلهو إنسان بمشاعر آخر؟ من يجيب على أسئلتي التي تؤرقني غيره؟ لقد أعطيته كل نفسي أمام كل الدنيا، أمام هذا البحر، وهذا البيت، وهذه النافذة، وهذا الباب. الآن عقلي يشهر سيفه ويجزه من رأسي، يحاول أن يجد لي نافذة للنور، وباباً للخلاص، فيجد مقاومة لا توصف من قلبي الجريح، أي حب هذا يا ملك؟

نشجت طويلاً حتى هدأت، بينما غرقت ملك في وجومها، تركتها وابتعدت قليلاً لأستعيد توازني، أعرف أنها تتساءل في ما بينها وبين نفسها، إن كان ما أعانيه أو أقوله طبيعياً أم أصبحت الحالة مرضية؟ حين عودتي بعد أن غسلت وجهي بالماء البارد ورغم الحزن البادي عليّ استطعت أن أدهشها حين قلت بمرح أنا نفسي لا أعرف كيف استطعته بهذه السهولة:

– هيا سيدتي إلى المطبخ يجب أن نعد غذاءنا.

تبعتني إلى المطبخ وهي تحاول تغيير مجرى الحديث سألتني:

– ألا ترغبين في شيء من التغيير وترك هذا العرين والذهاب للقاء الأصحاب؟

– أكيد! لكن دعيني أحدد ذلك اليوم بنفسي. لكن يا عزيزتي لم تسأليني ماذا أعددت لك على الغداء، لا تخمني ستعجزين. المفاجأة الحقيقية لك، أنني أتحرك وأعيش أتسوق وأطبخ. أتصدقين؟ أحضرت لك أسماكاً مختلفة الأنواع، وأعددت لك أطباقاً تغرمين بها، هيا عليك بعمل السلطة ريثما أتم تجهيز الخلطات التي تحبينها أيضاً.

قضينا ما بعد الظهيرة وكل منا تعمل في مكان، وضعت أمامي الأوراق التي تخصي والرسائل التي وردت إلى المؤسسة باسمي. كانت تراقبني عن بعد، حين وجدتني أفض رسائل المؤسسة قبل أوراقي الخاصة ابتسمت وقالت:

– لم يستطع، ولن يستطيع أحد في الدنيا سواء ماهر أو من هو أمهر منه أن يغير هذه الطبيعة الرائعة في نفسك.

جلستنا المسائية كانت دافئة ولطيفة وزادها دفء كوب الشاي الساخن، ومنظر الجمر المتوقد في المدفأة، والموسيقى العذبة المتهادية إلى آذاننا من ركنها البعيد، لم نتكلم لكن كل منا كانت تحدث نفسها بينما هي في حقيقة الأمر تحدث الأخرى بصمت لا يشبه أي كلام.

حين ملأت كوبي مرة أخري بقيت رافعة بيدي إبريق الشاي حتى اقتربت يد ملك تحمل فنجانها الفارغ، قمت من مكاني متجهة إلى المطبخ وأنا أسألها:

– هل تريدين بعض الحلوى؟

أجابت:

– لا مانع في قطعة صغيرة.

قلت وأنا أناولها نصيبها :

– لا أعرف لم يشعر الإنسان بحاجته إلى السكر في الأيام الباردة.

– والأيام الباردة أيضاً تذكرنا بالتقارب مع الأهل والأصدقاء، وقضاء سهرات ليالي الشتاء الباردة الطويلة نتسامر ونهذر ونضحك ولا نمل حتى يغلبنا سلطان النوم، نتخاطف الكستناء المشوية على نار الحطب الحقيقي، والحمص والمكسرات الطازجة، أحياناً كنا نحمص الخبز ونأكله مع الزيتون والجبنة و اللبنة ونشرب الشاي الساخن أمام المدفأة، شيء لا ينسى. فتون... ما رأيك أن نقضي بعض أيام الأسبوع القادم مع الأهل والأصدقاء؟

لم أعلق، التفت نحوها وتركت المكان، جلست في زاوية بعيدة عنها، طاوية جسدي ساندة رأسي المتعب على ركبتي المثنيتين، أشدهما إلى صدري بيديّ، مغمضة العينين، مرهفة السمع إلى الموسيقى أو إلى هياج الطبيعة، ومنصته إلى خلجات نفسي، كانت نفسي ملعباً بلا حكم، كل اللاعبون فيه تتصارع على الفوز فلا يبقى غالب ولا مغلوب، فتزيد تلك الفوضى القلق، وتبدد الاستسلام القاتل البادي على الوجه، وتتسع الابتسامة التي أمنحها إياها كلما التقت عيوننا، ولا يخفى عليها حزنها.

انتصف الليل وما زلت في مكاني، ماذا أنتظر؟ لن يعود. أتراني مصرة على البقاء في هذا المكان لأنه الوحيد الذي يمكن أن يجدني فيه بسهولة؟ هل من المعقول أن أكون بانتظار عودته؟ هل من أمل بها؟ أتراني أحنّ إليه بعدما جرعني في ليلة واحدة هواناً لا تحتمله امرأة في الوجود؟ منذ ترك البيت وأنا وحدي هنا لماذا؟ تمتعنا ببيتنا _وقد أسميناه الفردوس_ وبحبنا _وقد أسميناه الحب الخالد_ أثناء البناء والتجهيز اكثر مما استمتعا به وهو على أجمل وأكمل صورة.

قمت مرة أخرى، وقفت ملك تنتظر، هل سأذهب إلى النوم؟ تنقلت في أرجاء البيت، فتحت الباب الكبير، أول مرة أجرؤ على فتحه وتأمل تساقط المطر، ناديتها لتشاطرني منظر السماء الحالك الذي جلل بسواده الأرض والبحر، وجانب من الحديقة فقد كان نور خفيف يتسرب من بين أغصان شجر النخيل ويبدد بعض الظلمة من الجهة الأمامية. قلت:

– أحب منظر السماء في الشتاء ليلاً أو نهاراً، في كل وقت لها سحرها وجمالها الخاص، قد أشعر بشيء من رهبة من حلكة سواد الغيوم في الليل، لكنها في النهار حين تتلبد بكثافة ومتعددة الألوان الرمادية فتحجب الشمس أشعر وكأنني أمام لوحة بديعة، في فترة الطفولة وبداية الصبا كنا حين نحدق في تلك الغيوم الشتوية ونرصدها طويلاً يخيل إلى كل منا أن كل غيمه تتشكل حسب رغباته، فتختلف رؤيتها عند أحدنا عما يراه الآخر، وإن كانوا متجاورين ويلاحظون السماء من الزاوية ذاتها، الآن حين تكون السماء بمثل هذا الشكل أرصد الغيوم السوداء في تكتلها في لحظات تأملاتي الوجدانية، فأرها تشكل وجهاً يشبهني ويشبه ماهر في الوقت ذاته.

أتخيلها حين تهطل إلى الأرض بسخاء، ويصبح سوادها هبة السماء للأرض، تشربها التربة فيختلف التفاعل بين تربة وأخرى، كل منها تتلقى بشكل مختلف، الأرض الرملية تتشربها إلى أعماقها بنهم غريب تحتكرها وتخفيها في باطنها، وتظل تريد المزيد، تريد كل ماء السماء، ولو حصلت عليه لا تتبدل أحوالها لا تبدلاً آنياً ولا مستقبلياً، لم تهتز، ولن تخضر ولن تزهر، ولن يكون لمثل هذا الحدث العظيم أثر عليها، هكذا أصبحت نفوس البشر.

– أليس هذا لأنها غير مؤهلة لأن تخضر وتزهر؟ لاشك أن أراضي أخرى تهتز وتخضر وتزهر وتثمر. ليست الأراضي كلها بوراً ولا النفوس كلها عقيمة.

– معك حق، لقد اعتقدت أن ظهور ماهر في حياتي أمر سماوي حتمي، اعتقد أن حياتي وحياته اهتزت وانتظرت أن تخضر وتزهر وتثمر لأنه مثلي، لأنه يكملني هو دون غيره نصفي، اتضح أن ذلك المثال الخيّر سيبقى حلماً إلى آخر أيام العمر.

عادت إلى مكانها وقالت:

– إنك تغفلين خمس سنوات تعاملت فيها مع نوعيات مختلفة من البشر، ولمست مدى التفاوت بين النفوس، ورأيت بأم عينك من هم مصدر عطاء لا ينضب ومع ذلك لم يقدرهم من تعاطى معهم من الناس ذوي النفوس المريضة، فكانوا سبباً في تعبهم ويأسهم. وأنت من أقنعهم بأنه لن ينقذهم مما أوصلوهم إليه إلا بالشعور بقيمة النفس التي بين جنباتهم إلى درجة الإيمان بها.

– لم أعد أتذكر إلا فترة ظهور ماهر في حياتي.

قالت متأففة:

– يا إلهي كيف استولى هذا الرجل على حياتك بهذا الشكل المرعب، صدقيني فتون أنه شيء غير طبيعي، ليس هذا رأيي ولكنه رأي الدكتور جمال أيضاً.

قلت بعصبية واضحة:

– أرجوك ملك لا تقولي عنه هذا الرجل لأن له اسماً، ولا أقبل ولن أقبل منك أو من أحد غيرك كلمة واحدة لا تليق به كإنسان أحببته وما أزال. أرجوك ألا تضطريني إلى لفت نظرك مرة أخرى.

قالت بهدوء:

– آسفة يا عزيزتي.. سنطلق على الفترة التي تذكرينها بمثل هذا الإعجاز ما بعد عاصفة الحب وما ألح عليك أن تذكريه ما قبل عاصفة الحب. إنني متعبة سأذهب للنوم مباشرة بعد أن أطمئن على حسان، وغداً صباحاً سنحاول أن نتوصل إلى تقريب وجهات النظر التي لن تفسد للود قضية.

قبل أن أدخل فراشي سمعت صوت ملك ينادي:

– فتون حسان يريد أن يكلمك..

يا للرجل الإنسان كم أحبه، أحببتهما على درجة متساوية، كانا جديرين بتلك المحبة، فلم أجد سبباً مقنعاً بأن أمنحه عاطفة مقننة لأنه رجلاً بينما أطلق لعاطفتي العنان تجاه زوجته لأنها امرأة. خرجت إليها والتقطت السماعة على عجل وقلت:

– مرحباً حسان.

– أهلاً فتون.. فرحت جداً لأنك طلبت من ملك الحضور، هذا يعني أنك ستعودين إلينا قريباً جداً، كنا قلقين جداً عليك، لعل ملك أخبرتك بأننا لم نتركك، كنا نذهب وندور حول بيتك لنطمئن عليك من بعيد.

غلبني انفعالي من هذه المشاعر الصادقة فقلت:

– آسفة لما سببته للجميع من قلق، ولكن كنت اعتمد على مدى تقديركم للأمر فقد كان أكبر من احتمالي، كان عصيباً، كأنني تعرضت لعملية بتر جزء من جسمي دون تخدير. والمضحك المبكي والعجيب، أن الجميع يصرّ على أنه جزء مريض لا بد من بتره، بينما أنا على يقين من أن الجزء الذي سيبتر سليم معافى.

– أدرك جيداً يا عزيزتي ما تقولين، أصبحنا بعد العشرة الطويلة كأننا أفراد عائلة واحدة. المهم أن تقاومي ولا تستسلمي، كلنا مررنا بمثل تلك التجارب العاطفية القاسية التي قد تصل بقسوتها إلى العقل والقلب، وتهدم الجسد، لكن الروح يافتون، الروح تزداد قوة كلما اشتدت الأزمة، كلنا نعرف روحك العالية، ثم ماهر مازال يسأل ويهتم ففكري به بالصورة التي تعرفيها عنه لا ما تقول عنه ملك وغيرها. وإلى أن تعودي إلينا استودعك الله.

قلت بمحبة:

– مع السلامة، وتصبح على خير.

ناولت السماعة إلى ملك الواقفة بجانبي تراقب انفعالاتي، تركتها متمنية لها ليلة سعيدة.

(2)

في الصباح كنت في المطبخ أحتسي قهوتي بمزاج معتدل، رأيت ملك تقف في الباب فاردة ذراعيها كجناحي طير يهم بالطيران، ابتسمت أرد على تحيتها الصباحية، جذبت لنفسها مقعداً لتجلس بقربي، صبت لنفسها بعض القهوة، وصمتت مثلي، وأخذت تتلذذ برائحة بخار القهوة المتصاعد منها يعبق في الجو، قبل أن ترتشفها نظرت نحوي طويلاً، رأتني أحدق بها فسألتني:

-ماذا هناك؟ لماذا تنظرين إليّ كأنك لا تعرفينني وتودين سبر أغواري؟

قلت بصوت خفيض:

- وهل بالضرورة أن تعني محاولتي سبر أغوارك أنني لا أعرفك؟

- إذن لماذا هذه النظرة الخارقة؟ اسأليني أجيبك؟

- أشعر كأنك تطاردين أفكاري، تلاحقين خيالي تريدين اقتناصه.

قالت بإعزاز:

- ولماذا "اقتناصه" هو فعلاً يعجبني كثيراً، وخاصة حين تروين الحقائق، أراك تلونينها ليتقبلها سامعها دون نقاش. أمس لم أكن أسمع بقدر ما كنت أحلل ما تقولينه وأتساءل ترى ماذا تريدين مني؟ أنت تعرفين أنني لا أستطيع أن أوافقك على قتل نفسك، أنك تعيشين الأحداث بكل مشاعر حزنها وفرحها كلما تذكرتها. نسيت أن أسألك لماذا أرقت ليلة أمس؟ سمعتك تتقلبين كثيراً.

- فعلاً لم يكن نومي مريحاً ومتواصلاً ومع ذلك أشعر بانتعاش غير عادي، كلما أنفرد بنفسي أفكر من جديد في الأمر فأكاد أجن، ملك بالله لما كان كل ذلك؟

- هه.. أليس الأجدر أن تقولي ما فائدة كل ذلك؟ أقترح عليك أن تتذكري مواقف ماهر السلبية تجاهك لعل ذلك يساعدك.

- حاولت ولم يجدني نفعاً سوى المزيد من الألم، صدقي أو لا تصدقي لا أستطيع تذكر مواقف سلبية لماهر دون أن يسرع قلبي ويجد له الأعذار؟

لم تهتم بالضحكة التي أطلقتها بشكل ودي ساخرة بها من نفسي، فقد أعادت إلى الحديث جديّته فقالت:

- دعيني أساعدك، تذكري مثلاً فترة الشكوك التي حاصرتك طويلاً وعذبتك وأحرقت أعصابك ودمك، والدموع التي ذرفتها. تذكري أنه لم يترك لك فرصة للخيار لقطع ما بينكما، بل كان يزداد إصراراً على تعذيبك. هل تقصدين إهمال ذاك الجانب؟ أراه أهم من كل فصول القصة فنهايتها لها علاقة وثيقة بتلك الفترة. إذا كانت الأدلة غير بينه وثابتة فقد ثبتت صحتها الآن.

لم أجب، تركتني وذهبت إلى الحمام تغتسل، سمعت صوتي أطلت مستوضحة، فقلت:

- لماذا هربت من أمامي؟ أتعتقدين أن لا جواب عندي؟ أو أنني فعلا أود نسيان تلك الفترة؟

غابت برهة ثم عادت قائلة من وراء الباب الموارب:

– سآخذ حمامي وأخرج بسرعة لأسمع وأرى، جهزي نفسك لحديث طويل.

فاجأتها قائلة:

– سنخرج من هنا بعد ساعة لنتناول غدائنا في الخارج، ثم بعد الغذاء نذهب إلى المؤسسة ونشرب القهوة هناك، وأطلع على ما حصل أثناء غيابي ما رأيك؟

رددت عليّ من تحت الماء المتدفق من الدش بصوت مرتفع:

– عظيم جداً، لو كنت خارج الماء لأتيتك وقبلتك بحرارة على هذا القرار.

تركنا البيت في الظهيرة، حاولت ملك إقناعي بعدم القيادة فأصررت على ذلك قالت وهي تجلس على المقعد المجاور في سيارتي:

– كنت أتمنى ألا تعمل فأنا لا أتحمل أن أكون في سيارة يقودها غيري.

– أريدها لأن صندوقها أكبر من صندوق سيارتك، سأحضر بعض الأشياء التي لم أجدها في المحلات القريبة من الشاطىء.

– وهل ستعودين للإقامة هنا فترة طويلة؟

كنا قد اقتربنا من أستوديو التصوير الذي كان ماهر يعمل فيه، وكان يبعد عن بيتنا بمقدار نصف ساعة تقريباً، توقفت وأدرت وجهي كأنني أبحث عن أحد ما، قالت ملك:

– أتعتقدين أنه هنا؟

قلت متجاهلة:

– من تقصدين؟

قالت باستخفاف:

– فارسك الشجاع. عفواً فتون لقد كان وما زال لا يستحق منك ذرة من العذاب ولا لحظة من تفكير.

– تقولينها ببساطة، كأنك لا تقدرين إنه إذا اتضح ذلك في يوم من الأيام سيقضى علي بضربة قاضية.

– أرجوك، هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها، يجب أن تكوني على استعداد لتقبل الحقيقة مهما كانت مريرة. حين يقع علينا خطأ ما أو ظلم ما فنحن مسئولون عن ذلك بقدر مسئولية الآخرين، سواء من ظلم، أومن وقف متفرجاً على الحياد، ومن أحكم الرباط حولنا حتى يمكنوهم منا.

– ملك ماذا تحاولين أن توصلي لي؟ أرجوك أفصحي.

لزمت الصمت وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر ترقب اللا شيء. تركت الأستوديو ورائي وانحرفت إلى الجهة المقابلة، أردت كسر جو الصمت المشحون بالغضب عندي وعندها، قلت وأنا أشير إلى بيت منفرد يشبه قصراً صغيراً مقاماً على جانب الطريق، وهو أقرب للمدينة منه إلى الشاطىء:

– هذا بيت سهيلة، أو سوسو هذا اسمها الفني. ذات يوم رأيت سيارة ماهر واقفة أمام هذا البيت، سألته حالما رأيته، ارتبك، ومع ذلك لم يخطر في بالي شيء من تلك الحقيقة بينما اعتقد أنني حاصرته، وأنني أعرف أكثر مما أبدي، لم يكن بجانبه بيت أو أي شيء ليدعي أنه كان في بيت مجاور، ومع ذلك وجد مخرجاً، لم يتوقف ليفكر بضع ثوان وأجاب على الفور:

– آه.. نسيت أن أخبرك بأن سيارتي تعطلت قبل الوصول إلى الأستوديو وكنت في عجلة من أمري لألحق بموعد التصوير، تركتها في مكانها وأكملت الطريق على قدمي، ولكن قبل وصولي رآني أحد معارفي، فأوصلني وتبرع بسحب سيارتي إلى جانب الطريق ريثما يحضر ميكانيكياً لإصلاحها.

انتزع فتيل شكوكي وأسقط في يدي، ها هو يقسم كما كان يقسم منذ أن دخلت الشكوك رأسي قبل أن يتضح من هي المرأة، وهو لا يعرف أنه من وجه عنايتي إليها فأخذت أراقبها وأراقبه. وقتها لم أكن أخفي عنه شيئاً، سألته مباشرة عنها، باسمها الحقيقي، فأقسم أنه ليس له بها أي علاقة سوى عمل واحد من أعماله اشتركت في تمثيل أحد أدواره.

قالت ملك:

– لا تنس المغالطات اللفظية والتلفونية التي كان يقع بها رغم حرصه، وأسلوب رسائله المبتذل حسب رأيك حين قرأت لي بعض ما بها عدة مرات.

– أتعنين "انزلي هذه الستارة واخلعي ثوب الإمارة يا أحلى جارة، غزاله أنت، شعرك حرير وذهب،" يا إلهي ألفاظ هابطة لا تقال بهذا الأسلوب الرخيص إلا لامرأة رخيصة. لقد سألته يومها فنفى الأمر واستنكر شكوكي. لن أنسى ما حييت يوم تقابلنا في المسرح، كانت نظراتها له ونظراته لها فيها رائحة شيء ما مريب، آه يا ملك أعرف أنك تصدقين أنني حين كنت أسأله عن حقيقة الأمر لم أكن غيّرى، بل كنت أحرص ما أكون على نفسي ألا يزدريها، ألا يهينها بالغش والخداع، حتى ولو كان يحبني وتعرض لإغواء ما، ولا يجد الأمر يستحق أن نفترق بسببه، من حقي أن أعلم ولا يخفي شيئاً، قد أنسحب ولكن سيبقى له مكانة عندي، سأحترمه ضعف أو أخطأ.

كنا قد وصلنا إلى النادي الذي اعتدنا تناول غدائنا فيه معظم الأحيان، دلفنا إلى المطعم متوجهتين إلى المنضدة التي نجلس عليها دائماً، كان الترحيب بنا رائعاً، منذ مدة طويلة لم نأت أنا وملك إلى هنا، منذ أن أصبحت أخرج مع ماهر إلى مثل تلك الأماكن. دار الحديث حول عدة مواضيع وتشعب أثناء الغداء، لكن مهما ابتعدنا عن موضوع ماهر، نعود إليه، كأن ملك تهيئني لشيء ما، عدت أسألها وألح في بالسؤال وأخيراً سلمت وقالت:

– الحقيقة أن الموضوع الذي كنت أود أن أحدثك فيه يحتاج إلى قوة أعصاب، وأعتقد أنك يجب أن تتمالكي نفسك حين تسمعينه لأنه سيكون له أثر بالغ في إنهاء مشاكلك، وسيساعدك كثيراً على العودة إلينا أحسن مما كنت قبل أن تلتقيا.

قلت وقد بدأت أفقد أعصابي:

– إنك تشغلين بالي بمثل هذه الأحاجي، قولي ملك أرجوك، فأنا ممن يؤمنون بأن وقوع البلاء خير من انتظاره، هل الكلام يخص ماهر.

قالت على مهل:

– الحقيقة أن الموضوع يخص الدنيا كلها، لا أعرف هل نحزن على الأخلاق؟ أم نحزن على الضمائر التي تنوم دون إشعار آخر؟ أرجوك أن تصحي مما أنت فيه، لقد اتفقنا أنا وجمال أن تحكمي على الموقف وأنت متخلصة من كل مشاكلك حتى تتمكني من أن تفرغي منه فقد آن الأوان. ما رأيك بليلى؟

– إذا كنت تعنين ليلى الموظفة التي عرفنا عليها جمال وطلب منا عملاً ما لها، فأنا لا أعرف عنها أكثر من أنها إنسانة عادية، قد تكون مداهنة بعض الشيء لكن لا ضرر منها طالما تداهن لتقترب بزيف نحوي ونحوك ونحو جمال من أجل لا شيء، سوى حسب اعتقادي أن ذلك عادة عند بعض الناس، التقليل من شأن أنفسهم، ما علينا منها، ولماذا تسألين؟

– هي الأخرى لها مشكلة عويصة، لم يلاحظ أحد أنها أصبحت تتغيب كثيراً دون عذر مقبول، وكلما لفت نظرها كانت تقول باكتئاب مخيف "لا يهم مدام ملك اقتطعوا ذلك الغياب من راتبي أنا متعبة فعلاً" كان الذي تعيشه وتعانيه هو سبب ذلك الغياب.

– ملك مالي ومالها، الآن كنا نتحدث عن ماهر وعني فلماذا قفزت تلك القفزة لتخلطي الحابل بالنابل؟

– آسفة فتون كنت أود أن تهيئي نفسك قبل دخولنا إلى المؤسسة، لربما كانت هناك، فإن جمال لا يتركها هذه الأيام، لقد انهارت بعد أسبوعين من عزلتك، وطلبت بإلحاح أن تراك، رفض جمال ومنعها بشدة، ثم طلب منها الانتظار إلى حين تحسن حالتك، وأبلغها أنه سيطلب منك الحضور بنفسك لتحاولي مساعدتها.

كانت الساعة الثالثة حين خرجنا من النادي متوجهتين إلى المؤسسة، لم نجد أحداً، استعملت ملك مفتاحها الخاص، اتجهت إلى مكتبي، جلست على المقعد المقابل للمكتب، آه.. منذ مدة لم أحضر إلى هنا، لقد كنا معاً آخر مرة، احتفلنا بعقد زواجنا بين كل العاملين بالمؤسسة، وكان من بين الحضور جمال وحسان، وكانت المضيفة وقتها ملك تطوف على الجميع بالعصائر والقهوة.

ضحكت بأسى للذكرى، وتركت مكاني متجهة إلى المطبخ الصغير لصنع القهوة لي ولملك، ولكني وجدتها قد سبقتني، طلبت منها بإلحاح أن تتركني أجهزها، ناولتني علبة السكر وهي تقول:

– أي رضا هذا؟ لأول مرة تصنعين القهوة هنا. ما الذي جرى؟

شاركتها ضحكتها ووقفت أنتظر غليان الماء، سرحت مرة أخرى، ما الحكمة في كل ما جرى لي يا ربي؟ هل هو عقاب أم ثواب؟ هل ارتكبت خطأ لأني أحببت؟ أين ماهر الآن؟ ماذا يفعل؟ وبماذا يفكر؟ هل يعرف مقدار الأذى الذي ألحقه بي دون ذنب سوى أنني أحببته؟ انتزعت ملك من يدي الملعقة والسكر ودفعتني برفق لتتيح لنفسها مكاناً أمام النار لتتم صنع القهوة بدلاً عني، لم تجد الماء الكافي، لقد تبخر، أخذت تضحك وتتندر وأنا جامدة مثل الصخر، انفجرت في بكاء مرير، اندفعت إلى مكتبي وأغلقت الباب، جلست مبهورة الأنفاس وألقيت برأسي فوق راحتي واستمر نشيجي وبكائي الموجع.

– القهوة سيدتي.

سمعت صوت ملك رفعت رأسي كانت واقفة على الباب حاملة صينية القهوة بانتظار ردي لكن في عينيها ألف سؤال واحتجاج، قلت:

– أهلاً ملك، كل هذا الوقت من أجل عمل فنجانين من القهوة؟

قالت بصوت العاتب الغاضب:

– كنت بانتظار انتهاء نوبة البكاء قبل أن أحضر مع قهوتي، ولكي تعرفي كم انتظرت أعلمك بأنني قد سخنت القهوة مرتين، ثم عدت وصببتها في الحوض وصنعتها من جديد. إلى متى ستبقى أحزانك تغمرك وتغمر كل مكان تكونين فيه؟

– لا أعرف يا ملك، مرحلة وستمر لكن بعض الصبر والوقت، من أجل ذلك فضلت البقاء بعيدة عنكم في بداية الأمر. كل حديث أو حوار أو كلام في الموضوع و حتى كل مكان جمعنا يفتح جروحاً بعينها، وكلها حين تأتي توجعني دون إرادة مني، لعلني أبحث عن الثغرة التي دخل لي منها هذا الوهم، أو هذا الخطأ أو هذا المنحدر الخطر. الحيرة تكاد تفقدني صوابي، كل ما كان بيننا يوحي بالثقة الكاملة، بالحب الحقيقي، بتفاني كل منا بالآخر، سأظل أسأل ما الذي حصل؟ لن أرتاح قبل أن أعرف. لا يعذب الإنسان شيء ويدفعه إلى حيرة مدمرة قدر عدم فهمه لما حصل، والذي بدل الأحداث من النقيض إلى النقيض فجأة ودون مقدمات.

– إن ما تقولينه صحيح مائة في المائة، لا بد من ذلك منطقياً في كل حدث، وإلا لن يكون هناك ما يستحق المعاناة أو الفرح. على كل حال ليس هناك من طريقة لتتوصلي إلى ما تريدين معرفته سوى الاستماع إلى ليلى، لديها الكثير لتقوله لك. الدكتور جمال يعالجها وقد روت له أحداثاً قديمة

وحديثة في حياتها، يريدك أن تعرفيها ففيها يكمن الكثير مما يؤرقك، لقد رفض في البداية إخبارك وفضل تأجيل معرفتك مثل هذه الحقائق إلى حين عودتك لنفسك خوف الانتكاس و..

قاطعتها بلهفة:

– ماذا تخفون عني؟ أي ليلى هذه التي بين يديها خلاصي؟ قولي بسرعة؟ لعلكم تخفون أسباب نجاتي وتحسبونها ستقضي عليّ. ملك أرجوك، ما يقوله جمال صحيح، يكفي أن أفهم لأتخلص من كل هذا العذاب.

قالت ملك باندفاع:

–إذن.. يجب أن تستمعي إلى ليلى سمعان، التي تعمل عندنا، أو بالأحرى عندك، فالحقيقة أنها دخلت المؤسسة لتعرف كل شيء عنك.

قلت بدهشة:

– لماذا تتحرى عني؟ ما الذي تريد معرفته عني وكل حياتي كتاب مفتوح أمام الجميع؟ وهل ساعدها جمال في ذلك؟ كيف أقنعته –إذا كانت ثقتي به في محلها– بالوصول إليّ؟

– يجب ألا تفقدي ثقتك بأي منا، نحن أقرب إليك من نفسك، لكن هناك قصة طويلة سأنادي عليها لترويها لك، قبل ذلك عليّ أن أستدعي جمال ليكون بيننا حين تحكي ليلى قصتها العجيبة، عن إذنك فتون دقائق وأعود.

تركتني في حيرة من أمري، لاحظت أن ليلى تحوم حول مكتبي وتلقي نظرة عليّ كلما مرت من أمام الباب، لقد حيتني أكثر من مرة، وجهها شاحب حزين، كأنها على وشك الارتماء بين يدي والانفجار باكية. ترى هل تعرف أن بذور الشك حولها قد نثرت داخل نفسي منذ قليل، ناديتها فوقفت عند الباب وجلة طلبت منها كوب ماء، رفعت كفيّ عن عيني وجدت كوب الماء أمامي وليلى غير موجودة، ابتسمت من أحوال الناس، ترى ما الذي يدفع بصانعي الشر إلى الخوف أو الخجل أو الندم؟ لو كان عندهم بعض إحساس بمثل تلك العواطف أو يملكون شيئاً من اليقين بوجودها لترفعوا عن إلحاق الأذى بغيرهم. هذه العواطف الكبيرة والعظيمة لا أظنها تعنيهم، ولا أظنهم يقدرون عليها فلماذا التمسح بأذيالها؟

عادت ملك مسرعة وقالت وهي تلهث:

– بعد قليل سيصل جمال ويكون معنا حين تستمعين لما تود ليلى قوله لك.

قلت وأنا أتطلع حولي بحثاً عن ليلى، أو عن إشارة توضح بعض الألغاز التي تزرعها ملك في رأسي حول تلك المرأة التي لم أشك لحظة في ولائها لي أو للمؤسسة التي تعمل بها، وتكفل لها ظروف معيشتها، لمحت رسالة موجهة إليّ موضوعة بعناية فائقة وبمكان ظاهر على مكتبي، تحمل اسمي ولكن دون اسم مرسلها. انخلع قلبي، إنه الأسلوب ذاته الذي اتبعه ماهر في بداية تعارفنا. لم تنقطع تلك

الرسائل إلا بعد أن غادر بيتنا وخرج بشكل صاعق من الباب الذي كان سيضمنا خلفه إلى الأبد كما كان يقول. أصبحت رسائله اليومية تسلم لي يدا بيد، وفي الأيام القلية التي عشناها سوياً كان يتركها بالقرب من وسادتي كل صباح، لم أكن أعرف متى يكتبها ولم أسأل، كانت رسائل أصغر نوعا مما قبلها ولكنها أكثر زخماً وغراماً و.. صدقاً.

أمسكت بالرسالة وهممت بفضها بلهفة، إلا أن ملك قبضت على يدي بجمع يدها قائلة:

– فتون أرجوك ليس الآن. لعل ماهر سيعيد تخديرك وسلب إرادتك من جديد، شيء فظيع إن لم تلحظي شيئاً من هذا القبيل في رسائله السابقة أو في كلامه وتصرفاته، كم هو رجل مرعب، لا أستطيع أن أتهمك بأنك قليلة الملاحظة، فأنا على يقين من أن مثلك إن لم تلاحظ بعينيها، لا يمكن أن تخونها أحاسيسها.

قلت نافية:

– لم ألحظ شيئاً بتاتاً، بل أجزم أنه في كل يوم مر على تعارفنا كان فيه أرق وألطف وأصدق من اليوم الذي قبله، ومنذ عرفته وفرحته بي حقيقية، وتعبيره عن السعادة التي يحسها معي طاغياً، هو معي دائماً سلساً مرحاً يتدفق مثل نبع صاف غزير فياض، كل كلمة، كل همسة ولمسة وحركة، كانت تحمل أسمى آيات الحب الحقيقي الذي لم أشك به ولن أشك به مهما حصل ومهما عرفت ومهما سمعت.

صمت لحظة أستجمع بها شتات نفسي، وألتقط أنفاسي المبهورة، فكثيراً ما يشتد انفعالي حين أشعر أن هناك خطراً ما يهدد أجمل السنوات التي أعتبرها كل حياتي بالدمار، ويحكم عليّ بعدها بالسذاجة وعلية بالفساد الخلقي والدمار النفسي. قلت أواصل الحديث وكأنني أواصل الدفاع عن كل ما أملك:

– لكن ماذا تقصدين بمثل هذا الاستجواب الدقيق؟ وماذا بعد أن أجبتك بمنتهى الصدق أنه كان بمنتهى الحب والصدق والسعادة.

قالت مختصرة:

–لأنه قبل بضعة أيام من زواجكما كان قد خرج من البيت متوتراً اثر شجاراً وقع بينه وبين ليلى ولم يعد؟

قلت على عجل:

– ما علاقته بليلى أخبريني؟

قالت وهي تقفز من مقعدها وتخرج من الباب وهي تقول:

– ستخبرك بنفسها.

دخل جمال في اللحظة التي كنت على وشك اللحاق بملك والغضب قد أخذ مني كل مأخذ، ما هذا الذي يقال أكاد أجن، كدنا نتصادم بقوة اندفاعي لولا حرصه على الابتعاد في الوقت المناسب، ومع ذلك مد يديه الاثنتين ليسندني، فأجهشت ببكاء مرير قائلة:

– أرجوك يا عزيزي أخبرني الحقيقة، ماذا تخفون عني؟ أكاد أجن، وهل من سبب لتأخير عذابي، لم أعد أفهم من الصديق ومن العدو، ولماذا يكون لي أعداء وأنا أحب الجميع؟ أفهمني إذا كنت تعرف أي شيء أرجوك.

قادني إلى مكاني وأجلسني بهدوء وقال:

– ستعرفين كل شيء، بل لا بد أن تعرفي كل شيء، هذا سيساعدك حتماً، ولكن سيكون له تأثير موجع في الوقت ذاته. إن الرجل الذي أحببته وتزوجته ليس بالرجل الحقيقي الذي يستحقك ويستحق كل هذا الحب. لا أريد أن أظلمه، ربما أحبك بصدق، وحاول أن يتغير من أجلك، ولكن كان قد فات الأوان. لقد ارتكب أخطاء كثيرة ليس من السهل أن تمر دون أن ينكشف، ودون أن يدفع ثمنها، إن ما فعله بك وحده أعتبره جريمة لا تغتفر، إلا حين ألجأ إلى التعليل الذي ذكرته لك، أنه أحبك وأراد الاحتفاظ بك مهما كلفه الأمر.

قلت وأنا أرتجف هلعاً وأدفع بيديه بعيداً عني:

– الآن فهمت. ألهذه الدرجة وصلت بك الكراهية للرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي؟ ألهذه الدرجة هنت عليك فحفرت حولي تلك الأخاديد والخنادق لأقع دون رحمة؟

قال وقد بدأ يفقد صبره:

– هذا ما خشيته كل ذلك الوقت. منذ أن حاولت تنبيهك إلى الحذر منه أصبحت محل شكك وريبتك، ليس أنا من يؤذيك، وأن كنت الآن أتمنى لو أني فعلت وأنقذتك منه ومن أحابيله، لكن الحب أعماك في ذلك الوقت ولم تستمعي لأي منا.

قلت صارخة وأنا أخرج من الغرفة:

– لن أسمح بتدمير ذلك التاريخ الذي أحبه، كما سمحت أن أهدم بيتي، وأظلم حبيبي، لعل دخول تلك المرأة كان من تدبيرك، وكذلك ليلى هذه التي تطلبون مني سماعها بإلحاح غريب لتدمرني أكثر أو لتنقذني كما تدعيان، آسفة أن وثقت بأي منكما.

تلقتني ملك بين يديها وهي قادمة تجر ليلى خلفها قائلة لي بعصبية:

– ارجعي فتون واستمعي لها ولتنته هذه المهزلة.

نفضت نفسي بعنف بعيداً عنها، وخرجت من المؤسسة متوجهة إلى البيت، أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن ينطلق بأقصى سرعة إلى الشاطىء الذهبي، كان تفكيري ملتهباً طوال الطريق، أفكر في ملك وفي جمال، ما مصلحتهما في تدمير العلاقة بيني وبين ماهر؟ لم أجد سبباً، بل أتذكر

أنهما أحباني وأحباه بصدق، وساعداني بمنتهى الإخلاص، ولكنني في الوقت نفسه لا أجد سبباً واحداً يدفع بماهر إلى خداعي أو دخول حياتي ليدمرها كما يدعون. ما عساه يجد عندي غير الحب الذي منحته له عن طيب خاطر وبكل الرضا؟

ماذا عن تلك الفترة الحالكة في علاقتي بماهر، كيف أفسرها؟ ها هي تقفز إلى بؤرة تفكيري وتعجزني مرة أخرى. كيف أعيد تقييمها في ضوء هذه المستجدات؟ ذروة شكوكي في علاقته بتلك الفتاة التي دخلت حياته عن طريق العمل معه، لم يخبرني وقتها عن وجودها في البرنامج الذي كان يعد في التلفزيون ومن إخراجه، حتى بدأ إحساس يراودني بأنه يخفي عني شيئاً ما، مواعيدنا الثابتة بدأت تتغير ولهجته تتغير، أصبح يستعمل في ألفاظه بعض الكلمات التي كنت أعتبرها سوقية، حتى في كلمات غزله، لم أفكر كثيراً بالأمر بل سألته بشكل مباشر، إن كان قد تعرف على أناس جدد في حياته، أذكر الآن أنه سألني وقتها بشكل من تفاجأ:

– ماذا تعنين بأناس جدد؟

– ربما يعمل معك منذ فترة طويلة أناس من الطبقة الدونية التي لا تتورع عن استعمال ألفاظ وكلمات وحركات بذيئة بعيدة عن التهذيب وخالية من الذوق، شيء مثل هذا عادة مرفوض من الناس المهذبين والمترفعين عن تلك الأوساط؟

قال وقد قاطعني بجفاء:

– أوضحي ماذا تعنين؟ وما هذا التقييم الطبقي الذي أسمعه منك الآن؟ هل أخبرك أحد ما عن العمل الذي قدمته للتلفزيون وأشركت به بعض الوجوه الجديدة؟

– أبداً.. لم يخبرني أحد، لكن من الواضح تأثرك بهم، فمعظم كلماتك وإيماءاتك جديدة علي. أين سترى مثل هؤلاء الناس إلا في العمل، في تقديري قد تكون مثلاً ممثلة مبتدئة أو امرأة تدخل عالماً تعتبره مسحوراً تراهن على أنه سيحقق لها المال والشهرة، فلا بأس في أن تستعمل كل وسائلها في سبيل ذلك.

رأيته يبهت ثم يقول وقد تماسك:

– هل تريدين أن تقنعيني أن هذه الأفكار هي مجرد اكتشاف عبقري، لم يخبرك أي شخص عنها؟

– وهل أعرف أحداً ممن يعملون معك معرفة وثيقة إلى حد إخباري بمثل هذه التفاصيل؟ إذا كان في ذلك التحليل ما يضايقك عليك أن تخبرني بصدق، سأتفهم مهما كانت المسألة، أما إذا اكتشفت ذلك بنفسي فلن تمضي الأمور إلى نهاية سارة.

– أ غيرة ما أسمع؟ كم أنا محظوظ إذ تغار علي امرأة رائعة مثلك. ليس هناك أي شيء جديد، وآسف إن استعملت كلمات لا تحبين سماعها، ألم أخبرك بأن تضعي كلماتي الأولى مثل حلقة في

أذنك، بأنك الوحيدة في حياتي، ليس هناك قبلك ولن يكون بعدك ولا معك، أنت وحدك مالكة قلبي وحياتي، ولا تصدقي شيئاً مثل هذا مهما حصل.

كانت المرة الأولى التي أسأله فيها ولكنها لم تكن الأخيرة، أصبح ينعتني بصفات أخرى، أسلوب آخر، كلام آخر، يحمل المعاني ذاتها، وله وحب وعشق أبدي وسماوي، وأنه طفرة في حياته و.. كثير مما كان يقوله لي ولكن بالأسلوب الذي تفهمه من سيوجه إليها، يومها قلت له ببساطة:

– وصلتني رسالتك الأخيرة أعتقد أنها وصلتني بطريق الخطأ، لولا أن الخط خطك لألقيت بها في سلة المهملات ولما أعرتها أي اهتمام.

سحب الرسالة من يدي بسرعة، لمعت عيناه ببريق خاطف، ذلك البريق الذي تعلمت أنه لا يأتي إلا حين يدور عقله بسرعة غير عادية، ليخلص إلى جواب فوري مقنع، وأعرف أن ذلك لم يكن يكلفه جهداً يذكر، وبالوقت نفسه لا يتسنى لأحد مهما بلغ من فطنة ملاحظة ذلك الارتباك الخفيف سواي، ولا أدّعي أنني شديدة الملاحظة بشكل خارق، لكنني امرأة تحب، وتتدفق مشاعري في كل لحظة معه بشكل عجيب، وأفهم كل قول ونظرة، لولا اقتناعي الكبير بقوة الحب الذي ربط بيننا وإحساسي الكبير بصدق كل ما يقول لأنه صدى لما كان له عندي، لكان لتلك الملاحظة أن تأخذ مأخذاً آخر، غير هذا العتاب الرقيق المختلط جده بهزله وشكوكه بيقينه. فقد أجاب بسرعة مذهلة وبلهجة قاطعة:

– هذه رسالة لك وليس لأحد سواك، أردت التغيير خوف الملل.

قلت وأنا أجاريه في ضحكة وبساطته:

– إذا كانت هذه الرسالة موجهة إليّ فعلاً، فإن لذلك معنى جديداً، يعني أنك في بعض الأوقات تلغي عقلي. الرسالة موجهة لامرأة نصف أمية، والدليل أنك كتبت كلاماً ثم أعدت شرحه، منذ متى تشرح لي ما تكتبه أو تختاره؟ هل نسيت أنني جامعية أم ماذا؟

قال وقد بدأ يغضب:

– لقد استفحل الأمر، هل يعني ذلك اتهاماً؟

– لا.. إنه مجرد استيضاح لأمر أعتقد أنه يهمني جداً.

– لم يحصل بيننا شيء كهذا من قبل، لا أستطيع أن أفرق بين الحب والثقة، إذا كنت لا تثقين بي فأنت لا تحبينني أبداً. ومع ذلك سأوضح لك كل ما تسألينني عنه لعلي أبدد شكوكك، لكنها المرة الأولى والأخيرة. هذا كل ما أستطيع أن أقوم به تجاهك.

قلت دون أن أفقد مرحي:

– قل لي من استجد على حياتك، بعدها سأعرف السبب في تغير أسلوب مخاطبتك ورسائلك وأشعارك التي بدأت تميل للعامية. سواء في العمل أم علاقة من نوع آخر.

– أعتقد أنك تلمحين لشخص ما بعينه، هناك من أخبرك عن ممثلة عملت معي في أحد الأعمال أخيراً، ولا أحد غيرها جديد في مجال العمل، ولا علاقات أخرى لي، فأنت تعرفين كل من يحيطون بي تقريباً، ولكن ألم يخبروك أيضاً عن سقوط أخلاقها، وعلاقاتها المشبوهة؟ فهل تعتقدين مثلاً أن مجرد العمل معها فترة ما، أوقعتني في غوايتها وأغرمت بها لدرجة أن أساق في طريقها بلا تعقل، وأقول لها ما أقوله لك؟ إذا وصل تفكيرك إلى هذا الحد فسأعتبره إهانة كبيرة لن أقبلها، ومنك أنت بالذات.

يومها أغلق عليّ، لم أستطع أن أتمادى في التفكير في ذلك الاتجاه الذي أقل ما يقال فيه إن حبيبي هذا الإنسان الذي أوشكت أن أتوحد معه قلباً وقالباً، محل شك مريب بأخلاقه، خجلت من نفسي ومنه، مع ذلك لم يطمئن قلبي سوى للحظات وأنا أسمعه، وتعود وساوسي مع ابتعادي عنه وعودتي إلى نفسي. صرت أهرب من نفسي وألوذ بأعماقي، حيث مكان وجوده الدائم فأجده هناك كما أحببته وآمنت به، وحين يشتد ألم شكوكي لا أجد علاجاً أنجع من معاودة سؤاله، ومعاودة تأكيده أنني مخطئة. أصبح ذلك الألم المتمكن فيّ مثل أي علة تتملك أي عضو من أعضاء جسمي، مثل ألم القلب أو المعدة أو الرأس أو الرئة، والفرق بينه وبين أي من تلك الآلام أنه لا تجدي معه المسكنات التي كنت أرتجيها من جراء سؤالي، كنت أتحايل على نفسي بسؤالي له فقد كنت أعرف الجواب مقدماً، كان جوابه الوحيد أنني واهمة وأنه لا يمكن أن يسمح لنفسه بمجرد التفكير بامرأة أخرى وأنا موجودة في حياته أو أنني حياته ذاتها. كنت أعرف أنها مسكنات ليس غير فالعلاج الحقيقي والوحيد هو اجتزازه من الأعماق بطريقة تشبه العملية الجراحية، لعلي فكرت فيها ولكنني وجدتها قاسية وغير محتملة، عملية تتطلب أن أجريها بنفسي لنفسي بلا تخدير وبلا تردد، لذا كذبت شكوكي وصدقت أيمانه.

تنبهت على صوت السائق يسألني:

– أتقيمين في هذه المنطقة صيفاً وشتاء؟

قلت دون تفكير:

– نعم وماذا في ذلك؟

قال بصوت أجش أرعبني:

– هل تقيمين وحدك؟

وجدتني أفرغ في وجهه كل معاناتي طوال الطريق فصرخت:

– ولماذا تسأل؟ أنت مجرد سائق تقوم بعملك، ولكنك لا تعرف أن عليك أن تقوم به بصمت ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

مد يده وعدل المرآة المعلقة أمامه، تنبهت أنه ومنذ البداية، ودون أن أراه أدارها نحوي بحيث يراني كلما رفع بصره عن الطريق نحوها، وربما راقب تعابير وجهي الواضحة حين يتلون بمدى همي وغمي.

وددت أن أصفعه أو أترك السيارة وأكمل الطريق مشياً على قدميّ، لكن كنت أحجم، فقد تجاوزنا الشوارع المأهولة وبدأنا السير على الطريق الرملية التي لا يمر بها إلا من يقصدها مضطراً. بعد دقائق قليلة وصلت إلى أقرب مكان أستطيع مغادرته، دون تردد أوقفته بعيداً عن البيت وترجلت وقذفت بوجهه بالمال الذي طلبه، وتوجهت إلى بيتي ونفسي تغلي وتصب غضباً على كل شيء.

دخلت البيت كانت الشمس على وشك الغروب أحسست كأن السواد يجلل كل شيء فأشعلت المصابيح بلمسة بسيطة على مفتاح النور، فغمر المكان نور مبهر بدد مخاوفي، ماذا لو أن حياتنا بيدنا، ننهيها بضغط على مثل هذا المفتاح الصغير في الوقت الذي يشعر الإنسان وقد نأت نفسه عن الدنيا ومباهجها، وأصبح لا يرى أبعد من أنفه، ولا يتوقع من الناس المقربين والبعيدين عنه سوى الشر؟ أي حياة هذه. هل حقاً عدت لسابق عهدي في حجب ثقتي عن الدنيا والناس؟ وكيف سأعيش وأي ألم سأعانيه حين لا أثق ولا أصدق ولا آمن أحداً، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا ما زلت أؤمن بأن ماهر إنسان حياتي، هو نسيج وحده وقد أعاد ثقتي بالدنيا والناس بعد فترة مرضية مبرحة. أيكون هو سبب حجبها ثانية؟ هل ستكون أشد عنفاً؟

أعترف أن الدمار النفسي سرعان ما يعود تحت أي إشارة خطر. سيدرك ذلك جمال، إنه المرض يعاودني، لقد وصلت شكوكي وعدم ثقتي إلى أعز الناس، ملك وجمال، فمن لي بعدهم؟ تناسيت كل ما فعلاه من أجلي في لحظة غضب من أجل ماهر. وهل أغضب لغيره؟ متى سأصدق أنه خان، وأنه مثل كل الناس، بل أشد سواداً من كل من عرفت؟ متى يا نفسي تبعدينه عن مسكنه بين الضلوع وتشهقي بآخر نفس يشاركك فيه؟

عاد للبيت سكونه الشرس الذي يفتك بأعصابي، وعادت لنفسي هواجسها وظنونها، لجأت لغرفة نومي، مرسلة صوت الموسيقى إلى عنان السماء، أردتها أن تستعيدني إلى أرض الواقع التي تعذّبت كثيراً قبل أن أثبّت عليها قدميّ. رنين جرس الهاتف من البعيد يستدعيني، فلا أتحرك كأن الأمر لا يعنيني، تناولت كتاباً بجانبي، كان كتاباً فلسفياً، أحب قراءته لأنه غالباً ما يعيد إلى نفسي يقينها وهدوءها كلما ثارت ثائرتي على نفسي بهذه الصورة البشعة التي أنا عليها الآن، كنت اقرأ وأستمع للموسيقى وأفكر بأمور كثيرة في اللحظة ذاتها. قد يعتبرها بعض الناس ميزة ولكني أعتقد أنها تعبيراً صارخاً وصادقاً عن التمزق الداخلي، صعب جداً أن يستطيع العقل أن يفكر بعدة أمور متباعدة ومختلفة بالوقت ذاته، ويستطيع بعد ذلك أن يصل إلى إنجاز ما .

أخيراً صمت الهاتف، الجميع مصرّ على ذبح سنواتي الماضية وإدانتها وهي كل عمري، أنا سأظل أرفض الاستماع بهذا الشكل التعسفي، وبشكل خارج عن إرادتي. هل لعدم ثقتي بكل ما مر في تلك السنوات؟ هل هو الخوف؟ هل هو اليقين؟ يا إلهي كيف السبيل للوصول إلى الترضية التي أريدها؟ لكن ما الذي أريده؟

جاء الليل، ساعات قليلة مضت منذ حضوري وأنا جالسة في فراشي أرتعد، من البرد والوحدة والخوف، سمعت رنين جرس الباب قوياً مصراً، قفزت من سريري وكأنني على موعد مع ذلك الطارق وبمجرد أن فتحت الباب وبسرعة مذهلة اندفعت أعانق ملك سمعت جمال يقول:

– متى ستسمحين لنا بالدخول سيدتي؟

رفعت رأسي ورأيته ينظر إلي تلك النظرات التي تقطر وفاء ومحبة وإخلاصاً وقلقاً، فنحيت ملك جانباً واقتربت منه، أصافحه، فمد ذراعيه نحوي وربت على كتفي مواسياً ومعتذراً فشددت على يديه بحرارة وحب كالذي منحتني إياه زيارتهما رغم الطريقة التي تركتهما بها منذ ساعات. قال وهو يحاول تلطيف الجو:

– يا لعذاب الحب و..

قاطعته وأنا أمسح دموعي:

– يا لعذاب الحيرة بين الهوان والكبرياء.

تكلم جمال كثيراً وطويلاً، ونحن مصغيتان حتى استطاع أخيراً أن يبدد شكوكي وجزعي حول نفسي، ويأخذ وعداً مني أن أستمع إليه أو إلى ليلى، المهم أن أعرف، وبعدها سأكون على ما يرام. أكدت له بدوري أنني سأكون على أحسن حال إذا قيل ما يقنعني. لا يهم من سيقول ولا ما الذي سيقال.

قضينا ليلتنا أنا وملك بعد انصراف جمال في سكون. عدت إلى قراءة الكتاب الذي كنت أقرأه بينما أخذت ملك تقرأ ما أحضرته معها من أوراق خاصة بالعمل. كنا نتجاذب أطراف الحديث بين حين وآخر تعليقاً على ما نقرأ، كأن ليس بيننا كلاماً مهماً، هي تتحرق شوقاً لتقوله، وأنا أتحرق شوقاً لأعرفه، كل منا قررت ترك الأمور للغد وبعدها يفعل الله ما يشاء.

(3)

جاء المساء، وخيم على نفسي شعور عظيم بالقهر، كنت بانتظار ملك التي غادرت منذ الصباح على أن تعود في المساء مع جمال وليلى، ألححت عليها كثيراً أن تعلمني عن صلة ليلى بماهر أو بحكايتي معه على الأقل لأستعد نفسياً قبل حضورهم، إلا أنها تهربت من الجواب بشكل لطيف،لم أشأ أن أضيق عليها فسكت. ظل عقلي يعمل ويقدر لكنه لم يتوصل إلى تقدير مقنع من أجل ذلك شعرت بالإحباط الشديد مع حلول هذا المساء.

دخل الثلاثة معاً وتوقفوا قليلاً منتظرين أن أتقدم وأرحب بهم وفي عيونهم نظرات قياس دقيق ليستشفوا ما بداخلي ويعرفوا مدى استعدادي للاستماع، اقترب جمال أولاً قائلاً:

– أقدم لك ضيفتك في هذه الليلة، السيدة ليلى سمعان حالياً وليلى مؤمن سابقاً.

صمت طويلاً بانتظار تعليقي، لم يجد صدى لما قاله عندي، فأعاد على مسامعي الاسم مرة أخرى، وانتظر ثم سألني باستغراب:

– أمرك عجيب، ألم يلفت انتباهك الاسم؟

– هل هذا وقت المزاح، ما الجديد في أن تعرفني على من أعرفها.

تقدمت ليلى وقالت:

– الجديد الذي لا تعرفيه هو أنني زوجة ماهر قبل أن يتعرف عليك.

كأنني كنت في غيبوبة وصحوت وأدركت أن ما يدور حولي ليس سوى المعركة الفاصلة بيني وبين كل الدنيا صحت:

–من؟ ليلى؟ كيف؟ متى؟ لماذا؟ الآن؟

تقدم جمال مني أكثر وربت عليّ لأهدأ، وقال:

– نعم لقد جزعت وفزعت مثلك، ولم أهدأ إلا حين روت لي القصة، ولم يعد لي من هم سوى كيف سأخبرك بالأمر، كنت في حيرة شديدة بين الخوف عليك من الصدمة ووجوب تعرضك لها لتتخلصي من أوهامك.

لم أرد بشيء، ماذا أقول وقد تقطّعت كل حبال نجاتي، ليس أمامي إلا أن أساعد هذا الجمع المتبرع لمساعدتي في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. أخذت ليلى مكاناً لها قرب ملك، وقالت سأروي لك حكايتي بصدق وأمانة، منذ بداية معرفتي به، والطريقة التي تزوجنا بها إلى أن تعرف عليك.

كل منا كان غريباً عن المدينة، كل منا بدأ رحلة حياته العملية مبكراً أيضاً، كل منا كان يواصل دراسته الجامعية بعد انقطاع بضع سنين عن الدراسة لظروف عائلية.. وهذا ما جمع بيننا. كان ذلك منذ سنوات طويلة تقارب العشرين.

كان لقاؤنا الأول حيث عملنا معاً في "الكلية العلمية الخاصة"، والحقيقة أنها كانت خاصة جداً، جميع طلابها من أبناء الطبقة الثرية في المجتمع الراقي، بينما كان جميع مدرسيهم من خيرة المتعلمين والمثقفين والواعين، ولكن من طبقات قليلة الحظ من رفاهية الحياة، أولاد الكادحين. كانت المدرسة ملكاً لمجموعة اخوة وأخوات يديرون شؤونها لكن مهمتهم الأساسية كانت تعقيد مهمة بقية العاملين فيها، يراقبوننا كأننا عبيدهم بلا هوادة، نظل منذ الصباح حتى انتهاء الدوام الرسمي في الرابعة مساء، ندور بين فصول المدرسة، وممراتها وإداراتها، وطلبتها وأمزجتهم المدللة وغبائهم المستحكم.

كان لكل من المدرسين تقريباً عملاً إضافياً يقوم به على الرغم من سخاء الرواتب لتحسين أحواله المعيشية أو الدراسية، قسم كبير منهم يعملون في التدريس الخاص والبعض الآخر كانوا يواصلون التحصيل العلمي في الانتساب إلى مختلف الكليات الجامعية، ما عليهم بعد الفراغ من الدوام المدرسي إلا ملاحقة الطلبة النظاميين لمعرفة ما جد في المدرجات الجامعية أثناء غيابهم. كانت حياة صعبة بكل معنى الكلمة، فما بالك حين يضاف إليها مشاكل العائلات التي ننتمي إليها ونحمل همها.

ماهر كان أحد الزملاء، كان أكثرهم اعتداداً بنفسه وسعة ثقافته وتعدد مواهبه، كان مرجعاً للجميع في أي موضوع استعصى عليهم، بل كان المثل الأعلى في المثابرة على العمل طوال ساعات الدوام بالهمة والنشاط والإتقان ذاتهم بلا كلل أو تذمر.

ومع كل ذلك كان مبتعداً عن الجميع، يبدو حزيناً معظم الوقت ووحيداً، لا يشجع أحداً على الاقتراب منه دون حاجة، لكن إذا استدعى أمر يخص المدرسين كان يشارك في بعض الجلسات التي تعقد في مطعم المدرسين وقت الغداء، كتقديم احتجاج أو التماس، كان ماهر في نهاية الجلسة يكتب الطلب بخطه الجميل ويوقعه أولاً ثم يطلب من الجميع التوقيع. والغريب أن الإدارة كانت تهتم بما يقدم عن طريقه أكثر من اهتمامها بما يقدمه الآخرون.

بعد بضعة شهور من بدئ السنة الدراسية الأولى لنا في المدرسة بدأ احتكاكي المباشر معه، دخلت إلى المطعم وقت الغداء واتجهت مباشرة إلى المكان الذي أجلس فيه عادة ومنذ بدء العام الدراسي، كانت طبقة من الدموع تحجب عني رؤية من حولي بعد أن تعرضت لتوبيخ علني من مدير المدرسة إرضاء لأحد الطلاب الذي أنبته في الصباح على استهتاره وإهماله الدائم في دراسته وكتبه حتى مظهره العام، كان ذلك أمام جميع الزملاء والزميلات، لم ألحظ أنهم سبقوا واجتمعوا وراحوا يناقشون الطريقة الفظة التي عوملت بها، ما أن التفت إليهم حتى قابلني وجه المدرس خميس وهو أكبرنا سناً وأقدمنا في المدرسة حتى بات يعرف الكثير عن المدرسة وأصحابها ونظمهم، قال مواسياً:

–مالنا ومالهم يا ابنتي " فخار يكسر بعضة".

– ولكنني يا عم خميس كنت أقوم بما يمليه عليّ واجبي كمربية، هل مهمتنا تعليم الحروف الأبجدية والحساب فقط؟

رد زميل آخر وهو يلوّح بيده:

–ارمي وراء ظهرك يا آنسة ليلى ولا تفعلي إلا ما يطلب منك فقط.

قال ماهر:

– الآنسة ليلى على حق، يجب أن يكون الدور الذي نقوم به كاملاً، ولن نرضى أن يتدخلوا في طريقتنا فيما نقوم به من عمل ويعدلوها بين حين وآخر بما يتناسب ويتوافق ومصلحتهم المادية في أغلب الأحيان، هل يوافقون على تدخلنا في أعمالهم الإدارية؟

ردت زميلة لنا:

– ماذا تقول يا أستاذ، راس مالها معروف، كلمتين ليس غير، اعترض تطرد.

– من هنا يجب أن نبدأ التفكير جدياً للوصول إلى موقف موحد في إيجاد حل لمشاكلنا مع إدارة المدرسة.

– كيف أستاذ ماهر؟

–لماذا يختارون أمثالنا للعمل هنا، حاجاتنا الماسة للعمل، أخلاقياتنا التي نتحلى بها، ثقافاتنا وعلمنا، ونحن نختار العمل معهم من أجل رواتبهم المرتفعة عن المدارس الأخرى، يعتقدون أنهم اشتروا منا كل ما نملك وربطنا بهم تحت كل الظروف، وهكذا لا يسمحون لنا بالتعامل مع طلابنا بالندية أو بالتميز الذي يستحقه المدرس بين طلبته، فتبقى العلاقة بيننا وبين التلاميذ تأخذ طابع الأقوى والأضعف، هم يدفعون ونحن ننتفع، ونخاف على ما ننتفع به، فيشعر كل تلميذ أنه يملك المدرسة والمدرسين، بأموال أبيه التي تصرف ببذخ غير عادي على الأقساط المدرسية وعلى الطلبات التي لا تنتهي طوال العام الدراسي.

كان كثيراً ما يلفت نظري بمنطقه وثقته المفرطة في نفسه ومهنته، ولم أجرؤ في أي وقت من الأوقات على التفكير بأن أحوز على اهتمامه مثل ما حصل معي، فقد كنت إنسانة عادية، متواضعة في كل شيء، ابتداء بالشكل وانتهاء بهذا العمل الذي أقدمه بشكل ممل وروتيني. ومع ذلك فرحت بعد ذلك اليوم حين بدأ يحاول التقرب مني في المطعم أثناء فترة الغداء، المكان الوحيد المتاح لنا فيه قليل من الفراغ للراحة والكلام. في البداية كان يؤكد لي أنه يعتبر الإهانة التي وجهت لي كأنها وجهت له ولن يهدأ له بال حتى يرد لي اعتباري علناً كما عنفت علناً، وفعلاً أمام إصراره تم له ما أراد، شعرت بعدها بامتنان كبير نحوه كزميل وإنسان.

كان ماهر برأي الجميع جذاباً بشكل غامض، لا أحد يعرف أين مصدر جاذبيته، كنت أوافقهم فكثيراً ما كنت أضبط نفسي متلبسة في الاستغراق في النظر إليه، فأجد صعوبة في سحب نظراتي واهتمامي المنصب نحوه بشكل لافت للنظر، لكن ما كان ليلاحظني، لأنه غارق في عالمه الخاص معظم

الأحيان، وإلا لحصل مالا يحمد عقباه، فشيء مثل ذلك كفيل بإثارة غضبه. في الحقيقة لقد بررت لنفسي تطفلها أن حزنه الشديد البادي بوضوح على وجهه هو الذي يستغرقني.

صحوت من نومي باكراً كالمعتاد، وأخذت في استعدادي الروتيني للذهاب إلى عملي، لكن في نفسي فرح قليل يتأرجح بين اليأس والرجاء أن يكون بيني وبين ماهر علاقة من نوع ما. فجأة جاءني صوت جارتي تدق بابي وتنادي علي فتحت مذعورة لتخبرني أن أختي اتصلت بها هاتفياً قبل قليل ورجتها إخباري بمرض أمي والذهاب حالاً إليهم.

مرت لحظات خلت نفسي أنني أعيش كابوساً، ما هذا الذي جاءني فجأة، تداركت الأمر، لا مفر من الذهاب، حملت أشيائي القليلة وتوجهت إلى المدرسة ودخلت فوراً على السيدة المشرفة شقيقة المدير، والمسئولة عن مثل هذه الأمور، لا أدري كيف وافقت بسهولة، مع أن ذلك من الأمور المستحيلة في مدرستهم، أذنت لي بالغياب لمدة ثلاث أيام وكان اليوم الرابع هو يوم العطلة المدرسية، سيتوفر لي مدة كافية نسبياً أستطيع خلالها تدبير أمور البيت الآيل للسقوط منذ إنشائه.

الحافلة القديمة تهتز بنا وتئن مثل عليل ميئوس من شفائه تزيد من ضيق النفس المتخمة بمشاكلها التي لها في الصميم الصوت ذاته واليأس ذاته، ألقيت رأسي على مسند مقعدي لأستريح من ثقله على كتفيّ، مع بداية الشعور بالراحة أطلق عنان أفكاري وتداعياتها، أخذت بعيداً عن هذا الجو الممل والمتعب، أوصلتني كالعادة إلى بلدتنا قبل وصول الحافلة، وهاجمني أول خاطر يطرأ على مخيلتي كلما عدت إليها أو غادرتها، السبب الرئيسي الذي أجبرني على تركها غير آسفة، سبب أضيف إلى هموم خاصة في بيتنا كانت تثير الكآبة والحزن في النفس أكثر مما يمنح الاستقرار والأمان، هربت منه في المرة الأولى وقبل حصولي على الثانوية العامة وعملت في مكتب محام شهير، كان اسمه يعني الكثير، يعني النجاح والغنى والوسامة والرجولة و.. أشياء كثيرة تنقص معظم أهالي مدينتنا الصغيرة، لم أكن أعرف اسمه كاملاً، فالأستاذ حسن، تكفي ليعرفه السامع حتى ولم لم يكن من المنطقة.

أمي هي سبب مشاكلي ومشاكل أبي وأخي وأختي، ماذا فعلت هذه المرة أيضاً، من سقط ضحية أنانيتها وكبرها، أبي أول الضحايا وأنا الضحية الثانية، من جاء دوره الآن، الحقيقة أنني لم أعرف إن كانت أمي هي سبب هروبي من البلدة بأجمعها أم ما حصل لي مع الأستاذ حسن بعدما شجعتني على التساهل معه حين تجرأ عليّ، أفهمتني أنها فرصتي الكبيرة التي لا تعوض إن استطعت أن أغرقه في بحر من الاهتمام والحب حتى يضطر للزواج مني، طبعاً لم تكن لتنسى أن تذكرني بكل مناسبة أو حتى بدون مناسبة أنني وأختي نشبه أبينا القليل الحظ من الوسامة، ولم نحظ بشيء من جمالها ولا تناسق قوامها ولا عراقة مكانتها.

لقد رضخت لها، وبعد ذلك له، ليس من أجل الحب الذي كان يدعيه، ولا الرغبة في العيش في كنف رجل شهير مثلما كانت تدعي، ولا من أجل الحياة الرغيدة التي كان يحياها وبانتظار من ستفوز

بالزواج به لتصبح شريكته في كل ذلك، جلّ همي كان منصباً على الهروب من بيتنا والبعد عن أجوائه المريضة التي أوصلتنا إلى حافة الانتحار بأي صورة من صوره.

حين اهتم الأستاذ بي، بدأ يهديني الملابس الأنيقة والعطور والمال الوفير، صرت أحاول أن أغير فعلاً من شكلي المتواضع ومعرفتي البسيطة، أردت تحويل سحنتي المشدودة التي تجعل وجهي دائماً كأنه حامل دهشة أو تساؤل أبدي، فلم أنجح سوى أن أضيف إليه بسمة مرسومة ونظرة عميقة، وإن بدأت فعلاً تحمل له شيئاً من الحب.

عشت فترة وهم وسراب نسيت فيها نفسي وصدقت كل ما يقول وما يفعله، حتى حين طلب مني أن أجهز البيت الذي يملكه بأثاث جديد استعداداً للزواج لم أشك لحظة واحدة أن العروس امرأة غيري، لم يقلها لي مباشرة ولكن العلاقة الحميمة التي صارت بيننا، كانت تفرض هذا الوضع. وجاءت ساعة الصفر وابتدأ العد التنازلي في علاقتي معه، فقد دعاني إلى العشاء في الفندق الكبير، وما أن انتهينا من العشاء، وقف واستأذن لبضع دقائق، ذهب وغاب طويلاً، شعرت بالحرج والملل، أخيراً عثرت عيناي عليه وهو واقف بجانب المصعد ومعه امرأة يحادثها، ثم قبلها على وجنتها وتركها وعاد إليّ، لم أسأل ولم يوضح، وفي طريقنا للخروج لم أنس أن أدقق في الوجه الجميل الناظر نحونا بشغف غير خاف، تحرك فضولي وغيرتي وأخيراً عقدتي الأزلية فألجمت لساني.

بعد ذلك العشاء الأخير أصبح تلميحي عن تحديد موعد الزواج إلحاحاً ضيق عليه حتى استجاب لطلبي وحدد موعد الزواج بعد شهر، حين يعود من سفرته التي سيقوم بها بعد يومين لإنجاز بعض الأعمال، وسيغيب مدة شهر أو أكثر قليلاً وبعدها سنتزوج، طلب مني أن أنتهز فترة غيابه وأترك العمل في مكتبه وأتفرغ لتجهيز نفسي، ليكن كل شيء جاهزاً حين عودته. غاب كثيراً وطويلاً وأمي تلح عليّ أن أسأل عنه وأن أذهب إليه وقد فعلت الجواب واحد أبداً لم يتغير، لم يعد بعد ولا موعد لعودته.

عرفت بطريق الصدفة أنه في مكتبه بل أنه لم يسافر أبداً، فذهبت إليه في البيت الذي كان بيتنا الزوجي، فتحت الباب بمفتاحي الخاص ودخلت ووجدته أمامي وجهاً لوجه لم يبد عليه أنه تفاجأ، بل شعرت كأنه كان مستعداً لتلك المقابلة، فقد نادى بأعلى صوت "جو" فجاءت امرأة وكانت هي بذاتها امرأة الفندق.

قبل أن أسأل وأغضب وأثور كان قد أحاط كتفيها بذراعه وتقدما نحوي ثم انحنى وقدمها لي "زوجتي جو" ثم التفت إليها وقال "ليلى الموظفة التي أخبرتك عنها وهي التي قامت بتأثيث بيت الزوجية لنا" مد كفه إليّ قائلاً "إنها من الذوق بحيث أتت إلينا بنفسها لتعيد المفتاح الذي كانت تستعمله أثناء تجهيز البيت شكراً لك وألف شكر" دارت الدنيا بي ولن أعرف ماذا قلت ولا الدرجة من الغليان التي كانت عليه كلماتي ولهجتي وغضبي لكن سمعته جيداً وهو يفتح الباب ويقول، هل أنت مجنونة؟ كيف

خطر ببالك أنني قد أتزوج من مثلك؟ قال لجو بالحرف الواحد "يبدو أنني كنت أملها الوحيد والأخير" فضحكا بصوت كان مثل السياط على جلدي.

توقف الاهتزاز، فتحت عيني وأغلق ملف الذكريات وحده كما بدأ، لقد وصلت أخيراً، بضع دقائق وكنت في البيت. وجدت أمي فعلاً في حالة هياج وعصبية مخيفة، تبكي وتصرخ وتشد شعرها، عرفت أنها كذلك منذ أمس. لو إن أحد أخبرني أن تلك الصخرة الشامخة اهتزت وانهارت بكل هذا العنف لما صدقت، واتهمته بالمبالغة.

أبي تزوج، ماذا يعني ذلك؟ انتظرت تتمة الحديث، إذ لا يمكن أن أصدق أن خبراً كهذا يهزها أو يعني لبيتنا خسارة ما، فطوال هذا العمر الطويل، وقد اقتربت من الثلاثين، لم أشعر أن لأبي هذه الأهمية والمكانة عند أمي، كان دائماً ثانوياً في البيت، لم تسمح له أن يكون صاحب كلمة، أو رأي عليها أو علينا أو في أي شأن من شؤون البيت، لم تكن له صفة أو مكان في حياتها، وكنا نراه قانعاً بتلك المكانة، لم اسمعه يعترض ولا حاول انتزاع أي حق منها، بل وقد أكون متجنية عليه إذ أقول أنه غرق أكثر في ملذاته بسعادة كاملة لتحلله من كل مسئولية تجاهنا وتجاه البيت.

لم نكن نعاني أي ضيق مادي، بل كنا نعتبر أنفسنا ميسوري الحال، لذا ضعف مركزه أكثر وأكثر حيث أن أمي هي صاحبة هذا المال الذي نعيش به، ونظراً لكل ذلك، فقد استغل أوقات فراغه بعد الانتهاء من عمله الحكومي وانصرف إلى أهوائه وملذاته وحياته الحقيقية، يمارسها ويحقق بها وجوده الفعلي خارج بيتنا.

كنت أكن محبة كبيرة لأبي لا بل مغرمة به، واعتبرتها المسئولة الوحيدة عن سقوطه يوما بعد يوم، وأصبحت أخاف من أن يجيء اليوم الذي أقع فيه تحت سيطرتها فتقضي عليّ كما هدمت أبي، تمردت عليها وعلى مالها والتحقت بالعمل عند المحامي حسن، كان ذلك قبل حصولي على الثانوية العامة، خرجت من أسرها ولكنني لم أستطع تقديم المساعدة لأبي بعد فوات الأوان، ولم يعد هناك أي نية في لم شمل الأسرة من جديد.

من أجل ذلك كان اندهاشي كبيراً حين رأيت أمي حزينة وفوجئت إلى هذه الدرجة. لقد غادر أبي البيت منذ شهور طويلة، لم تسأل عنه، ولم تسمح لأي منا أن يسأل، فلماذا هذا الحزن سوى الخوف من كلام الناس كالعادة.

أمضيت بضعة أيام معهم لم نعرف طريقاً للخروج من المأزق، لأننا لم نعرف ماذا تريد، كانت أمنا كل يوم في تبدل مستمر إلى الأسوأ، عصبية أكثر من اللازم، صعبة التفاهم، صعبة المعايشة، لا تستمع لما نقول بل تعتبرنا مصائب تريد التخلص منها. أخافتني قسوتها وأنانيتها، ومع ذلك رثيت لحالها وقررت أن أساعد أخي في إتمام مشروع السفر للخارج، وأن أسرع في زواج أختي الذي كان وشيكاً.

دموع غزيرة رافقتني طوال رحلة العودة إلى مقر عملي. وما أن وصلت إلى بيتي حتى حمدت الله أن شريكتي فيه لم تزل في عملها، فأعدت وصلة بكاء طويلة من جديد، أفقت منها بذهن صاف وأخذت عهداً على نفسي أن لا أضللها مرة أخرى ولا أشتتها سأنسى كل الدنيا التي خلفتها ورائي كما نسيت الأستاذ حسن وكل ما أصابني على يديه.

كنت على اقتناع كامل أن زواج أبي كان ضرورياً، بل هو حق طبيعي له، ليستقر بعد سنوات التشرد التي عاشها في ظل سوء معاملة أمي له. أما نحن فسنريح أمنا من المسئوليات الملقاة على عاتقها ولكن سنبقى رهن إشارتها حين تستدعينا، سأساعد أخي على السفر ويستقر هناك، وأختي ستتزوج قريباً، لم يبق ما يشغل بالي سوى نفسي، فلأبدأ أحدد الأوليات في حياتي وأهمها متابعة دراستي.

عدت إلى الدوام المدرسي في اليوم التالي بعد غياب خمسة أيام خلتها دهراً لتزاحم الهموم على رأسي، وعند الغداء دخلت المطعم واتجهت مباشرة إلى مكاني المعهود، كان مشغولاً فأجلسني النادل على الطاولة المجاورة لطاولتي مكان ماهر الدائم، الجار الصامت والزميل العازف. لم تتح لي فرصة للسؤال عن مكان آخر فقد كان النادل مستمراً يكيل الأسئلة وسط استغرابي، وسيل آخر من الترحيب ذات الطابع المهني اللزج الذي لا يعني شيئاً، جلست وقد طفت ابتسامة خفيفة على وجهي من إجاباتي المبتورة التي كنت ألطمه بها بشكل إيقاعي متتابع، لم ينتبه، ولم يسكت حتى غادر ليحضر لي طبق السلاطة المفضل.

حضر صاحب المكان ولم أزل في بداية طعامي، رأيته وقد اندفع نحوي، أحسست بشعوره حسبته مثل الشعور الذي اعتراني قبل دقائق حين وجدت مكاني مشغولاً، ابتسمت له قبل أن يتكلم معتذرة، لدهشتي كانت يده ممدودة بالسلام والمصافحة، سحب كرسياً وجلس مقابلاً لي وراح يسألني عن سبب غيابي وعن موعد عودتي قلت:

– أليس غريباً أنك تسألني بطريقة من يهمه أمري مع أننا زملاء عمل ومن بعيد لبعيد.

قال مقاطعاً:

– الحق معك ولكن أنا أعرفك جيداً، لم أعرف مكانتك عندي إلا حتى افتقدتك، خشيت أن يكون قد أصابك مكروه فذهبت إلى زميلتك في السكن أعتقد أن اسمها زينب وسألتها ورغم علامات الاستفهام التي قفزت إلى عينيها أصررت أن أنتظر الجواب فأخبرتني أنك ذهبت لزيارة الأهل بعد أن استدعيت على عجل. ما سبب غيابك فجأة؟ عسى أن يكون خيراً.

قلت ممازحة:

– هل تنتظر الإجابة يا أستاذ ماهر؟

أستدرك قائلاً:

– يجب أن أقدم نفسي بشكل خاص مادمت أسأل بشكل خاص. على كل حال حصل خير، أنا ماهر مؤمن، مدرس فلسفة وعلم نفس معك في الكلية، أتابع دراستي الجامعية بشكل مؤقت لأنني هاو للمسرح، وقد درست لمدة سنتين الإخراج، ثم انقطعت عن الدراسة بسبب موت أمي. بانتظار أن تأتيني الفرصة لأعاود دراسته.

– متى كان ذلك؟ هل كانت مريضة؟ البقية في حياتك.

– لقد ماتت منذ بضع سنين، لقد كانت في أتم صحة وعافية، تقوم على خدمة أبي المشلول منذ سنوات بهمة ونشاط الشباب، لم تسمح لنا أن نساعدها في خدمته، كنا جميعاً منتظرين موته، فإذا بها تموت قبله. كان لا بد لأحدنا أن يتفرغ لخدمة أبي ورعاية أخوتي وملاحقة العمل الذي كنا نعيش منه وكانت أمي تتابعه في غيابنا. ولم يكن أي منا يستطيع حمل أعباء أمي سواي.

استغربت هذا الشرح الطويل، ومع ذلك قلت أسايره ولأغير جو الحديث الذي أحزنه:

– حسناً أستاذ ماهر، لقد قدمت لنا الآن أوراق اعتمادك وقبلناك سفيراً في بلاطنا إلى أجل غير مسمى.

التقط المزاج بسرعة حضور فائق وقال:

–أتمنى أن أكون على درجة أرفع من هذه ما رأيك في رتبة وزير؟ سأكون نعم الوزير.

ضحكنا سوياً وانشغل كل منا في تناول غدائه، كان معظم الزملاء قد غادروا المكان ولم ننتبه لذلك فقمت من مكاني مادة له يد الصداقة، وغادرنا معاً لكنه قبل أن نفترق سألني:

– سمعت أنك سافرت من أجل مشروع زواج فهل هو من أجلك؟

– كان مشروع زواج فعلاً لكنه من أجل أبي.

قال بلا كلفة:

– تتحدثين عن الموضوع بمنتهى البساطة وعادة يحزن الأولاد إذا تزوج أحد والديه مرة أخرى، هل أمك غير موجودة؟

– أمي مازالت على قيد الحياة ولكن ليس بينهما أي تفاهم.

افترقنا ولكن إلى لقاء، أصبح اللقاء يومياً، واعتاد الجميع على وجودنا سوياً معظم الأوقات.

هكذا دخل ماهر حياتي وأصبح محل اختيار مبدأي. بداية كان لقاؤنا اليومي يتم وقت تناولنا الغداء، ثم أخذ اهتمامي به يزداد، فلم أدع فرصة تمر دون أن أتقصى سلوكياته وأخلاقه وأسلوبه في الحياة، والكيفية التي يؤدي بها عمله، والحقيقة أنه كان مثال الرجل الكفء في المكان الذي يوكل إليه، عرفت تفانيه في عمله على الرغم من إنه أقل بكثير من إمكانياته وهواياته ورغباته الكبيرة في الحياة مما زاد في تقديري له. مع مرور الأيام أصبح وجودنا معاً أمراً مألوفاً ليس لنا فقط

بل لمن حولنا، سارت حياتنا هادئة وبسيطة بلا أدنى تكلف أو تمويه، وأخذ كل منا يغير حياته نوعاً ما تغييراً لطيفاً ومحبباً بل ومطلوباً.

– هل اتفقتما على الارتباط؟

– الحقيقة لم نكن قد اتفقنا بعد، ولكن في أعماق الشعور كان القرار مهيئاً، فنحن الاثنان في مرحلة النضوج والاستقرار العاطفي. حين قالها لم أدهش لكن الطريقة التي أوصل لي رغبته بالزواج مني أدهشتني حقاً. بعد أن فرغنا من تناول وجبة الغداء في يوم الخميس، آخر يوم في الدوام المدرسي، قبل العطلة الأسبوعية، قال ونحن على وشك أن نفترق:

– ما برنامج عطلتك هذا الأسبوع؟

أجبت وكأنه يعرف:

– كالعادة في البيت.

قال في دهشة:

– ولماذا في البيت وأنت وحدك؟

قلت بطريقتي الاندفاعية المعهودة:

– في البيت لأنني أحب أن أكون ست بيت يوماً أو يومين في الأسبوع، أنظف البيت، أغسل، أتسوق، يعني تلك الأعباء المعروفة.

قال وهو يحاول أن يقلدني في بساطتي:

– وهل تستطيعين تحمل عبء جديد في هذه العطلة؟

قلت ضاحكة:

– إن كنت تعني أنك تدعو نفسك على الغداء غداً فأهلاً وسهلاً، لكن عليّ أن أستأذن شريكتي في السكن.

قال وهو يحاول المداعبة:

– لقد سألتها ووافقت.

قلت وأنا أقف:

– أتسألها قبل أن تسألني؟ ماهر أرجوك لا تستعجل الأمور. على كل حال إلى اللقاء غداً في البيت وسنتكلم في هذا الموضوع.

– وهو كذلك. هل تريدين أن أحضر شيئاً ما؟

ضحكت وأنا أهز رأسي نفياً وافترقنا، لم أشعر بالراحة التي تغمرني دائماً حين أعبر عن نفسي بتلقائية مخترقة الشكليات المتعارف عليها، فقد وجدت نفسي في حالة توتر نفسي واستنفار عقلي، ألوم نفسي بأنني تصرفت قبل التفكير بترو، ولا أتذكر مثل هذه الأمور إلا بعد اتخاذ القرار أو

بعد التصرف الكامل، وكما يقولون "الطبع يغلب التطبع" صرت أحسب ألف حساب للغد، ولم أستطع التكهن كيف سينظر إلى هذه الدعوة، فالنظرة التقليدية للبنت ما زالت هي المسيطرة على العقول وخاصة شبابنا.

على الرغم من لهفتي على حضوره واستعدادي الكامل فقد استمر حواري مع عقلي حول البدائل التي كان عليّ اختيارها، ألم يكن من الأنسب لو رافقته إلى تناول الغداء في مكان عام؟ أليس من الأفضل لو رفضت وانتهى الأمر؟ لماذا لم أمهله مدة أطول ريثما أفكر بالأمر؟ فجأة تمرد عنفواني على كل شيء، وأقصى عن فكري هذه الخيارات التي طرحت في ذهني لتبلبل أفكاري، قررت أن أتصرف التصرف الذي أراه مناسباً ليكن بعدها ما يكون، ثم ما يدريني لعل القدر يسر لي هذا حتى أتبين نوعيته وهل يصلح لي أم لا؟ نحيت هذه التخيلات جانباً وانشغلت تماماً في إعداد اللازم.

التقينا في الموعد المحدد في بيتي الصغير، وهو يسمى بيتاً تجاوزاً، فلم تزد مساحته عن الصالة المستطيلة الشكل، كان جزء منها غرفة جلوس، تحتوي على أريكة واحدة تتسع لشخصين أو ثلاثة، وأخرى مفردة، القسم الآخر به منضدة للطعام وعدد من الكراسي. خطوات قليلة توصل إلى المطبخ فكنا ندخله ونخرج منه أثناء تحضير المائدة للغداء فنتواجه مع كل خطوة، كان ماهر يشاركنا بمرح لطيف في تحضير الأطعمة فيثير في نفسي بهجة قلما شعرت بمثلها في حياتي بتعليقاته الساخنة واللاذعة عن ضيق المكان وبساطته.

قضينا نحن الثلاثة نهارنا كله بانسجام لطيف، بين الأحاديث العامة ولعب الطاولة حتى المساء، فجاء دور التلفزيون، سميرنا المسائي الوحيد، قام ماهر من مجلسه وأغلقه دون استئذان، واتجه صوب رف مرصوص عليه بعض الكتب، قلّبها بين يديه، اختار واحداً ثم جلس بجانبي تماماً على الأريكة الكبيرة التي كانت زينب تشاركني الجلوس عليها، فقامت من جلستها تاركة المكان لي ولماهر، قبل أن أعلق رأيته يفتح الكتاب وهو يقول:

– هذه المجموعة من الكتب ناقصة وغير مستوفية شروط المكتبة الخاصة التي تساعد في توسيع أفق صاحبها وتسليته في الوقت ذاته، سأحاول أن أعوضك عن هذا النقص قريباً.

كنت مأخوذة في شخصية هذا الإنسان البسيطة والمركبة في وقت واحد، أحاول أن أقربها من نفسي وأقارنها بها، سمعته يقرأ في الكتاب الذي بين يديه بصوت رخيم، قراءة سليمة وجميلة. لا أعرف لماذا شعرت وكأنني في حالة دفاع عن النفس، شعور غزاني في الداخل ولكنه خرج على شكل تعليقات ربما كانت تأتي ساذجة مضحكة ولكني تمالكت نفسي، وصرت أقاطعه لأبدي له الإعجاب مرة، وللتعليق على ما يقرأه مرة، مبدية معرفة لا بأس بها، كأنني قد قررت أن أدهشه بذكائي وبمدى تفهمي وسعة إطلاعي، وتقاربنا الفكري، وإن بدا أكثر إطلاعاً مني.

توصلنا في نهاية الجلسة إلى أن تطلعاتنا المستقبلية تتشابه كثيراً، بينما أوجه الاختلاف بسيطة وواضحة اجتماعها في اثنين تعني تكاملهما. كان قدراته كثيرة ومتعددة ومكتملة، بينما قدراتي محدودة، كان من الممكن أن تفتح قدراته المجال واسعاً أمامه ليحقق الكثير من الطموحات، لكنه لم يكن على استعداد لبذل جهد لتوظيفها والاستفادة منها، لكني كنت أكثر جرأة منه في الاستفادة من هذا القليل الذي عندي. كنت أقوم بجهد خارق في كل مرحلة من مراحل حياتي على صقل وإبراز ما أملك من قدرات، حتى لتبدو للعيان وكأنها خارقة، مع أنني لم أكن أفعل شيئاً سوى وضعها محل تجربة وتنفيذ بلا هوادة، كلما فشلت أعيد الكرة، بجهد أكبر، فأكون جديرة بكل ثقة. بعد ذلك ومع الاقتراب أكثر أدركت الحقيقة بأن قدراته وملكاته في سكون البرك الراكدة التي لا تعني شيئاً سوى أن لها خصائص البحيرات من اتساع وعمق ومياه.

جنح خيالي وراء فكرة الزواج التي لمح بها، استحسنتها، سيكون زوجاً ناجحاً لو أخذت بيده في دروب الحياة، جرأتي ستفجّر قدراته.

سألته وقد ألقى الكتاب إلى جانبه ونظر إليّ لأقترح تسلية ما:

– أليس من الأنسب أن نتكلم عن أنفسنا بشكل أوسع ليعرف أحدنا الآخر.

قال بجدية:

– أتمنى ذلك ولكني خشيت إن بادرت بسؤالك عن شيء ما أن تسيئي الظن بي.

غادرت زينب المكان متعللة بعمل ضروري عليها إنجازه لتترك الفرصة التي سنحت للتقارب بيننا، شعرت لها بالامتنان وبحرية في الجلسة والكلام، وقد قررت أن أبدأ بالحديث.

رويت له الكثير من أمور حياتي، وعن أحوال البيت الذي نشأت فيه، علاقة الحب التي ربطتني مع حسن سنوات طويلة ثم تخليه عن وعوده وتزوج أخرى، لم أتكلم عن تلك الواقعة التي خرجت منها بلا صفة معينة سوى أنني امرأة أعيش باذلة كل جهدي لأنسى ما أريد أن أنسى وأتذكر ما أحب تذكره. حينها أستوضح:

– هل ترك هجره بتلك الطريقة الفجة جرحاً في نفسك؟

أجبت وكنت صادقة بشكل مذهل حتى لنفسي:

– لن أدّعي أنني مجروحة أو مصدومة، بالعكس فربما ضارة نافعة، فقد أصبحت أكثر واقعية وأقرب للتفكير المنطقي. اقتنعت بأن الرجل الذي أعطيته حبي وعمري كان ومنذ البداية لا يستحق، لو دققت قليلاً كما فعلت بعد ذلك لكنت توصلت لتلك النتيجة بسهولة ويسر، لكن قلة ثقتي بنفسي وبمواهبي وبقدراتي، وصوت أمي يصدح في أذني صباحاً ومساء، منذ أن أصبحت على وشك الصبا، ولم يتقدم أحد لي، تؤكد بمناسبة وبدون مناسبة أنني سأبقى عانساً حتى أصبحت أؤمن بما

تقوله، فلم أصدق أن شخصاً مثل حسن بكل وسامته ونجاحه يعطيني كل هذا الاهتمام، يلاحقني بكلامه وغزله مما جعلني أعتبر ما يمنحني إياه أغلى عليّ من نفسي.

طويت صفحة كاملة من حياتي لا أحب تذكرها بكل فيها، طمستها في ظلام دامس وألغيتها فلم تعد تظهر وإذا تذكرتها فإنها تبدو مجرد ملامح غير واضحة في خيالي.

رأيت في عينه اهتماماً لما أقول، وحين صمت وجدته ينتظر، لم أشأ أن أحكي المزيد. لماذا أخرق عهداً قطعته على نفسي قبل أن يحين الوقت لذلك. سألني متلهفاً:

– ماذا عن حياتك العاطفية الآن، أليس في حياتك إنسان ما في الوقت الحاضر؟

– لا شيء سوى تلك التجربة التي كرهتها، وكرهت الحب والعواطف كلها، وآمنت بالعقل أولاً وأخيراً.

طبعاً كالعادة ندمت على تسرعي ولكني وجدته متفهماً جداً، فقد رد على ما قلت بابتسامة تحمل الكثير من الأسى وقال:

– مثلما حصل معي تماماً.

سكت قليلاً ثم قال:

– أتعتقدين أن من الممكن أن يقوم زواج على هذا الكم من التفاهم والود.

لم أستغرب سؤاله، قلت:

– بل في مثل ظروفنا كلانا يعتبر نفسه محظوظاً إذ وجد من يفهمه ويقدر ظروفه بهذا الشكل السهل الخالي من تعقيدات المجتمع الذي نراه ونسمع عنه.

قام من مجلسه وبه فرحة حقيقية قرأتها في عينيه، استعد للخروج، فاقتربت منه قائلة:

– بودي أن تجيب عن سؤال كالذي سألتني إياه منذ لحظة، هو الأهم من وجهة نظري. هل في حياتك حب وهل في حياتك الآن امرأة ما؟

قال وهو يغالب حزن طفحت به عيناه التي تشع أبداً ذكاء خارقاً يبدو مخيفاً معظم الأوقات:

– كان هناك حب كبير سأحكي لك قصته قريباً، أما الآن فليس هناك أي امرأة في حياتي.